

موسوعة الحضارة الإسلامية

دراسة تحليلية شاملة في عشرة أجزاء ، تبرز الاتجاهات الحضارية
التي جاء بها الاسلام لهداية البشرية في شئون العقيدة ، والسياسة ،
والاقتصاد ، وفي مجال الحياة الاجتماعية والتربوية والعسكرية ،
والتشريعية والقضائية ، كما تبرز جهود المسلمين في الحضارة التربوية .

٦

المجتمع الإسلامي

أسس تكوينه — أسباب ضعفه — وسائل نهضته

تأليف

الدكتور أحمد رشدي

دكتوراه من جامعة كمبودج
استاذ ورئيس قسم التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية
بكلية دار العلوم — جامعة القاهرة

الطبعة الثانية ١٩٩٠

رؤية جديدة — تخطيط جديد — مادة علمية جديدة — أداء جديد



مكتبة الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
أصحابها حسن محمد وأولاده
٩ شارع مكي باشا بالقاهرة

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى — ١٩٥٨

الطبعة الثانية — ١٩٦٣

الطبعة الثالثة — ١٩٦٧

الطبعة الرابعة — ١٩٧٤

الطبعة الخامسة — ١٩٨٠

الطبعة السادسة — ١٩٨٣

الطبعة السابعة — ١٩٨٦

دعيل هذا الكتاب على الجائزة الثانية في المعرض الدولي للكتاب
الذي عقد في « كوالا لمبور » خلال أغسطس وسبتمبر سنة ١٩٦٦

كتب للمؤلف

أولا : موسوعة التاريخ الاسلامى

دراسة تحليلية شاملة في عشرة اجزاء لتاريخ العالم الاسلامى كله من مطلع الاسلام حتى الآن ، مع دراسة الجوانب الحضارية التى أسهم بها المسلمون في ترقية العبران ، وتطوير الفكر البشرى :

١ - الجزء الاول : (الطبعة الثانية عشرة)

— مقدمة الموسوعة : نطاق التاريخ الاسلامى — تفسير التاريخ — هل التاريخ علم ؟ .. فلسفة التاريخ — فائدة التاريخ — مراحل تدوين التاريخ — قضية الالتزام في كتابة التاريخ الاسلامى — علم التاريخ بين المسيحية والاسلام ...
— تاريخ العرب قبل الاسلام : البدو والحضر — حياة العرب السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

— السيرة النبوية العطرة : جوانب من السيرة تدون لأول مرة
— الدعوة الاسلامية وفلسفتها — عصر الخلفاء الراشدين

٢ - الجزء الثانى : (الطبعة الثامنة)

الدولة الاموية والحركات الفكرية والثورية في عهدها .

٣ - الجزء الثالث : (الطبعة الثامنة)

الخلافة العباسية مع اهتمام خاص بالعصر العباسى الاول ، وبدور المسلمين خلاله في خدمة الدراسات الاسلامية والحضارة العالمية .

٤ - الجزء الرابع : (الطبعة السابعة)

— الاندلس الاسلامية ، وانتقال الحضارة الاسلامية الى اوربا عن طريقها .

— المغرب — الجزائر — تونس — ليبيا (من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر) .

— السنوسية : مبادئها وتاريخها .

٥ - الجزء الخامس : (الطبعة السادسة)

— مصر وسوريا من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر .

(تلوين جديد لتاريخ مصر ودورها السياسى والحضارى) .

— الحروب الصليبية : دوافعها — ادوارها — نتائجها .

— الامبراطورية العثمانية (تركيا) منذ نشأتها حتى الآن .

٦ — الجزء السادس : (الطبعة الخامسة)

الإسلام والدول الإسلامية جنوب صحراء أفريقية منذ دخلها الإسلام حتى الآن :

- دراسة عن وسائل انتشار الإسلام :
- مراكز الشمال — هجرات عربية وغير عربية — التجارة — الطرق الصوفية — مراكز داخلية .
- الدول الإسلامية قبل الاستعمار الأوربي :
- غانة — مالي — صنفى — دول الهوسا — برنو — باجىرمى — واداي — النونج — مقدشو — مملكة الزنج .
- الدول الإسلامية الحالية :
- موريتانيا — السنغال — جامبيا — غينيا — مالي — النيجر — نيجيريا — تشاد — السودان — الصومال — جيبوتي .

٧ — الجزء السابع : (الطبعة الثالثة)

الإسلام والدول الإسلامية بالجزيرة العربية والعراق :

- دول الجزيرة العربية من مطلع الإسلام حتى الآن :
- المملكة العربية السعودية — اليمن — جمهورية اليمن الجنوبية — عمان — دولة الإمارات الغربية — قطر — البحرين — الكويت .
- العراق من مطلع الإسلام حتى الآن .

٨ — الجزء الثامن : (الطبعة الثانية)

الإسلام والدول الإسلامية غير العربية بآسيا من مطلع الإسلام حتى الآن :

- إيران — أفغانستان — الباكستان — بنجلاديش — ماليزيا — أندونيسيا
- الاطليات الإسلامية في الهند والصين وروسيا والفلبين ..

دراسات تفصيلية عن تاريخ مصر المعاصر

٩ — الجزء التاسع : (الطبعة الثالثة)

ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم : عصر محمد نجيب — عصر جمال عبد الناصر (عصر المظالم والهزائم) .

١٠ — الجزء العاشر :

ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم ، عصر أنور السادات .
(ترجمت أكثر أجزاء هذه الموسوعة لعدة لغات)

(م ١ — المجتمع الإسلامى)

كتب للمؤلف

ثانيا : موسوعة النظم والحضارة الاسلامية

دراسة تحليلية شاملة في عشرة اجزاء ، تبرز الاتجاهات الحضارية التي جاء بها الاسلام لهداية البشرية في ثلثون العقيدة ، والسياسة ، والاقتصاد ، وفي مجال الحياة الاجتماعية والتربوية والعسكرية ، والتشريعية والقضائية ، كما تبرز جهود المسلمين في الحضارة التجريبية ، وأجزاؤها هي :

١١ - الجزء الأول : تاريخ المناهج الاسلامية (الطبعة الرابعة)

مناهج التعليم في صدر الاسلام - انحرافاتهما في عصور الظلام -
ويجوب تصحيحها^(١)

١٢ - الجزء الثاني : الفكر الاسلامي : منابعه وآثاره مآثر المسلمين في مجال الدراسات العلمية والفلسفية (الطبعة السابعة)

١٣ - الجزء الثالث : السياسة (الطبعة السادسة)

في الفكر الاسلامي

مع المقارنة بالنظم السياسية المعاصرة^(٢)

١٤ - الجزء الرابع : الاقتصاد (الطبعة السادسة)

في الفكر الاسلامي

مع المقارنة بالنظم الاقتصادية المعاصرة ، ومع دراسة شاملة للنقاط التالية :

- ١ - الاسلام والمسلمون في مواجهة المشكلة الاقتصادية .
- ٢ - مبادئ الاسلام الاقتصادية .
- ٣ - الاسلام والقضايا الاقتصادية الحديثة (شهادات الاستثمار ...) .
- ٤ - من تاريخ الاقتصاد في الاسلام (بيت المال : موارده ومصارفه ...) .
- ٥ - النظم الاقتصادية في العالم عبر العصور واثر الفكر الاسلامي فيها .

١٥ — الجزء الخامس : التربية الإسلامية (الطبعة الخامسة)
نظمها — تاريخها — فلسفتها

دراسة عميقة وشاملة لفلسفة التربية عند المسلمين ، وإنسجام
التعليم وإمكنته ، وحالة المدرسين المالية والاجتماعية ، والإجراءات
العلمية ، والمقويات ، والجوائز ، والمكافآت ، وملابس المدرسين ،
ونقابة المعلمين ، وتكافؤ الفرص بين التلاميذ ، وتوجيههم حسب
مواهبهم ..

١٦ — الجزء السادس : المجتمع الإسلامي (الطبعة السابعة)
أسس تكوينه .. أسباب ضعفه .. وسائل نهضته
ابتداء من الطبعة السابعة : رؤية جديدة — تخطيط جديد — أداء جديد .

١٧ — الجزء السابع : الحياة الاجتماعية (الطبعة الثالثة)
في الفكر الإسلامي

— في نطاق الأسرة : كالختان وتحديد النسل وعمل المرأة ...
— وفي نطاق المجتمع : كالأفراح والمآتم والموسيقى والفناء ...

١٨ — الجزء الثامن : تاريخ التشريع الإسلامي (الطبعة الثالثة)
وتاريخ النظم القضائية في الإسلام
مع بحوث واسعة عن القرآن الكريم : المصدر الأول للتشريع
ومع دراسة شاملة لمصادر التشريع الأخرى

١٩ — الجزء التاسع : الجهاد والنظم العسكرية (الطبعة الثالثة)
في الفكر الإسلامي (العلاقات الدولية)

بحث علمي يبرز موقف الإسلام من السلم والحرب ، كما يبرز اتجاهات
الإسلام في مشكلات الحرب كالاستعداد للجهاد ووسائله ، وأخلاق
المجاهد ، والخديعة في الحروب ، والثبات والفرار ، والرباط ،
والتجسس والخيانة ، والهدنة والأسرى ..

٢٠ — الجزء العاشر : رحلة حياة (الطبعة الثالثة)
تجربة تعرض مجموعة من قضايا الحضارة الإسلامية

كتب للمؤلف

ثالثا : مقارنة الأديان

سلسلة من الكتب في مقارنة الأديان ، تعتمد على أدق المراجع
بمختلف اللغات ، وتمتاز دراستها بالحيدة والعمق ، وتشمل :

٢١ - الجزء الأول : اليهودية : (الطبعة السابعة)

— دراسة لشتى المسائل اليهودية : اليهود في التاريخ من عهد
ابراهيم حتى الآن : الصهيونية ، أنبياء بنى اسرائيل ، عقيدة بنى اسرائيل ،
يهوه اله بنى اسرائيل ، التعدد والتوحيد في الفكر اليهودي ، الثابوت
والهيكل ، الكهنة والقرايين ...

— مصادر الفكر اليهودي : العهد القديم ، التلمود ، بروتوكولات حكماء
صهيون .

— اليهود في الظلام : الماسونية ، والروتاري ، الاغتيال ، التجسس ،
البابية والبهائية .

— من صور التشريع في اليهودية .

٢٢ - الجزء الثاني : المسيحية : (الطبعة الثامنة)

— المسيح والمسيحية في نظر المسلمين واليهود والمكرين القريبين والكنيسة .
— بولس واطاع المسيحية الحالية ، التثليث ، صلب المسيح للتفكير من
خطيئة البشر .

— شعائر المسيحية ، المصادر الحقيقية للمعتقدات المسيحية ، المجامع ،
طبيعة المسيح والآراء فيها ، الطوائف المسيحية ، الزهينة والاديرة ،
خرافة ظهور العذراء في كنيسة الزيتون ، حركة الاصلاح الديني ونتائجها
ونقدها .

٢٣ - الجزء الثالث : الاسلام : (الطبعة الثامنة)

— الله في التفكير الاسلامي ، النبوة في التفكير الاسلامي ، غير المسلمين
في المجتمع الاسلامي ، الدين المعاملة ، المرأة في الاسلام ، الزق وموقف
الاسلام منه ، السياسة والاقتصاد في الاسلام .

٢٤ - الجزء الرابع : اديان الهند الكبرى : (الطبعة السابعة)

« الهندوسية - الجينية - البوذية »

— تقديم من : جغرافية الهند ، سكان الهند ، اللغات في الهند ، الأديان
في الهند .

— دراسة الكتب المقدسة الهندية : الودا : مهابهارتا : يوجاواسستها :
كها .

— أهم العقائد الهندية : الكارما والتناسخ ، الانطلاق والنرمكا ، وحدة
الوجود .

— تاريخ الهندوسية والجينية والبودية وتاريخ واضعها .

كتب للمؤلف

رابعاً : كتب في الثقافة العامة وكتب بلغات إجنبية

٢٥ — كيف تكتب بحثاً او رسالة (الطبعة الثامنة عشرة)

مع ثلاثة ملاحق مهمة

دراسة منهجية لكتابة البحوث واعداد رسائل الماجستير والدكتوراه

كتابان باللغة الانجليزية هما :

٢٦ — ISLAM : Belief - Legislation - Morals
٢٧ — History of Muslim Education
مكتبة النهضة المصرية

وكتب باللغة الاندونيسية والماليزية :

Pustaka National (Singapore)	Negara dan Pemerintahan Dalam Islam	— ٢٨
	Masyarakat Islam	— ٢٩
	Hukum Islam	— ٣٠
	Sedjarah dan Kebudajaan Islam	1 — ٣١
	Sedjarah dan Kebudajaan Islam	11 — ٣٢
	Sedjarah dan Kebudajaan Islam	111 — ٣٣
	Perbandingan Agama (Jahudi)	— ٣٤
	Perbandingan Agama (Masihi)	— ٣٥
	Perbandingan Agama (Islam)	— ٣٦
	Perbandingan Agama (Agama2 yang	— ٣٧
	Terbesar di India : Hindu-Jaina-Buddha)	
	Sadjarah Pendidikan Islam	— ٣٨
	Politik dan Ekonomi Dalam Islam	— ٣٩
	Kehidupan Social Dalam Pemikiran Islam	— ٤٠
	Perkembangan Keagamaan Dalam Islam	— ٤١
	dan Masehi	
	Perang Salib	— ٤٢
	Kurikulum Islam Dalam	— ٤٣
	Perkembangan Sedjarah	
	Pengajian Al Quraan	— ٤٤
	Sedjarah Kehakiman Dalam Islam	— ٤٥

كتب المؤلف

قائمة : المكتبة الإسلامية لكل الأعمار

١٠٠ جزء من سيرة عظماء الإسلام ، ومن التاريخ ، والحضارة ،
وقصص القرآن الأولاد والشباب والسيدات والرجال
ظهر منها الأجزاء التالية :

المجموعة الأولى : السيرة النبوية العطرة : (١٦ جزءا)

١ ج	مسجد قبل البعثة	الطبعة الثانية مع زيادات واسعة وتحسينات شاملة
٢ ج	من غار حراء .. الى غار ثور (قصة الاسلام في مكة)	
٣ ج	الاسراء والمراج : دراسة تصحيح للقضاء على الشطحات .	
٤ ج	الهجرة للمدينة ووسائل الاستقرار بها	
٥ ج	الرسول الداعية ومربي الدعوة	
٦ ج	(أ) الرسول في بيته : زوجات الرسول — أسباب تعدد الزوجات	
٧ ج	(ب) الرسول في بيته : مشكلات الزوجات وكيف عالجها — الحجاب — أولاد الرسول — أخفاده — خدمه	
٨ ج	الرسول بين أصحابه — الرسول يربي الفرد المسلم — الرسول يربي المجتمع الاسلامي .	
٩ ج	الرسول يربي القضاة ، ويربي القوة العسكرية ، ويربي الولاة والخدام	
١٠ ج	الرسول والشباب — الرسول والعمل	
١١ ج	توجيهات طبية يقدمها الرسول — مكرامات للرسول — الرسول والمنافقون	
١٢ ج	الرسول والنصارى — الرسول واليهود	
١٣ ج	الاسلام والقتال ، وهل انتشر الاسلام بالقوة او بالدعوة — غزوة بدر ودراسات جديدة حولها — أهم أحداث غزوة بدر	
١٤ ج	غزوة أحد والهزيمة التي اخافت المنتصر — غزوة الأحزاب وكلمة عن سلمان الفارسي	
١٥ ج	صلح الحديبية — كتب الرسول للملوك والرؤساء — غزوة مؤتة وبدء الصراع ضد الروم .	
١٦ ج	فتح مكة — غزوة حنين والطائف — غزوة تبوك — الفترة الأخيرة في حياة الرسول	

المجموعة الثانية : العشرة المبشرون بالجنة : (٧ أجزاء)

- ج ١٧ (١) أبو بكر الصديق : حياته وعصره والمشكلات التي واجهها
ج ١٨ (٢) عمر بن الخطاب والتوسع في عهده — عمر باني الدولة
الاسلامية
ج ١٩ (٣) عثمان بن عفان : حياته واخلاقه والفتنة في عهده
ج ٢٠ (٤) علي بن ابي طالب : شخصيته وحياته والمشكلات التي
واجهها
ج ٢١ (٥) طلحة بن عبيد الله (٦) الزبير بن العوام
ج ٢٢ (٧) سعد بن ابي وقاص (٨) ابو عبيدة بن الجراح
ج ٢٣ (٩) عبد الرحمن بن عوف (١٠) سعيد بن زيد بن عمرو

المجموعة الثالثة : دراسات قرآنية : (٥ أجزاء)

- ج ٢٤ نظرة عامة للقرآن الكريم — طريقة الوحي — نزول القرآن
وتدوينه — أسماء السور وترتيبها — قراءات القرآن — فضائل
القرآن — القرآن والعلم — فضائل قراءة القرآن وحكم
التطريب في أدائه والتكسب به .
ج ٢٥ خصائص القرآن والاصول التي جاء بها لخير الناس في الدنيا
والآخرة — اعجاز القرآن ومظاهر الاعجاز — معجزات
الرسل والمقارنة بينها .
ج ٢٦ غير العرب والاعجاز البلاغي للقرآن — وجوه الاعجاز في
القرآن — مواجهة واقعية بين العرب والقرآن — التكرار
في القرآن : اسراره واعجازه .
ج ٢٥ و ٢٤ (ترقية مؤقتة ، وفي الطبعة الثانية ان شاء الله سيأخذان رقم
٢٧ و ٢٨ وتتسلسل الأرقام بعد ذلك) .
الأخلاق الإسلامية من القرآن الكريم
جمع الآيات القرآنية عن الأخلاق ، وتصنيفها ، وشرحها شرحاً
ميسراً

المجموعة الرابعة : من قصص القرآن الكريم : (٧ أجزاء)

- ج ٢٧ دراسات عن القصص في القرآن قصة أصحاب الكهف .
ج ٢٨ قصة الرجلين والجنيتين — قصة ذي القرنين وياجوج
وماجوج .
ج ٢٩ قصة موسى والخضر — قصة أصحاب الجنة .
ج ٣٠ قصة عزيز — قصة أيوب عليه السلام
ج ٣١ قصة قارون — قصة أصحاب الأخدود .
ج ٣٢ قصة اسماعيل عليه السلام .
ج ٣٣ قصة يوسف عليه السلام .

المجموعة الخامسة : الدولة الأموية : تاريخ يحتاج الى انصاف :

(٦ اجزاء)

- ج ٣٦ تاريخ الدولة الاموية : الانحراف في تدوينه ومحاولة انصافه - معاوية الخليفة الاموي الأول : عام الجماعة - البدهاء - الاملاجات الداخلية - التوسع .
- ج ٣٧ عبد الملك بن مروان :
لحد غتواء المدينة الاربعة .
- ج ٣٨ البطولة - السياسة - الاصلاحات الداخلية - التوسع
نموذجان نريدان متعاصران :
الوليد بن عبد الملك .
عمر بن عبد العزيز .
- ج ٣٩ التوسع العظيم في العهد الأموي وأهم مبادئه .
- ج ٤٠ الشيعة ومدعو التشيع .
قصة استشهاد الأئمة الحسين .
- ج ٤١ جزء عن « من شهداء الاسلام » : حمزة بن عبد المطلب - جعفر بن أبي طالب - عمار بن ياسر - عمر المختار .

المجموعة السادسة : المرأة في ظل الاسلام (١٠ اجزاء)

- ج ٤٢ المرأة في الحضارات القديمة .
المرأة في أوربا خلال العصر الوسيط .
ماذا قدم الاسلام للمرأة .
- ج ٤٣ المرأة العربية من الجاهلية للإسلام : الخنساء .
- ج ٤٤ سيدات مسلمات : السيدة زينب بنت الامام علي .
- ج ٤٥ سيدات مسلمات : بنتا الحسين : نفيسة وسكينة .
- ج ٤٦ سيدات مسلمات : عائشة بنت طلحة .
- ج ٤٧ سيدات في البلاط العباسي : الخيزران - زبيدة .
- ج ٤٨ المرأة في الأندلس بين الطب والسياسة والادب .
- ج ٤٩ سيدات في قصور مصر : سبت الملك - شجرة الدر .
- ج ٥٠ زيجات شهيرة في التاريخ الاسلامي : بوران - قطر الندى .
- ج ٥١ الاماء اللاتي تفوقن في الشعر والغناء : سلامة - طل - عريب .

(الأجزاء التالية ستظهر تباعاً ان شاء الله)

(لم تدخل أعداد المكتبة الاسلامية ضمن العدد الخاص بكتب المؤلف)

كتب للمؤلف

سادسا : تعليم اللغة العربية لغير العرب

وقواعد اللغة العربية

- برنامج شامل ميسر لتعليم اللغة العربية بكل فروعها لغير العرب .
- أول سلسلة من نونها في المكتبة العربية تملأ هذا الفراغ .
- دراسات شاملة سهلة لقواعد اللغة العربية من نحو وصرف .
- تضم هذه السلسلة الكتابين التاليين :

٤٦ - تعليم اللغة العربية لغير العرب : (الطبعة الرابعة)

يبدأ هذا الكتاب من المرحلة الأولى : مرحلة الهجاء ، ويتطور للقراءة والتعبير ، فالإملاء ، فالخط والنصوص ، ثم يقتضي بإطالع إلى مرحلة متقدمة في القراءة والمحادثة والكتابة ، مستعملا في هذه المرحلة موضوعات جذابة من الفكر الإسلامي والعربي اختيرت من أمهات الكتب العربية ثم صيغت في أسلوب مناسب ، مع أسئلة وتمارين مفيدة .

٤٧ - قواعد اللغة العربية والتطبيق عليها : (الطبعة الرابعة)

عرض لجميع أبواب النحو العربي بطريقة تربوية سهلة ودراسة واضحة لأهم أبواب الصرف

هذا الكتاب ضروري للمثقف العربي وغير العربي

كتب نفيت ولن يصاد طبعتها

- ٤٨ - في تصور الخلفاء العباسيين :
أكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٣ من هذه القائمة .
- ٤٩ - مصر في حريين (١٩٦٧ و ١٩٧٣) دراسة مقارنة :
أكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٩ من هذه القائمة .
- ٥٠ - الحكومة والدولة في الإسلام :
أكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ١٢ من هذه القائمة .
- ٥١ - الاشتراكية : دراسة علمية نقدية يدعمها اليقين الروحي .
- ٥٢ - النظم الاقتصادية في العالم عبر العصور وأثر الفكر الإسلامي فيها .
أكثر مادة هذين الكتابين تضمنها الكتاب رقم ١٤ من هذه القائمة .

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
مقدمة الطبعة الأولى	١٧ — ١٨
مقدمة الطبعة السابعة	١٩ — ٢٠

الباب الأول

المعالم عند بعثة محمد

اليهودية	٢٣
المسيحية بين الشرق والغرب	٢٥
الزرادشتية وبلاد فارس	٢٧
ماني ونهاية العالم	٢٩
مزدك والشيوعية في النساء والأموال	٢٩
الأديان في الصين وبخاصة الكونفوشية	٣٠
الهند : الأديان والطبقات	٣٣
الحضارة العالية على وشك الزوال	٣٥

الباب الثاني

تكوين الفرد المسلم

تكوين الفرد المسلم بمكة :	٣٩
من السيف إلى المسالة	٤١
من القوة إلى القانون	٤٢
من النهب إلى الأمانة	٤٣
من الثار إلى القصاص	٤٣
من الحياة القبلية إلى المسؤولية الشخصية	٤٤
من إمتحان المرأة إلى إجلالها	٤٦
من الإباحية إلى الطهر	٤٩
من نظام الطبقات إلى المساواة	٥٠

الموضوع

- من الانزواء بالجزيرة العربية الى السيطرة على
 ٥٠ الفرس والروم
 ٥١ غرس اخلاق الاسلام في الفرد
 ٥٢ كيف تربى هذا الرجل المسلم

الباب الثالث

المجتمع الاسلامى في عهده الزاهر

واسس تكوينه

- ٥٦ الطوائف بالمدينة عقب الهجرة
 أسس تكوين المجتمع الاسلامى :
 ٥٧ أولا : بناء المسجد ليكون ملقى للمسلمين
 ٥٨ ثانيا : المؤاخاة بين المسلمين
 ٦١ ثالثا : المعاهدة بين المسلمين وغير المسلمين
 ٦٥ رابعا : الشورى ووضع أسس النظام السياسى
 خامسا : وضع أسس النظام الاقتصادى للإسلام :

مبدأ الملكية الفردية ٧٠ — مكانة المال ٧١ —

التقريب في المظهر بين المتفاوتين في الغنى ٧٣ —

المال مال الله ٧٧ — (فلا يجوز كنزه أو

استعماله في رشوة ، أو الاسراف في استعماله ٨٠

أو احتكار ما يلزم منه للمجتمع أو استعماله في

ربا ٨١) مبدأ حق الفقير في مال الغنى ٨٤ —

الاقتصاد الاسلامى بين المبادئ الاقتصادية

الحديثة : الاقتصاد الاسلامى والشيوعية ١٠٨

الاقتصاد الاسلامى والراسمالية ١٠٩ —

الاقتصاد الاسلامى والاشتراكية الغربية ١١١

لماذا يلجأ بعض المسلمين أحيانا الى الشيوعية ١١٢

ما موقف الاسلام من الشيوعية ١١٢

الاتحاد السوفييتى والغرب سواء بالنسبة للإسلام ١١٤

سادسا : القدوة الصنة ١١٥

- ١١٨ سابعا : سيطرة روح الاسلام على هذا المجتمع .
المجتمع الاسلامي ينمو ويتسع :
في عهد الرسول ١٢٣ — في عهد ابي بكر ١٢٦ —
في عهد عمر ١٣٤ — (صور من اجتهاد عمر ١٤٢)
١٥٤ غير المسلمين في المجتمع الاسلامي .
١٥٩ الزكاة للفقراء من المسلمين وغير المسلمين .
١٦٠ الجزية واسبيلها ومقدارها .

الباب الرابع

تدهور العالم الاسلامي واسبابه

اولا — العوامل الداخلية التي اضعفت العالم الاسلامي

- ١ — ضعف الدعاة المسلمين في القرون المتأخرة . . . ١٧٥
٢ — الاخلاق الاسلامية بين الظهور والاختفاء . . . ١٧٧
٣ — الحضارة الاسلامية بين الازدهار والانكماش . . . ١٧٨
٤ — اطماع السلطة ١٧٩
٥ — فساد بعض الحكام وفساد اعوانهم ١٨٢
٦ — المالك وحكمهم بالعالم الاسلامي ١٨٣
٧ — الامبراطورية العثمانية : ما لها وما عليها . . . ١٨٥
٨ — الفرق والمذاهب ١٨٨
٩ — اندية ومؤسسات تكيد للاسلام في غفلة من المسلمين . . ١٩٣

ثانياً — العوامل الخارجية التي أضعفت العالم الإسلامي

المفول والتدمير للعالم الإسلامي	١٩٦
الصليبيون في الحروب الصليبية	١٩٨
الحركة الصليبية ضد الانجاء الموريتية الشمالية	٢٠٠
الحركة الصليبية خلف الحملة الفرنسية على مصر	١٠٠
الحركة الصليبية دفعت الاستعمار الغربي للدول الإسلامية	٢٠١
هل كان العدوان باسم الدين أو باسم السياسة	٢٠١
صور العدوان المسيحي على الشرق الإسلامي :	
ملأخ أخرى للحروب الصليبية	٢٠٨
أوروبا والتتار والمسلمون	٢١٢
تركيا والغرب	٢١٣
بريطانيا والهند	٢١٧
هولندا واندونيسيا	٢١٩
فارس وأفغانستان بين روسيا وبريطانيا	٢٢٤
اللا دينية الروسية وأثرها	٢٢٦
اسرائيل : تزرعها الحركة الصليبية بفلسطين	٢٢٧

ثالثاً — عوامل ضعف ينسبها بعض الناس للدين والدين منها براء

المسلمون من الشورى للديكتاتورية	٢٢٩
ومن العدالة الاجتماعية للفروق الاقتصادية الحادة	٢٣٠
رسول زاهد ورؤساء جثعمون	٢٣٠
من التطور للجمود	٢٣١
الاسلام دين كل زمان ومكان	٢٣٢

الصفحة	الموضوع
٢٤١	الاسلام وحاجات الناس
٢٤٤	مراحل الاتحاد نحو نيل باب الاجتهاد
٢٤٩	دراسة المسألة لا الروح في السمات والمعاملات
٢٥٧	فقهاء العصر الناصر يناثرون بجمود فقهاء عصر الظلام
٢٦٧	مقاومة الاصلاحات العلوية باسم الدين :
٢٦٨	مقاومة الاصلاح في تركيا ابان الخلافة
٢٦٩	الاخوان في السعودية
٢٧١	في مصر
٢٧٢	حرمان المرأة من العلم :
٢٧٣	البدع والخرافات
٢٧٤	تكثير المخالفين في الاتجاه الفكرى
٢٧٨	تحويل المذاهب بالتعصب من نعمة الى نقمة
٢٨٢	تشبث بالقديم
٢٨٥	ضلالات عقائدية أضعفت العالم الاسلامى :
٢٨٦	معين الدين شيبسى وباب الجنة
٢٩٠	القاديانية والأحمدية
٢٩٧	دراسنى في الأزهر

الباب الخامس

الطريق الى الاصلاح

٣١٥	مقدمة
٣١٦	أبرز الأسس للإصلاح :
٣١٧	أولا — اعادة تكوين الفرد المسلم والأسرة المسلمة
٣٢٣	ثانياً — أسس تكوين المجتمع الاسلامى وحياتها
	ثالثاً — القضاء على الأسباب التى أدت لضعف العالم الاسلامى
٣٢٥	الاسلامى

الموضوع	الصفحة
رابعاً - الإصلاحات العلمية :	
العلوم العقلية :	٣٢٨
نهضة أوروبا مدمرة	٣٣٠
العلوم الشرعية :	٣٣٢
الدين للبشر	٣٣٦
التقريب الثقافي بين بلدان العالم الاسلامى .	٣٣٨
خامساً - جامعة الدول الاسلامية	٣٤٠
ما المقصود بجامعة الدول العربية	٣٤٥
نبت المراجع	٣٤٧ - ٣٥٢

مقدمة الطبعة الأولى

من المفارقات التي يلاحظها المستغلون بالدراسات الإسلامية ، تلك الهوة الشاسعة بين مبادئ الإسلام وفلسفته وأخلاقه وحضارته من جهة ، وبين واقع أكثر المسلمين من جهة أخرى ، وطالما زلّ كثير من الناس لأنهم أرادوا أن يأخذوا الإسلام من أخلاق المسلمين وأحوالهم ، وطالما تجنّى كثير من الناس على الإسلام لأنهم ظنوا واقع المسلمين مظهراً من مظاهر الإسلام .

وهذا الكتاب مقارنة واضحة تشرح النظريات الإسلامية سياسية واقتصادية واجتماعية وأخلاقية من جانب ، وتشرح حال المسلمين من جانب آخر ، وتبحث عن الأسباب التي جعلت الكثيرين من المسلمين يضلون الطريق ، فيتركون أخلاق الدين الذي انتسبوا إليه ، ويأخذون أخلاقاً وصفاتٍ هي أبعد ما يكون عن ذلك الدين ، فهذا الكتاب إذا وصف لما هو كائن وما يجب أن يكون .

ومن أعجب الأسباب التي قادت إلى هذه النتيجة القاتمة ، أن الدواء انقلب داءً ، وأن الطبيب الذي يترجى البرء على يديه أصبح مصدراً من مصادر الآلام والألئيم ، كما سنرى في موقف بعض المصادر التي خصّصت للدراسات الإسلامية ولكن روح الإسلام اختفت منها ، وكما سنرى كذلك من مواقف بعض رجال الدين الذين كان يجب أن يكونوا مصدر إلهام ، ولأنهم ، للأسف ، لم استطعوا فهم الإسلام فالتفتوا وسيلة مقاومة الإصلاحات الشامية والبيزنطية .

وسيدرك القارئ مقدار الجهد الذي بذل في هذا الكتاب ، فهو رحلة طويلة من جهة الزمان ومن جهة المكان ، إنه :

أولا : يتبع الاسلام المسلمين منذ انبثق الاسلام حتى العهد الذى نعيش فيه •

وثانيا — يطوف بالعالم الإسلامى فى مختلف أقطاره •

وثالثا — يعالج مشكلاته الحاضرة ويدلى بأحدث الآراء ليعضد العالم الاسلامى فى نضاله الذى يقوم به ليتغلب على الداء ، وليبنى حاضره ومستقبله على أساس متين •

يارب ، حقق النفع بهذا الكتاب ، واجعله خالصا لوجهك الكريم •
دكتور أحمد شلبى.

جوكجا كرتيا (اندونيسيا) الأستاذ بالجامعة الإسلامية باندونيسيا
فى الثالث من يوليو سنة ١٩٥٨ وهدير المركز الثقافى العربى بجاكرتا

مقدمة الطبعة السابعة

يسرني في تقديم الطبعة السابعة لهذا الكتاب - أن أنحني إلى الله
واهب النعم شاكرًا عونه وتوفيقه ، وأن أثني على قرائي الأعزاء الذين
فاق إقبالهم كل حدود ، فدفعوني بذلك إلى المزيد من الإجادة والصبر
على العمل .

والمحاولة الحاسمة لإجادة العمل والصبر عليه تتضح في هذا
الكتاب أكثر جدا مما تتضح بسواه ، فالذي يقرأ هذه الطبعة ويقارنها
بالطباعات السابقة سيدرك مدى الصناء الذي تحمّلتته لإخراجها ،
وسيحس أن هذا الكتاب قد كُتِبَ من جديد ، برؤية جديدة ، وتخطيط
جديد ، وأسلوب جديد ، وقد شمل هذا التجديد أكثر أبوابه وأهم بحوثه
فقد هُذِفَتْ منه ، وأُضِفَتْ إليه ، وعدّلت في تخطيطه ، ليكون أصدق
تعبيرا عن موضوعه ، وكان ذلك العمل نتيجةً للكثير من الاطلاع وزيارات
البلاد الإسلامية ، فمثل هذا الكتاب لا يعتمد فقط على المصادر والمراجع ،
وانما يحتاج إلى الاتصالات المباشرة بالشعوب الإسلامية ودراسة أحوالها ،
وقد أتيج لي من ذلك الشيء الكثير في الفترة السابقة ، فجعلت صدق ذلك
يظهر في هذا الكتاب .

وبعمون الله وتوفيقه ، وبتشجيع القارئ الكريم قد كملت

« موسوعة النظم والحضارة الإسلامية »

وظهرت أجزاءها العشرة تبرز الحضارة الإسلامية الأصيلة التي جاء
بها الإسلام ولم تكن معروفة قبل الإسلام كراى الإسلام في السياسة
والاقتصاد والتربية والتعليم والعلاقات الدولية والمرأة والرق وغيرها
كما تبرز الحضارة التجريبية التي كانت موجودة قبل الإسلام ، وضعت

واختفت قبل الاسلام ثم أحيها المسلمون وأضافوا اليها كالطب والرياضة
والفلك ... وهو عمل نشكر الله عليه وننحني لله لنجابه •

وبعد ، لعلى أديت واجبى تجاه الحق الذى تخصصت فيه ، وانى
أعلن استعدادى لقبول أى توجيه علمى رشيد قد يحسن من أعمالنا
العلمية ، أو يمنع خطأ قد نكون وقعنا فيه •

والشكر لله واهب النعم والتحية الخالصة للقارىء العزيز •

أ . د . أحمد شلبي

فى الرابع من ديسمبر سنة ١٩٨٥

الباب الأول

العالم عند بعثته محمد

أحاط بالإنسانية ظلام حالك قبيح، بعثة محمد ، كان ظلاماً مطبقاً ؛
وليل طويلاً ، نشطت فيه الترهات : وانزوت الأفكار السليمة ، ودبَّ
الجهل ، وانكمش العلم ، وعم اليأس ، وقلَّ الأمل ، وأوشكت الإنسانية
أن تفقد كل ما حققته الأجيال الطويلة من تقدم ، ولأن تتردى في هوة
سحيقة هي إلى عالم الحيوان أنسب •

تعال بنا نَجَلَّ جولة سريعة نصور فيها حياة الجنس البشرى آنذاك :

اليهودية (✱) :

بنو إسرائيل خصهم الله بكثير من فضله ، وأرسل منهم لهم عدة من
الرسول ليكونوا مصدر هداية ومبعث ضوء ورحمة ، ولكن طبيعة أكثر
بنى إسرائيل كانت إلى الشر أميل ، فراحوا يعتدون ويفسقون دون رادع
من ضمير أو خلق ، واستمرعوا الفجور ، وأنزلوا بأنبيائهم ألوانا من
الاعتداءات الأثيمة ، دونهت كتبهم المقدسة ، وصوَّرها القرآن الكريم
بقوله « كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا
يقتلون » (١) • وانتقم الله لأنبيائه ورسله من ضلالة بنى إسرائيل ومن
نسلهم الذين يظلم الله أنهم سيسيروا كأسلافهم طغيانا وسوء سيرة ،
فجعلهم هدفاً لمن ينزل بهم العذاب المهين إلى يوم الدين « وإذْ تَأْذِنُ
ربك ليعذبنَّ عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب » (٢) •

ولم يستطع أنبياء بنى إسرائيل أن يحملوا الهداية إلى أكثر هذه
القلوب الخلف ، وكان من اهتدى من بنى إسرائيل يسرع إلى العودة إلى
الضلال ، فقد كانت نفوسهم تهفو للعمى ، وتتفر من الرضوان والهداية •
وتقص علينا الروايات خبر أولئك المدين اتبعوا موسى من بنى إسرائيل

(✱) عن اليهودية افرا كتاب « اليهودية » من سلسلة « مقارنة
الأديان » للمؤلف •

(١) سورة المائدة الآية ٧٠ •

(٢) سورة الاعراف الآية ١٦٧ •

وأنجاهم الله به مما أنزل فرعون بهم من ذل ومهانة ، ولكنهم سرعان ما تخطف أبصارهم أصنامهم لقوم يعكفون عليها ، فيقولون لنبيهم : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة (١) .

ويدعمهم موسى في رعاية أخيه هرون ، ويذهب ليتلقى الألواح من ربه ، وفيها لهم نور من الله وهدى ، ولكن سرعان ما يتخذ هؤلاء من خليفهم عجلاً جسداً له خوار ، يعبدونه ويسجدون له من دون الله « واتخذ قوم موسى من بعده من خليفهم عجلاً جسداً له خوار ، ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً ، اتخذوه وكانوا ظالمين ، ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا ، قالوا : لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكون من الخاسرين ، ولما رجع موسى الى قومه غضبان أسفا قال بثسماً خلقتهم من بعدى ، أعجلتم أمر ربكم ؟ وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه . قال : ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلوننى ، فلا تشمت بى الأعداء ، ولا تجعلنى مع القوم الظالمين . قال رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين . إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم ، وذلة فى الحياة الدنيا ، وكذلك نجزي المفترين » (٢) .

وأراد موسى أن يستغفر لقومه وأن يطلب من الله لهم الرحمة ، فاختار سبعين رجلاً من أتقيائهم ، ولكن هؤلاء هتفوا به « لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة (٣) » .

تلك صور من ضلالات بنى إسرائيل فى حياة موسى وفى حياة هرون ، أما ضلالاتهم بعد ذلك فتكاد تكون سلسلة من البغى يقتلون فيها النبيين ويحرفون الكلام عن مواضعه ، حتى خلا التاريخ أو كاد من هداية روحية

(١) سورة الأعراف الآية ١٣٨ .

(٢) سورة الأعراف الآيات ١٤٨ — ١٥٢ .

(٣) سورة البقرة الآية ٥٥ .

يقدمها رجل من بني إسرائيل الى الجنس البشرى أو شعاع من الضوء النفسى يكون فيه للإنسانية هدى أو بصيرة .

وفي كتابنا « اليهودية » تفصيل لمن أراد مزيداً من الدراسة عن اليهود .

المسيحية بين الشرق والغرب (✱) :

وجاءت المسيحية وقد تكالب اليهود على المادة ، ورأوا فيها كل مقومات الحياة ، وتفننوا في خلق الطرق للحصول على المال وتنميته ، مبالين بالوسائل التي يصطنعونها لنجاحهم في ذلك ، فهانت بهذا القرى الروحية والمثل العليا ، فاتجهت المسيحية لمعالجة هذا الداء ، واتجه السيد المسيح عليه السلام الى الدعوة للصفاء الروحى والرحمة والتسامح والزهد . وخلت المسيحية إلا من لمحات ضئيلة عن النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية لا تكاد تذكر ، وأولى المسيح عنياته لتطهير النفس والروح ومحاربة الجسم والمال ، ومما أثّر عنه في ذلك قوله :

— سمعتم أنه قيل عين بعين ، وسن بسن ، ولأنا فأقول لكم : لا تقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء ، ومن سغفرك شيئاً واحداً فاذهب معه اثنين (١) .

— لا تقدرون أن تخدموا الله والمال ، لذلك أقول لكم : لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وما تشربون ، ولا لأجسادكم بما تلبسون (٢) .
— يعسر أن يدخل غنى ملكوت السموات ، وأقول لكم إن مرور جمل في ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى ملكوت الله (٣) .

(✱) عن المسيحية اقرأ كتاب « المسيحية » من سلسلة مقارنة الأديان للمؤلف .

(١) انجيل متى : الاصحاح الخامس : الفقرات ٣٨ — ٤٠ .

(٢) انجيل متى : الاصحاح السادس : الفقرة ٢٥ .

(٣) انجيل متى : الاصحاح ١٩ الفقرة ٢٣ وانجيل لوقا : الاصحاح

١٨ الفقرة ٢٠ .

كان هذا هو اتجاه المسيحية في الشرق : العمل على تطهير الروح وتقوية الصلة بين الانسان وخالقه ، أما تنظيم الحياة الدنيا وإحكام الصلة بين الفرد والفرد ، فلم ينل من المسيحية عناية تذكر ، وعبرت هذه الديانة من الشرق الى أوروبا فواجهت هناك — مع تجردها من المادة — أناسا شغلهم المادة ، ولا تكاد تنقطع عندهم الحروب وحملات السلب والانتقام ، ولما اعتنقها هؤلاء أو بعضهم ، لم يجدوا فيها عناصر كافية لتنظيم حياتهم المادية ، فأتخذوها وسيلة لصلة العبد بربه ، وبقيت صلة الفرد بالفرد خاضعة للقانون الأرضي الذي يضعه البشر .

وعلى هذا اتخذت المسيحية ثوب الزهد والقسماع وقنعت بهما ، وكان شعارها « ما لقيصر لقيصر وما لله لله » ، واتجهت بكليَّتها إلى التطهير الروحي والتزهيب الوجداني ، وصاغت نفسها على أساس أن الدين صلة ما بين العبد والرب وأن القانون صلة ما بين الفرد والدولة .

غير أن ذلك لم يُقنِعْ رجال الدين في بعض العصور ، فكثير منهم عشقوا السلطة والنفوذ ، وعشقوا أن يدخلوا الحياة العامة لا لإصلاح الحياة العامة ، وإنما ليستفيدوا هم من الجماهير الجاهلة ، ولكن تدخلهم في الحياة العامة أثار ثائرة الملوك والأمراء ، وقام نزاع بين هاتين القوتين ثم تمّ الوفاق بينهما على حساب الدهماء ، فأخذت الكنيسة سلطة بيع صكوك الغفران وإصدار قرارات الحرمان ، وأصبح الملوك سادة يملكون الأرض ويملكون رقيق الأرض .

وقبيل بعثة محمد خبا ضوء الطهر والزهد من المسيحية ، بما دخل عليها من خرافات وأباطيل حتى أصبحت ديانة رثنية ، ويقول Sale العالم الانجليزى عن نصارى القرن السادس الميلادى « أسرف المسيحيون في عبادة القديسين والصور المسيحية ، وجثّ خالف من طبيعة المسيح وما إذا كانت مزدوجة أو إلهية تلاشت فيها طبيعة المسيح البشرية كما تتلاشى قطرة من الخل تقع في بحر عميق لا قرار له » .

هذا فيما يتعاقب المسيحية ، أما غير النديين من المشئون في الغرب فقد كان متدهوراً إلى أبعد غاية ، لقد كان نظام الإقطاع سائداً ، وفي ظلّ الإقطاع كان هناك أمراء وعبيد ، فالأمراء يملكون الأرض ورقيق الأرض ، والعبيد يعملون دون أن تكون لهم حقوق أو يقام لهم وزن ، وكانت الحروب لا تكاد تنقطع بين هؤلاء الأمراء بعضهم والبعض الآخر ، وبذلك كانت أوروبا تعيش في ظلام دامس في جميع نواحيها تقريباً .

الزرادشتية وبلاد فارس :

الزرادشتية عقيدة الفرس قبل الاسلام ، وتنسب الى مؤسسها « زرادشت » وقد انتشرت الزرادشتية في شرقى ايران القديمة « بكتريا افغانستان » ثم امتدت غرباً حتى ميديا . « اذربيجان » ثم أصبحت الديانة الرسمية للإيرانيين في ظل الدولة الساسانية منذ منتصف القرن الثالث ق م واستمرت دينا للإيرانيين حتى ظهرت الدعوة الاسلامية وغزت ايران ، وقد بقيت الزرادشتية عقيدة الأقلية الفارسية حيناً ، ثم هاجر أتباعها الى الهند وعرفوا بالپرسيين ، وخلت ايران منهم .
ذلك هو الجانب التاريخى للزرادشتية .

أما عن جانب العقيدة فاننا نذكر أن بلاد فارس كانت حتى القرن السابع قبل الميلاد تتبع الفكر الطبيعى في الأديان ، أى كان هناك من يعبد الشمس أو الأنهار أو الأشجار أو الأبطال ، وجاء زرادشت (٦٦٠ — ٥٨٣ ق ، م) مصلحاً اجتماعياً ، اتجه في تفكيره الى اصلاح اتجاهات مواطنيه الدينية ، فأدمج في ديانته طائفة من المعبودات الفارسية القديمة بعد تهذيبها . وانتهى به التفكير الدينى الى القول بالهين أو مجموعتين من الآلهة ، المجموعة الأولى آلهة خيرّة " على رأسها « أهورا مازدا » والمجموعة الثانية مجموعة شريرة يتزعمها « أهرمان » والنضال بين هاتين المجموعتين يمثل النضال بين الخير والشر في الحياة ، ذلك النضال الذى لا ينتهى الا بعد آلاف السنين حيث ينتصر الخير فيَهْزِمُ « مَازدا » « أهرمان » .

وكان عنصرى الخير والشر يبرزان عند الزرادشتية فى صور مزدوجة متعددة ، فالخير يتمثل فى النور والنار والهواء والماء ، وفى بعض الحيوانات المفيدة للإنسان كالأغنام وكلاب الحراسة ، ولهذا اتجهت الزرادشتية لتقديس هذه الأشياء وحمايتها ، أما الشر فكان يتمثل فى الظلام وفى الحيوانات المفترسة والحشرات الضارة ، واء-ذا ألزمت العقيدة ضرورة التخلص منها •

واتجاه زرادشت فيه تعدد آلهة ، وفيه ثنوية ، ولكن كثيرا من الباحثين يعدون الزرادشتية دين توحيد • لأن ما زدا سيكون وحده فى النهاية بعد أن يفتصر على آلهة الشر •

ورمز زرادشت لما زادا ببعض المواد الصافية كالنار ، وقال بالبعث والحياة الأخرى والحساب ، حيث ينتهى المرء لنعيم دائم أو عذاب مقيم •

انحراف الديانة الزرادشتية :

تلك هى الخطوط الرئيسية فى مذهب زرادشت ، ولكن تعاملهم زرادشت انهارت بعده ، وأصبحت الثنائية أبرز مظاهرها ، كما اتجه الفرس الى النار يعبدونها ويرونها إلهاً ، ويستعملونها فى شعائهم الدينية متناسين أنها كانت فقط رمزا للصفاء ، حتى أصبحوا يعترفون بأنهم عبدة النار ، وقد أتاح هذا للكهنة المجوس الذين كان لهم السلطان الدينى قبل زرادشت أن يظهروا من جديد كواسطة بين الناس وبين الآلهة وكمسيطرين على وسائل التطهير ، وكوسائل لإرضاء الآلهة ، وسرعان ما أحيا الكهنة الطقوس التى كانت موجودة من قبل ، كعبادة الأصنام وتقديم القرابين وبخاصة للإله « مترى » الذى أصبح أبرز الآلهة ، بعد أن كان فى الزرادشتية أقلها شأنًا •

اختفاء الزرادشتية الأصلية :

ولما غزا الإسكندر المقدونى فارس فى أواخر القرن الرابع ق.م ت. الزرادشتية ، وظلت مختفية مدة خمسة قرون ، فلما قامت الدولة الساسانية حاول هؤلاء العودة الى الزرادشتية باعتبارها جزءا من تراث

فرس المجيد ، ولحق الزرادشتية الساسانية كانت بعيدة كل البعد عن اتجاهات زرادشت ، وكانت تحقق أهداف الملوك وطغيان الكهنة .

مانى ونهاية العالم :

وفي أواخر القرن الثالث المسيحى ظهر « مانى » فى فارس ، وكان ظهوره فى عصر سادت فيه الشهوة ، فاختطف طريقا يحارب به هذه الشهوة الجامحة ، فنادى بحياة العزوبة ، وحرّم النكاح رغبة فى قطع النسل واستعجال الفناء ، وقد قتلته بهرام سنة ٢٧٦ م قائلا : إن هذا خرج لتخريب العالم ، فالواجب أن يبدأ بتخريب نفسه ، وذهب مانى ولكن تعاليمه بقيت بعده إلى ما بعد الفتح الإسلامى .

مزدك والشيوعية :

وظهر مزدك سنة ٤٨٧م فأعلن أن الناس ولدوا سواء ، لا فرق بينهم ، فينبغى أن يعيشوا سواء ، ولما كان المال والنساء من أهم الأسباب التى تخلق الفوارق وتسبب الكراهية ، فقد قال مزدك بالشيوعية التامة فيهما ، يقول الشهرستانى (١) ، « أهل مزدك النساء وأباح الأموال وجعل النساء شركة بين الناس كاشتراكهم فى الماء والنار والكلأ » ولقيت هذه الدعوة قبولا لدى الشبان والمترفين والفجرة . بل أيدها القصر الامبراطورى « ويقول الطبرى (٢) » كاتف السفلة مزدك فى دعوته وشايعوه ، فابتغى الناس بهم وقوى أمرهم ، حتى كانوا يدخلون على الرجل داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله ، لا يستطيع الامتناع منهم ، وحملوا قباذ على تزيين ذلك ، وتوعده ان رفض ، فلم يلبثوا إلا قليلا حتى صاروا لا يعرف الرجل ولده ، ولا المولود أباه ، ولا يملك الرجل شيئا مما يتسع به » .

ما أقسى ما عانى الفرس قبل الإسلام من انحرافات تركت فى كثير من الأحوال طابعها على مرّ الأجيال .

(١) الملل والنحل ج ١ : ص ٨٦ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك ج ٢ : ص ٨٨ .

ملوك فارس والدم الإلهي :

وادعى ملوك فارس أن دمًا إلهيًا يجري في عروقهم ، وأن في طبيعتهم عناصر علوية مقدسة ، وصدق الفرس هذه الدعوى فأنزلوهم منزلة الآلهة ، قدموا لهم القرابين ، وأنشدوا لهم أناشيد الطاعة والعبودية ، واعتقدوا أنهم وحدهم الذين يجوز لهم أن يلبسوا التاج ، ويسيطروا على الناس أيًا كانت سنهم أو كفاءتهم •

وفيما عدا الأسرة المالكة كان هناك المجتمع الإيراني بطبقاته الكثيرة التي تقوم هوة واسعة بين كل اثنتين منها ، وكان كل إنسان في طبقة لا يستطيع أن يتعداها إلى سواها من الطبقات مهما أوتي من كفاءة خاصة أو تجارب معينة (١) •

هذه هي بلاد فارس بما حوته قبل الإسلام من أعاجيب وانحرافات ، انعكست أحياناً للأسف الشديد على بلاد فارس بعد الإسلام

الاديان في الصين :

شهدت الصين في القرن السادس قبل الميلاد حكيمين شهيرين هما « لاوتسى » الذي ينطق اسمه أحياناً « لوتس » و « كونغ فوتسى » الذي ينطق « كونفوشيوس » ، وأولهما أسنَّ بحوالى خمسين سنة تقريبا ، وقد تقابلا وكان « لاوتسى » في شيخوخته و « كونغ فوتسى » في شبابه وتدارسا مع الأول بضع مشكلات ، ولكن كان لكل منهما اتجاه ، فافترقا ، فقد كان الأول داعية قناعة وزهد وتسامح مطلق ، دعا إلى مقابلة السيئة بالسيئة ، على نحو ما نسب للمسيح فيما بعد ، أما « كونغ فوتسى » فكان يدعو إلى العدالة والاستقامة ، ومقابلة السيئة بمثلها ، ومذهب الأول يعرف « بالتاوية أو الطاوية » أما مذهب الثاني فيعرف « بالكنفوشية » وهو أكثر انتشارا وذبوعا في الصين •

تلمذة من الكونفوشية :

كونفوشيوس سنة ٥٥١ وتوفي سنة ٤٧٩ ، قم وقد توفي أبوه

(١) انظر كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٣٣ .

وهو طفل صغير ، وكان كونفوشيوس ذكيا موهوبا ، فتطلع الى العلم ، وحصل منه قدرا كافيا ، ثم اتجه لنفسه يهذبها ، ففنده أن أحسن العلم ما أصلح حال صاحبه ، وشغل حيننا بالوظائف الحكومية ، وخلال هذه المدة عرف كثيرا من التجارب التي ساعدته على تفهم ما حوله من حقائق وانحرافات ، فوجد أن من الخير له ولوطنه أن يتفرغ للدعوة لأفكاره ، واتخذ من حياة الصالحين والحكماء الأثمة دمين طريقا يعتنقه ويدعو له ، فذلك يقود الى الحياة الأمثل .

وتكوّن حوله مجموعة من المريدين الذين اعتنقوا اتجاهاته وتحمسوا لها ، ووضعو نظاما أخلاقيا وسياسيا رأوا أنه يقود للسلام والخير البشرية ، ومن أهم مبادئ هؤلاء ما يلي :

— ينبغي أن تعامل مرء وسبك على النمط الذى تحب أن يعاملك به رؤساؤك ، وقد شاعت هذه القاعدة فأصبحت تمثل نقطة مهمة فى البناء السياسى .

— الطاعة الكاملة من الأبناء للآباء وللأسرة ، وكان هذا المبدأ داعيا للترابط العائلى .

— طريق الوسط هو الأسلم ، حتى يبعد الإنسان عن التهاون وعن التطرف .

— اتخذت الكونفوشية تعاليم رئيسية لها هى : العلم الغزير ، والسلوك الحسن ، والطبيعة السمحة ، والعزيمة القوية ، وأعلنت أن هذه المبادئ كلها تنصوى تحت العدالة .

وهكذا بدأت الكونفوشية اتجاها خلقيا ، وكانت حركة اصلاحية ، وظلت كذلك زمنا وبخاصة أن مؤسسها لم يدع النبوة ، ولا قال بأى اتصال إلهى ، ولكن الاجيال اللاحقة دفعتها لتكون دينا بين المعتقدات التى انتشرت بالمنطقة فى الصين وآلبان وكوريا كالطاوية البوذية .

وفى عصر أسرة سانج (٩٦٠ — ١٢٧٩ م) تطورت الكونفوشية بواسطة أتباعها ، واتجهت للاهتمام بالتقدم عن طريق اكتساب المعرفة ،

وكان ذلك الاتجاه يخالف اتجاهات الأديان المعاصرة بالمنطقة ، فقد اتجهت هذه الأديان الى التأمل والهدوء ولم تُعْنِ بالنشاط والحركة .

عادات صينية قديمة اختلطت بالكونفوشية :

وكان كونفوشيوس شديد التأثر بعقائد قومه الأقدمين ، فاتجه مثلهم الى عدم القول بالجنة أو النار والعقاب والثواب ، ولم يدرس مشكلة ما بعد الموت ، معلنا أن مشكلات الحياة يصعب فهمها ، فكيف بمشكلات ما بعد الحياة ؟

وكان الصينيون القدماء يربطون بين الأحداث الكونية ، وبين أخلاق الملوك وأخلاق الشعوب ، فالعواصف والفيضانات والزلازل والأوبئة وما ماثلها ، ليست عندهم إلا عقابا لانحراف الأئمة وانحراف الناس ، وقد تبنى كونفوشيوس هذه الفكرة .

وكان كونفوشيوس ككل صيني تخيفه الأحداث الكونية ، فهو يرتجف من قصف الرعد ، وعصف الرياح ، وهطول الأمطار ، وكسوف الشمس وخسوف القمر ، وهو يقابل ذلك بالتعاونز والقرايين ، يحاول بها أن يقي نفسه شرو هذه الأحداث .

تأليه كونفوشيوس وعبادة الأرواح :

قلنا أننا إن كونفوشيوس لم يدع النبوة ، ولا قال بأى اتصال إلهى ، ولم يكن غير مصلح اجتماعى .

وكانت أفكاره حافلة بالدعوة للخير والرحمة والاخلاص وأداء الواجب ، ولكن الصينيون من بعده انصرفوا بهذه الدعوة الخيرة واتجهوا إلى كونفوشيوس يبنون له الهياكل ويعبدونه ، ويقيمون أمام تماثيله التذائح والقرايين ، ويركعون أمام تماثيله ويسجدون ، وبالإضافة إلى هذا ، شاعت بالصين قبيل الاسلام عبادة الأرواح وبخاصة أرواح الآباء والأجداد ، إذ كان الصينيون يعتقدون أن هذه الأرواح تعيش معهم بعد وفاة أصحابها .

من العادات الدينية :

والصينيون يحبون كثرة النسل ، ولكنهم يمجّدون الذكور ، وعندما ييثر أحدهم بابتن يعلّق القوس والنشاب على الباب ، دليل مولد الذكر الذى يحمى العشيرة ، ويزود عنها الردى ، أما إذا بشر بأنثى فإنه يعلّق على بابه مغزلا دليل الخنوع والضعف •

البوذية فى الصين :

ومن أهم الأديان التى كانت سائدة فى الصين قبيل ظهور الإسلام ، الديانة البوذية ، وكانت البوذية فى ذلك الحين قد فقدت بساطتها ، وتحولت وثنية تحمل معها الأصنام حيث سارت ، وتبنى الهياكل ، وتتصب تماثيل بوذا حيث حلت وفزلت ، يقول الأستاذ اتريا « لقد قامت فى ظل البوذية دولة تعنى بمظاهر الآلهة وعبادة التماثيل •

وجاء فى دائرة المعارف البريطانية فى مادة بوذا ما يلى « لقد أصبحت البرهمية والبوذية بالانحطاط ، ودخلت فىهما العادات الساقطة ، وأصبح من العسير التمييز بينهما • لقد اندمجت البوذية فى البرهمية وذابت فيها » •

الهند :

يقول السيد أبو الحسن على الحسنى الندوى وكيل ندوة علماء الهند ما يلى : اتفقت كلمة المؤلفين فى تاريخ الهند على أن أحط أدوارها ديانة وخلقا واجتماعا كان ذلك العهد الذى يبتدىء من مستهل القرن السادس الميلادى فقد شاركت الهند فى التدهور الخلقى والاجتماعى الذى شمل الكرة الأرضية فى هذه الحقبة من الزمن • وبلغت الوثنية أوجها ، ووصل عدد الآلهة الى ٣٣٠ مليوناً ، وقد أصبح كل شئ رائع ، وكل شئ جذاب ، وكل مرفق من مرافق الحياة إلهاً يعبد ، وهكذا تجاوزت الأصنام والتماثيل والآلهة والإلاهات الحصر ، وأرُبت على العد ، فمنها أشجار تاريخية ،

وأبطال تمثل فيهم الله ، وجبال تجلى عليها بعض آلهتهم ، ومعادن كالذهب والفضة تحمل سرّ الألوهية ، وأنهار ، وآلات حرب ، وآلات التناسل ، وحيوانات أعظمها البقرة ، وغير ذلك ، وقد ارتفعت صناعة نحت التماثيل في هذا العهد حتى فاق هذا العصر في ذلك جميع العصور الماضية ، وقد عكفت الطبقات كلها ، وعكف أهل البلاد من الملك إلى الصلوك على عبادة الأوثان .

وظهر في الهند نظام الطبقات في أبشع صورة ، فقد ازدهرت في الهند قبل المسيح بثلاثة قرون الحضارة البرهمية ، ووضع فيها مرسوم جديد للمجتمع الهندي ، وأُلّف فيه قانون مدنى وسياسى أصبح رسميا ومرجعا دينيا في حياة البلاد ومدنيتها ، وهو المعروف الآن بـ « منوشاستر » ويقسم هذا القانون السكان أربع طبقات هى :

- ١ — البراهمة : وهم طبقة الكهنة ورجال الدين .
- ٢ — الكستريا : وهم رجال الحرب .
- ٣ — الوشيا : وهم التجار والصناع .
- ٤ — الشودرا : وهم طبقة الخدم والعبيد .

وقد منح هذا القانون طبقة البراهمة امتيازات وحقوقا ألحقتهم بالآلهة ، فجعلتهم صفوة الله وملوك الخلق ، وماكنتهم مافى العالم لأنهم أفضل الخلائق وسادة الأرض ، ولهم أن يأخذوا من مال عبيدهم الشودرا ما شاءوا ، لأن العبد وما ملكه يده لسيده (١) .

العرب :

في صور من وأد البنات ، وسبى النساء ، وعبودية لئنة واللات

(١) انظر كتاب : ماذا خسر العالم باحطاط المسلمين ص ٣٨ — ٤١ وكتاب آديان الهند الكبرى للمؤلف .

والعزى ، وفي هروب لا تنتقطع ، وغارات لا تهدأ كان يعيش العرب قبل الاسلام ولعل أدق تصوير وأخصره لحالة العرب في الجاهلية هو ذلك الذى قرره جعفر بن أبى طالب أمام النجاشى ملك الحبشة حينما سأله هذا عن دين الاسلام والرسول محمد ، قال جعفر (١) : أيها الملك ، كتب قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف (٢) .

العالم قبيل شروق الاسلام :

تلك صورة سريعة مجملة للعالم قبيل شروق شمس الاسلام ، تلك الحالة التى وصفها الأستاذ دينسون Dinson (٣) بقوله :

في القرنين الخامس والسادس بعد الميلاد كان العالم المتعدين على شفا

(١) ابن هشام ج ١ ص ٢١٢ .

(٢) يرتبط هذا الكلام الذى قاله جعفر بن أبى طالب بأحداث رايها بنفسى في إحدى البلاد الاسلامية غير العربية . أو قل ان هذا الكلام يتخذ اساسا لادعاءات ضد العرب وضد الاسلام . فهناك بعض متوسطي الثقافة لا يحبون العرب ولا يحبون الاسلام . وربما دفعهم هذا الاحساس الى مهاجمة العرب ومهاجمة الاسلام وهم يتخذون من كلام جعفر بن أبى طالب وسيلة فيصورون العرب بهذه الصورة البشعة التى رسمها جعفر . ويحقرون بذلك العرب والدين الذى نزل على واحد منهم .

وموقف هؤلاء لا يستحق دفعا فيما أظن . فهو ليس الا نقصا في الثقافة ، ولو فكر هؤلاء قليلا لروا كيف كانت تعيش بلادهم في ذلك الوقت السحيق وكيف كانت تعيش أوروبا ، وما نسجه الآن أمريكا وأستراليا . لو فكروا كذلك ، لو وجدوا ان العرب كانوا اشرف حالا . لقد كان العرب يأكلون الميتة أى الحيوانات التى لم تذبح ذبحا حلالا ولكن كان سواهم يأكلون لحوم البشر . وكان العرب يأتون الفواحش ولا يزال سواهم ممن يدعون المدنية يأتون الفواحش جهارا حتى اليوم . وكان العرب يسيئون للجار ولا يزال سواهم يسيء للجار ولغير الجار .

ثم هل يعنيان أن العرب كانوا كذلك قبل الاسلام ؟ اننا نثبت ذلك لنرى كيف تغيرت أحوالهم بعد الاسلام . ذلك الدين الذى نظم أمور الدين وأمر الدنيا .

Emotions as the Basis of Civilization. (٣)

جرف هار من القوضى ، لأن العقائد التي كانت تعين على إقامة الحضارة ، قد انهارت ، ولم يك ثَمَّ ما يعتد به مما يقوم مقامها ، وكان يبدو إذ ذاك أن المدنية الكبرى التي تكلف بناؤها جهود أربعة آلاف سنة مفسدة على التفكك والانحلال ، وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية إذ التباثل تتحارب وتتناحر ، لا قانون ولا نظام . أما النشليم التي خلقتها المسيحية فكانت تعمل على الفرقة والانهايار بدلا من الاتحاد والنظام ، وبهذا صارت المدنية التي كانت كشجرة ضخمة متفرعة ، امتد ظلها إلى العالم كله ، صارت واقفة تترنح ، وقد تسرب إليها الدطب حتى اللباب .

وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ، وفي الرجل الذي كان خير دواء لهذا الداء .

الباب الثاني

تيجون الفرد المسم

كيف كوّن محمد أول مجتمع إسلامي

جاء محمد صلى الله عليه وسلم والعالم كما وصفنا ، وكان ظهوره في جزيرة العرب القاحلة الجرداء ، التي قلّت فيها الحضارة والرقى وكثرت الحروب والغارات ، جاء عليه السلام فكوّن في هذا المجتمع ، وفي الجزيرة المتنافرة أول مجتمع إسلامي • كيف كونه ؟ وما مظاهر ذلك المجتمع ؟ وينبغي قبل كل شيء أن يتضح أن المجتمع الاسلامي الأول تكوّن في المدينة لا في مكة ، فقد كان المسلمون قبل الهجرة قلة بمكة يعيشون فيها أحيانا ، ويهاجرون منها فرارا بدينهم أحيانا أخرى ، فلم يكونوا من القوة ولا من العدد بحيث يكوّنون مجتمعا ، وعلى هذا فلم تكن مكة هي المدينة الاسلامية الأولى ، وانما كانت يثرب هي المدينة التي تكوّن بها أول مجتمع إسلامي •

وفي الجزء الأول من موسوعة التاريخ الاسلامي قدمت الكثير من التفاصيل عن جهود الرسول صلوات الله عليه بالمدينة ، تلك الجهود التي شملت الرسول كداعية ومثرب للدعاة ، ووصفت حياة الرسول بين أصحابه ، وبيّنت موقف الرسول من الشباب ، ومن العمل ، ومن تربية الولاة ، والقضاة ، وغيرها من الموضوعات المهمة (١) •

تكوين الفرد المسلم بمكة

شيء مهم جدا بدأ في مكة : ذلك هو تكوين الفرد المسلم الذي منه تكوّن فيما بعد المجتمع الاسلامي بالمدينة ، وتكوين الفرد المسلم الذي بدأ في مكة عملية مهمة جدا في التاريخ ، وانه لمن أبرز الأهداف التي حققها الاسلام بل حققها بسرعة هو تحويل الرجل العربي الى رجل مسلم ، وليست المسألة أن العربي أصبح مسلما ولكنها أعمق من هذا بكثير ، لأن

(١) موسوعة التاريخ الاسلامي ج ١ ص ٢٧٤ — ٤٤١ (الطبعة النانية عشرة) •

الاسلام غير الشخص الربى تغييرا شاملا حتى كأنه خلقه خلقاً جديداً
ولايضاح ذلك نثبت المقارنة الدقيقة التالية :

من الوثنية إلى التوحيد :

فالرجل الذى كان يسجد لغير الله ، ويعبد اللات والعزى ومناة ،
ويقدم لها القرابين ، ويطوف بالكعبة مردداً :

واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى
فانهم الخرائيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى

هذا الرجل ينقله الاسلام فى هذا الباب مرحلة واسعة ، فيجعله يؤمن
بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

وإن الإنسان ليحس بدهشة بالغة عندما يفكر فى ذلك الموضوع ،
فقد كان العربى فى عبادته منغمساً فى المادة ، يفد الى اللات والعزى ومناة
من مختلف البقاع ، ويحدث هذه الآلهة ، ويطلب منها ، ويقدم لها القرابين ،
كيف استطاع بسرعة أن يترك هذا الإله وأن يهدمه بيده ، ثم يتجه فى
عبادته الى إله لا يراه كما كان يرى الأصنام ، ولا يكلمه كما كان يكلمها

إن عبادة المادة ترتبط بحاجات الناس ، وقد عبد العربى اللات موقناً
أنها تنفعه وتضره ، ومن الممكن أن يدع الإنسان عبادة شىء مادى ليتحول
إلى شىء مادى آخر ، يرى نفعه أعم وأشم ، كالقصة التى أوردتها القرآن
الكريم : « فلما رأى القمر بازغاً قال : هذا ربى . فلما أفل قال : لنن
لم يهدنى ربى إلاكون من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة ، قال :
هذا ربى هذا أكبر » (١) ولكن التحول الذى أحدثه الاسلام فى العربى
شدها واسع جداً ، لقد نقله من المادة كلها الى عبادة الله الواحد الأحد ،
وأنشأ حساسية العربى وسمت نفسه فلم يعد يفكر فى المنفعة العاجلة ،

(١) سورة الأنعام الآيتان ٧٧ — ٧٨ .

ولم يعد يقنع بأن ضوء الشمس وحرارتها كافيان لجعل الشمس إليها يُعْبَدُ
فما بالك بحجر ينحته بيدد وينصبه بقواه •

على أن إيمان العربى بالله وصل الى درجة عالية من العمق ، وصلا
الى درجة الحب والتفانى ، فقد رأينا العربى يدافع عن الاسلام بحماسة
بالغة يرجو بها أن يصل الى إحدى الحسينيين ، أن ينتصر فينتشر دين الله
وينال رضاه ، أو يموت فيلقى ربه ويحظى بقربه ، وقد رَوَى أن عن
ابن الحمام كان يحارب قريشا مع المسلمين في غزوة بدر ، فأحس بالجوع ،
فاعترل المعركة ليأكل ، وأخرج من جرابه بلكحات يهدىء بها ثورة الجوع
فسمع وهو يأكل قارئا يتلو قوله تعالى « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم
وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه
حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا
ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم » (١) ، ولما سمع عمير هذه
الآية الكريمة تاق للقاء ربه ، والتمتع بالجنة التى عرضها السموات
والأرض ، ونظر الى البلح الذى وضعه أمامه وقال : كيف يشغلنى هذا
البلح عن لقاء الله ؟ لئن حصيت حتى أكله إنها لحياة طويلة • وألقى البلح
عنه ، وأسرع الى المعركة يخوض غمارها ، ومازال يقاتل في سبيل الله
حتى قتل (٢) •

من السيف إلى المسالة :

والرجل الذى كان يحكم السيف في أموره دون تفكير ، ويندر أخاه
ظالما أو مظلوما ، أصبح هادىء الطبع لا يدافع حتى عن نفسه إذا
اعتدى عليه ، فالتاريخ لم يسجل حادثة واحدة دافع فيها مسلم عن
نفسه بمكة ، وكان رائدهم في ذلك الرسول صلوات الله عليه ، فلقد أودى
بالوان من العنت دون أن يرد عن نفسه أذى بأذى وأودى أصحابه

(١) سورة التوبة الآية ١١١ •

(٢) ابن القيم : زاد المعاد ج ٢ ص ٨٨ •

ولأتباعه حتى مات منهم تحت العذاب من مات ، دون أن يقابلوا اعتداء
باعتداء أو صفة بصفة ، حتى أذن الله لهم بالهجرة الى المدينة ،
وبالدفاع عن أنفسهم بقوله « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله
على نصرهم لقدير » (١) فهل كان من الممكن أن نتوقع هذا أو ما يقرب منه
من العرب في الجزيرة العربية وهم الذين كانوا يشعلون حربا تدوم
عشرات السنين لأتفه الأسباب ؟

من القوة الى القانون :

وكان العربي يرى في القوة دستورهِ ورائدَهُ ، وكان يحترمها ويجلها ،
يخضع لها ويخضع غيره بها . كان يستطيع أن يهجم على الرجل يسير
مع زوجته أو ولده فيحاربه ، فان غلبه أخذ منه متاعه وأهله ، وليس للمغلوب
أن يشكو ، لأن المهاجم استعمل سلاح القوة ، وهو عندهم قانون وشريعة .

وجاء الاسلام فشرع النظم ووضع القوانين ، وألزم المسلمين اتباعها
والخضوع لها ، ودان المسلم للحق وأصبح القانون دستورهِ والعدالة
رائدَهُ ، وما كان له إلا أن يتبع ذلك بعد أن امتلأ سمعه وقلبه بقوله تعالى
« وأن احكم بينهم بما أنزل الله » (٢) « ومن لم يحكم بما أنزل الله
فأولئك هم الكافرون » (٣) « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر
بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » (٤) .
وقد لخص أبو بكر هذا الدستور الجديد في خطبته التي افتتح بها خلافته
حيث قال : الضعيف فيكم قوى عندي حتى آخذ له حقه والقوى فيكم
ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه .

(١) سورة الحج الآية ٣٩ .

(٢) سورة المائدة الآية ٤٩ .

(٣) سورة المائدة الآية ٤٤ .

(٤) سورة النساء الآية ٦٥ .

التهرب الى الامانة :

وكان العربى يعيش حيث السلب والنهب والعدوان ، وقد سبق أن ذكرنا أنه بالقوة كان العربى يأسر العربى أو يأخذ أهله ، أما المال فكان أقل شأنا بطبيعة الحال ، وكان نهبه فى جنح الظلام أو فى وضح النهار عملا عاديا لا يمنعه الا شدة الحراسة ويقظة الحراس ، بل وجدت فى الجزيرة العربية طوائف تحترف النهب وتعيش عليه هى جماعات الأعراب •

ماذا أخذت الإسلام بالإنسان العربى فى هذا المجال ؟

لقد أصبح خُلُقُ الأمانة بعض كيان المسلم ، فلقد روى أن أحد جنود المسلمين عثر على تاج كسرى عقب هزيمة الفرس فسلمه لصاحب الغنائم دون أن يطلع فيه أو يأخذ منه جوهرة تكفل له الغنى ، وروى الطبرى قصة أخرى من هذا النوع قال : لما هبط المسلمون المدائن وجمعوا الغنائم أقبل رجلٌ ومعه حَقٌّ من الجواهر الفريد ، ودفعه الى صاحب الغنائم فعجب صاحب الغنائم ومن معه من ذلك الحَقِّ وقالوا : ما يعمله كل ماجمعنا اليوم • وسألوا الرجل : هل أخذت منه شيئا ؟ فقال : أما والله لولا الله ما أتيتكم به • فقالوا : من أنت ؟ فأجاب : والله لا أخبركم لتحمدوني ، ولكنى أحمد الله وأرضى ثوابه •

من التأثير الى القصاص :

ويتصل بالقوة موضوع آخر هو موضوع التأثير ، فقد سبق أن قلنا إنه كان على المغلوب أن يستكين ويستسلم ما دام ضعيفا ، فإذا تقوى أو وجد من ينصره ويعينه اجأ إلى السلاح الذى هزمه وهو سلاح القوة ليثأر لنفسه ، وعلى هذا كان الأخذ بالتأثير أبرز صفات العربى ، وكان العربى يدين بالمقاعدة العربية التى تقول إنه إذا قَتَلَ رجل من قبيلة فرداً فيحق لكل منهم أن يقتل من يصادفه من أفراد قبيلة القاتل • ودخل العربى الإسلام فأدرك آداب الإسلام فى هذا الاتجاه ، عرف أنه لا تزر

وازرة وزر أخرى ، وعرف كذلك أن القصاص يقوم به وأى الأمر ، وعرف تحديد القصاص في قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى ، الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى ، فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ، ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ، ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون » (١) وقوله : « أن النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن ، والسن بالسن ، والجروح قصاص ، فمن تصدق به فهو كفارة له ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » (٢) وعرف ذلك الرجل المصير القاسى الذى يستحقه اذا اعتدى ، عرف ذلك من قوله تعالى « ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » (٣) وقوله « ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل إنه كان منصورا » (٤) بل عرف هذا الرجل ما هو أعظم من ذلك ، فقد علمه الاسلام خلقا أسمى من العدل وهو خلق العفو ، قال تعالى « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ، واصبر وما صبرك إلا بالله » (٥) .

من الحياة القبلية الى المسئولية الشخصية :

وكان العربى يفكر بتفكير قومه ، أو قل كان لا يفكر ، وانما كان يخضع لتفكير جماعته ، كان عضواً في قبيلته ، يسالم من سالت ، ويقاتل من قاتلت . دون أن يسأل نفسه مرة واحدة : لماذا يقاتل ؟ وهل القبيلة على حق أو على باطل فيما تشنه من حروب وما تقوم به من هجوم ؟ وجاء الاسلام فبنى في العربى شخصيته وعرفه مسئوليته « لا يضركم من ضل

(١) سورة البقرة الآيتان ١٧٨ — ١٧٩ .

(٢) سورة المائدة الآية ٤٥ .

(٣) سورة البقرة الآية ١٩٠ .

(٤) سورة الاسراء الآية ٣٣ .

(٥) سورة النحل الآيتان ١٢٦ ، ١٢٧ .

« استديتكم » (١) ووضح الاسلام للعربى أنه ان يعشش من المسئولية إذا اتبع غيره ولو كان ذلك الغير أباه أو أمه « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الايمان ، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون » (٢) ووضح القرآن للعربى أن يتبع طريق المحسنين البررة وألا يتبع طريق العصاة ولو كان هؤلاء العصاة أقرب الناس إليه « وإن جاهدك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما ، وصاحبهما فى الدنيا معروفاً » واتبع سبيل من أناب إلى » (٣) .

وخطا الاسلام فى هذا الاتجاه خطوة أبعد وأسمى ؛ فقد كان العربى كما قلنا يعيش لقبيلته ، ثم كان يركز حبه فى أولاده وعشيرته وماله ، أما الإنسانية ، وأما الحياة الروحية ، فلم يكن لها نصيب كبير فى نفسه ، فتهافت به القرآن فى حزم وتهديد « قل إن كان آباؤكم ، وأبنائكم ، وإخوانكم ، وأزواجكم ، وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها ، أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله ، فتركبوا حتى يأتى الله بأمره » (٤) . وقد روى أن العرب عندما سمعوا هذه الآيات قالوا فى إيمان ويقين : الله ورسوله أحب إلينا من كل ذلك . وروى أن عبد الله بن أبى بن سلوك رأس المنافقين بالمدينة حاول مرة أن يثير فتنة بين المهاجرين والأنصار . فأشار عمر على الرسول بالأمر بقتله ، وعرف عبد الله بن عبد الله بن أبى — وكان مسلماً حسن الاسلام — غلطة أبيه واحتمال أن يأمر الرسول بقتله . فجاء الى الرسول يقول له : « يا رسول الله إنه قد بلغنى أنك تريد قتل أبى ، فإن كنت فاعلا فمرنى فأنا أحمل إليك رأسه . » وهكذا كان يعيش المسلم للإسلام ومبادئه أكثر مما يعيش لأهله وذويه .

(١) سورة المائدة الآية ١٠٥ .

(٢) سورة التوبة الآية ٢٣ .

(٣) سورة لقمان الآية ١٥ .

(٤) سورة التوبة الآية ٢٤ .

من امتحان المرأة إلى إجلالها :

تدلنا الروايات التاريخية على أن المرأة في كثير من القبائل بجزيرة العرب كانت مُمْتَهَنَةً ، وقبل أن نحطى هنا بعض التفاصيل نحسب إنصافاً للحقائق أن نقرر أن هذا الامتحان لم يكن شائعاً في جميع القبائل ، وأن المرأة في بعض قبائل العرب كانت تحتل مكانة مرموقة في بعض النواحي ، ولكن الإسلام غيّر مكانة المرأة على العموم ، وغيّر نظرة الرجل للمرأة وحظيت ، جميع النساء في حمى الإسلام بحقوق لم تحظ بها المرأة الأوروبية إلا في هذا القرن الذي نعيش فيه ، بل لسنا مبالغين إذ قررنا أن المرأة الأوروبية لم تتل بعد كل ما حققه الإسلام للمرأة من حقوق .

وكانت العادات التي سنذكرها قانون تلك القبائل ، وليس هناك من غضاضة في اتباعها ، بل الغضاضة في مقاومتها أو التمرد عليها ، وجاء القانون السماوي فسرعان مادان به العربي ، واتّبعه ودافع عنه .

يذكر بعض مؤرخي اليمن أن التملك كان مشاعاً بين أفراد الأسرة في عهد من العهود ، وأن المرأة كانت بعض هذا الملك المشاع ، فكانت زوجة أو خليعة لأفراد الأسرة كلها ، فإذا دخل أحدهم خبائها ليوطر ركب عضاء عند الباب ، فلا يفتحه عليه أحد ، لكن مبيتها كان مع رب الأسرة دائماً (١) .

وشاع في كثير من القبائل ذلك المنكر الذي حرمه الله يقوله « لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرجال » (٢) ففقد كل من حق وارث الميت أن يرث أرملته أيضاً بأن يذهب لها بعد موت زوجها فيلقى عليها رداءه ، وحينئذ يكون له أن يتزوجها أو يزوجه من غيره ويقبض مهرها .

(١) المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل : الفاروق عمر ج ٢ : ص ٢٤١ — ٢٤٢ .

(٢) سورة النساء الآية ١٩ .

ولم يكن للمرأة نصيب من الميراث ؛ فلا ترث البنت من أبيها ، ولا الزوجة من زوجها ، إلا الأُم من ابنها ، إذ كان العرب يجعلون الميراث دقصوراً على من حمل السيف وطعن بالرمح وذاد عن حمى القبيلة .

وتأتى بعد ذلك القسوة الطاغية التى تمثلت فى وأد البنات ، فقد كان من الحرب من يحمل ابنته ويحفر لها ويُدّها حون ذنب جنته ، أو جريرة اقترفتها « وإذا الموعودة سئلت بأى ذنب قتلت » (١) ولم يكن الدافع له على هذا العمل العنيف الا خوف العار أو الفقر ، وقد ظل يرتكب هذا الفعل المنكر حتى صاح به القرآن « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ، إن قتلهم كان خطئاً كبيراً » (٢) « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم » (٣) .

وعلى العموم فقد عبر عمر بن الخطاب تعبيراً شاملاً عن رأى العربى فى المرأة بقوله : والله إنا كنا فى الجاهلية لا نعد النساء أمراً حتى أنزل الله فيهن ما أنزل وقسم لهن ما قسم .

كيف تحوّل المسلم فأصبح يُجِلُّ المرأة بعد أن كان يَمْتَنُّها . وماذا أنزل الله فى النساء وقسم لهن ؟

قبل أن نجيب على هذا نجب أن نوضح أنه ليس الرجل فقط هو الذى خضع للأمر الجديد وأحنى له الرأس ، بل إن المرأة أدركت ما حققته لها الإسلام وتمسكت به ودافعت عنه ، يقول الدكتور هيكل (٤) : « ولا شك أن النساء قد أصررن على ما فرض الله لهن من حق ، ولم يكن للرجال أن يكروهن عليهن ، أو يناقشوهن فيه ، وقد آمنوا بالله وكتابه ورسوله . »

(١) سورة التكويد الآيتان ٨ — ٩ .

(٢) سورة الاسراء الآية ٣١ .

(٣) سورة الأنعام الآية ١٥١ .

(٤) الفاروق عمر ص ٢٥٢ .

وإذا ذهبنا لنصور هذا الحق نجد أنه انقلاب عظيم في تاريخ حياة العربى ، انه السمو بالمرأة لتتساوى بالرجل مساواة كاملة في المركز الإنسانى ؛ فلقد رفع الاسلام عن المرأة ما أثقلتها به حياة الجاهلية من مظالم ، لقد كانت المرأة كما قلنا مشاعا بين أفراد الأسرة في بعض البقاع • ومعنى كونها مشاعا أنها متاع لهم ، فجاء الاسلام فنظم هذه العلاقة على أساس جديد من تقديس العلاقة بين الرجل وزوجته ، وكانت المرأة متاعاً أيضاً عندما كانت تورث كسائر المتركات التى يتركها ميت كما سبق القول ، فجاء الاسلام فنقلها من متاع يورث الى انسان يرث ، فأصبحت تأخذ من تركه زوجها وذويها نصيباً مفروضاً وتقف مع باقى الوارثين على قدم المساواة •

وكان السيف هو من أهم الصلات والاسباب التى تتيح الميراث ، لذلك كانت البنت والأم والأخت تحرم من الميراث لينالهُ المناضلون من الرجال فجعل الاسلام النسب والمصاهرة والولاء هى الصلات المعتمدة •

وهاجم القرآن الكريم وأد البنات وجعله من الجرائم القاسية • وحدد الاسلام عدد الزوجات بعد أن كان مطلقاً ، وأثر الزوجة الواحدة إذا خيف عدم العدل •

وفى أسمى المواضع من آى القرآن الكريم أى بعد تقرير التوحيد وهو المبدأ الأسمى فى الاسلام يقرر كلام الله ضرورة الاحسان للوالدين ، ويرتفع بهذا الاحسان الى درجة عالية لا تبيح للابن أن يتأفف ، أو يظهر الضجر من أفعال الأب والأم قال تعالى : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما ، وقل لهما قولاً كريماً ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل : رب أرحمهما كما ربياني صغيراً » (١) • وخص الاسلام

للأم بمزيد من الرعاية « حملته أمه وهنا على وهن وفصله في عامين أن
اشكر لى وأبو الديك » (١) .
من الإباهية إلى الطهر :

والرجل الذى شاهد المعهر والفسوق وكثيرا ما أخذ منهما ينصيب ،
الرجل الذى رأى نساء بنى عامر كما يروى المؤرخون (٢) يَطْفَنَنَّ مِنَ
الكعبة عراة أو حاسرات ، يرددن أشعارا فيها إغراء وإثارة ، هذا الرجل
يكسوه الإسلام حلة من الطهر والعفة ، فيغض الطرف ويبعد عن الزلل ،
فإذا غلبه الشيطان وارتكب الفاحشة سارع واعترف مطالبا بتطهير نفسه
بأن يلقي حتفه مرجوما تكفيرا عما ارتكبه من إثم ، روى مسلم بن الحجاج
عن عبد الله بن بريدة عن أبيه أن ماعز بن مالك الأسلمى أتى رسول الله
صلى الله عليه وسلم فقال : « يا رسول الله ، إنى ظلمت نفسى وزنيت
وإننى أريد أن تطهرنى » فردّه الرسول ، فلما كان من الغد أتاه فقال :
« يا رسول الله إنى قد زنيت » فردّه الرسول ثانية وأرسل إلى قومعه
يسألهم : أتعلمون بعقله بأساً أو تنكرون منه شيئا ؟ فقالوا : ما نعلمه
إلا رافىء العقل . فأتاه الثالثة فردّه الرسول . وأعاد السؤال عنه فأخبر
أنه لا بأس به ولا بعقله ، فلما كانت الرابعة حفرّت له حفرة ثم أمر
به الرسول فرجم .

ومثل هذا ما فعلته الغامدية التى جاءت الرسول لتقول له : يا رسول
الله انى قد زنيت فطهرنى . فردّها الرسول . فلما كان الغد جاءت، وقالت
للرسول : تريد أن تردنى كما رددت ماعزا ، ولكنى والله حملت من الزنا ،
فقال لها الرسول : اذهبنى حتى تلدى . فلما ولدت أنته بالصبي فى خرقة
فقالت : قد ولدته . قال اذهبنى حتى ترضعيه إلى أن يطعم الطعام فلما
فطمته أنته بالصبي فى يده كسرة خبز فقالت : هذا يانبنى الله قد فطمته
وأكل الخبز فدفع الرسول بابنها الى رجل صالح يعوله وأمر بها فرجمت ،
وكان بين من رجموها خالد بن الوليد فتطاير رشاش من دمها عليه ،

(١) سورة لقمان الآية ٤ .

(٢) محمد يونس الحسينى : الفكر الاجتماعى ص ١٤٧ .

فسيبها ، فقال له الرسول : مهلا يا خالد • فوالذي نفسي بيده لقد تابيت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له » (١) ثم أمر فصلى عليها ودفنت • وهكذا بلغ الطهر بالعربي درجة من السمو والصفاء ينذر أن يوجد لها مثل ، أو يكون لها نظير •

من نظام الطبقات إلى المساواة :

والرجل الذي كان يخضع لنظام الطبقات ، ويؤمن به ، ويسير على هديه ، وينظر الى العالم على أنه أسر • أو قبائل متفاضلة ، تتفاوت تبعاً للدم والنسب • هذا الرجل أعاد الاسلام تكوينه • فإذا بالتفاوت عنده يخضع لعامل آخر هو عامل التقوى والعمل الصالح : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (٢) وورد في الحديث قول الرسول : أيها الناس ، إن ربكم واحد ، كلكم لآدم و آدم من تراب ، لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى • رواه أحمد .

من الانزواء بالجزيرة الى السيطرة على الفرس والروم :

وكان العربي منزوياً في الجزيرة العربية ، يرهّب الفرس والروم ويقبل راضياً أو كارهياً أن تخضع كثير من مناطق الجزيرة لنفوذ كسرى ونفوذ قيصر • وكانت نظرته للفرس والروم نظرة رهبة وإجلال عبر عنها عبد الرحمن بن عوف بقوله : إنها الروم وبنو الأصفر حدّ هادي وركن سعيد ، وكانت نظرة الفرس والروم للعرب نظرة استعلاء وترفع ، عبر عنها شهريران في رسالته التي أرسلها إلى المثنى بن حارثة الشيباني الذي قاد جيوش المسلمين لغزو فارس ، قال شهريران : « إني قد بعثت إليك جنداً من أهل فارس هم رعاة الدجاج والخنازير ، ولست أقاتلك إلا بهم » •

(١) ابن رشد القرطبي : بداية المجتهد ونهاية المقتصد ج ٤ ص

٣٠٦ — ٣٠٧ •

(٢) سورة الحجرات الآية ١٣ •

وكان "شهريراز" كان يعتقد أنه يكتب للعربي الذي عهده منزويا
حسينا ، ونسى الحدث الأعظم الذي دخل على العربي فغيّر من شأنه .
وخلق منه بطلا مغواراً قدّر له أن يحطّم ملك القياصرة ويهدم عروش
الأكاسرة ؛ ويفتح البلدان ، ويكوّن الامبراطورية الاسلامية الفسيحة .
وأن يقف أمام الجيوش المستعدة المزودة بالسلاح والمؤن ، وسلاحه
الرئيسي هو الايمان ، يضرب به فتفرّق قلوب الرجال وتتخلع نفوس
الأبطال . قال الهرمزان لعمر بن الخطاب معللاً ضعف العرب قبل الإسلام
وقوتهم بعد الإسلام : يا عمر كنا وإيّاكم في الجاهلية وقد خلى الله بيننا
وبينكم فقلبتكم ، إذ لم يكن معنا ولا معكم ، فلما كان معكم غلبتمونا .
غرس أخلاق الإسلام في الفرد :

لم تكن هناك مقاييس ثابتة للأخلاق قبل الاسلام ، لا في الجزيرة
العربية ولا في غيرها ، فالعدل كان أحياناً يُعدّ من الأخلاق العالية ،
ولكن الجور أحياناً كان يعد بطولة ، وكانت الأمانة ضرورية داخل الأسرة ،
ولكن خارج الأسرة والقبيلة كان السلب محمداً ، وهكذا فلما جاء
الاسلام ألغى حدود الزمان والمكان والجنس بالنسبة للأخلاق ، وحدد
الفضائل والردائل ، وجعلها مستقرة ثابتة في كل الظروف ، فالصدق ،
والاخلاص في العمل ، والكرم ، والوفاء بالوعد ، والصبر ، والحلم ، والعفو ،
صفات يلتزم بها المسلم ، والكذب ، والكبر ، والظلم ، والرشوة ، والحسد ،
والخية ، والنميمة ... ردائل يجب أن يبتعد عنها المسلم .

وقد بذل الرسول جهداً كبيراً لتثبيت الفضائل وتطهير المسلمين
من الردائل ، ونجح نجاحاً كبيراً في تثبيت الأخلاق الاسلامية في نفوس
المسلمين .

كيف تربي هذا الرجل المسلم ؟

تلك نماذج قليلة وسريعة سنعود الى بعضها بشيء من التفصيل فيما
بعد ، ولكنها هنا تدلّنا دلالة واضحة على مدى تحوّل الرجل المسلم في مكة
المكرمة ، وكيف أصبح عنصراً صالحاً تكوّن منه فيما بعد المجتمع الاسلامي
في المدينة المنورة . كيف تربي هذا الرجل ليرحل هذه الرحلة الطويلة من رجل

فيه طبقية وأخائية ... الى مسلم يدين بالمساواة ويتحلف بالسماحة والإيثار ؟

الجواب عن ذلك أن هناك عاملين مهمين أحدثا هذا التغير العظيم ، وهذان العاملان هما : الاسلام في مبادئه السمحة ، والرسول في شخصيته الفذة ، الفريدة في صفاتها ، التي هي خير قدوة يقتدى بها المصلحون ، وسيظل هذان العاملان معنا طوال هذا الحديث نقتبس منهما ولستترسد بهما ، ولكنى هنا أبادر فأسوق قصتين تبرزان كيف كان الرسول يربى العرب لينقلهم الى صفوة من المسلمين .

كان أبو ذر الغفاري يناقش عبدا في حضرة الرسول صلوات الله عليه ، وبطال النقاش بين الاثنين ، فغضب أبو ذر ، وقال للعبد : يا ابن السوداء ! وسرعان ما التفت له المعلم العظيم وقال له : « طف » الصاع ، دلف الصاع ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بعمل صالح » وما إن انتهى الرسول من قوله حتى كان أبو ذر قد هوى من استعلائه الى عالم المساواة في لحظة قصيرة ، فوضع خده على التراب وقال لاسبد : قم فدايا على خدي .

وكان فضالة بن عمير بن الموح من المنافقين الذين يظهرون الاسلام ويضمرون الكفر لله ورسوله ، وقد هم مرة أن يقتل الرسول صلى الله عليه وسلم ، وسام بهو يطوف بالبيت ، فلما دنا من الرسول الشريف فزع يديه أو ربما ألحقى له بذلك ، فبادره الرسول قائلا : أفضل اليك قال : نعم فضالة يا رسول الله ، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم وقال : استغفر الله يا فضالة ، ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه وبرئت نفسه من الذنوب . قال فضالة : والله ما رفع يده عن صدري حتى كان أحب الناس لي (١) .

ذلك لون من ألوان التربية التي اتبناها الرسول صلوات الله عليه ايخاق بها أفرادا كانوا عناصر طيبة تكون منها المجتمع الاسلامي الذي نؤمن ان لنا لنحدث عنه .

الباب الثالث

المجتمع الإسلامي في عهد الزاهر
وأشس تكوينه

المجتمع الإسلامي :

إن تشييد قصر سامخ يحتاج الى فن راق وكفاءة ومقدرة ، والمادة الأولية من أخشاب ، حديد وأحجار وغيرها ليست كل شيء في تشييد البناء ، وإن كانت تكثرن عنصرا مهما لإقامته ، فتكوين القصر له هندسة خاصة وطرق معينة في استغلال المادة الأولية التي يجب الحصول عليها بأدنى دنى بدء ، وهذا مثال يبين لنا الجهد الذي يستلزمه تكوين مجتمع إسلامي حتى بعد أن يربى الفرد المسلم ويَعُدَّ ليكون عنصرا صالحا لبناء هذا المجتمع ، فلبناء المجتمع فلسفة خاصة بجانب إعداد الأفراد الذين سيتكون منهم .

ولحسن الحظ بنى الرسول بنفسه المجتمع الإسلامي الأول فعلمنا كيف يتكون المجتمع الإسلامي ، وما الأسس التي يجب أن تتوافر فيه ، ولقد بنى الرسول المجتمع الإسلامي الأول بالمدينة عقب هجرته إليها من مكة ، فلننظر كيف بناه ، ثم لنسبر مع هذا المجتمع الإسلامي لنرى كيف نما ، وكيف أصبحت المدينة بلدة ضمن بلاده العديدة وأقطاره الفسيحة .

الطوائف بالمدينة عقب الهجرة :

التقى في المدينة عقب الهجرة عدة عناصر أهمها الطوائف الثلاثة الآتية :

- ١ — المهاجرون ، وهم الذين فرّوا بدينهم من مكة إلى المدينة .
- ٢ — الأنصار ، وهم الذين دخلوا الإسلام من سكان المدينة الأصليين .
- ٣ — اليهود ، وهم بقية من بني إسرائيل مع من تهوّد من العرب .

ويدخل مع كل صنف من هذه الأصناف قبائل وجماعات لجئوا لها وعاشوا في جوارها ، فكان على الرسول أن يكون من هذه الطوائف مجتمعا سليما يضع له قوانينه ونظم حياته ، يهذب نفسه وروحه ، وينظم سلوكه ومعاملاته ، وعلى الجملة يجمع في تشريعاته وسياسته خير الدين

والدنيا ، واتجهت فكرة الرسول الى غاية سامية هي حجر الزاوية في تكوين المجتمع الاسلامى ، وهي تكوين أسرة جديدة من المسلمين تحل محل الأوس والخزرج ، ومحل بنى عبد مناف وبنى هاشم وغيرهما ، وتصبح هي الأسرة الاسلامية التى ينتمى لها المسلمون فى المدينة أيا كانت قبائلهم وأيا كانت ديارهم ، فإذا تمّ له ذلك خطا الخطوة الثانية وهي ربط هذه الأسرة الاسلامية بغير المسلمين من الجماعات التى تعيش معهم مكوناً المجتمع الاسلامى ، فالمجتمع الاسلامى هو المجتمع الذى تسوده روح الاسلام ويتعاون أعضاؤه — أيا كانت ديانتهم — فيما يحقق الخير للمجتمع .

أسس تكوين المجتمع الإسلامى :

وقد اتبع الرسول أسسا قويمه ثبتت بغيان العالم الاسلامى ، ورفعت شأنه ، وهذه الأسس هي :

- أولا — بناء المسجد ليكون ملتقى للمسلمين .
- ثانيا — المؤاخاة بين المسلمين .
- ثالثا — المعاهدة بين المسلمين وغير المسلمين .
- رابعا — وضع أسس للنظام السياسى (الشورى) .
- خامسا — وضع أسس النظام الاقتصادى .
- سادسا — القدوة الحسنة .
- سابعا — سيطرة روح الاسلام على هذا المجتمع .

وستحدث عن هذه الأسس واحدا بعد الآخر فيما يلى

أولا - المسجد ملتقى المسلمين

كانت أولى الخطوات التي اعتمد عليها الرسول لتكوين المجتمع الاسلامي بناء مسجد المدينة ، ولم يكن الهدف الأسمى لبناء المسجد إيجاد مكان للعبادة فحسب ، فالدين الاسلامي يجعل الأرض كلها مسجدا للمسلمين ، ولكن مهمة المسجد كانت أعمق من هذا وأقوى ، لقد أراد الرسول فيما يبدو لى أن يبنى مكانا لا ينتمى لهذه القبيلة أو تلك ، ولا يجتمع فيه أفراد من أسرة خاصة ، بل أن يشيد مكانا يؤمّه الجميع ، هو بيت الله أو بيت الجميع ، وافق هذا البيت يلتقى المسلمون للعبادة ، وللمشاورة ، وللقضاء والتجارة وللسمر ، وفيه يلتفّشون حول الرسول يأخذون عنه مبادئ الدين ، ونظم المجتمع الجديد ، وآيات القرآن الكريم ، وفي هذا المكان أو هذا المنتدى أو هذه المدرسة أو هذا المسجد ستمتج النفوس والعقليات وتقوى الوحدة وتتألف الأرواح ، ومنه سينبعث الأذان خمس مرات في اليوم يعطر جوّ المدينة ، ويعلن أن كلمة الله أصبحت الكلمة العليا .

وتدلنا الروايات التاريخية على أن أهل المدينة كانوا يتخذون المسجد منتدى لهم ، يجتمعون فيه للسمر ولا نشاد الشعر ، وللحديث في شئون التجارة ، بجانب العبادة والقضاء والتعليم حتى كان لفظ المتسامرين والتجار أحيانا يعلو على أصوات المصلين والمتقاضين ، مما جعل عمر يخصص مكانا بجانب المسجد متصلا به لمثل هذه الأحاديث ، ليبقى المسجد خصيصا للعبادة والقضاء والتعليم .

المسجد الآن كما ينبغي أن يكون :

ومن أجل هذا يتجه الفكر الجديد الآن الى العودة بمسجد اليوم الى

روح الاتجاه الذي بُني على أساسه المسجد الأول في عصر الإسلام ،
نريد أن يكون مسجد اليوم «مجمعاً» به مكان للعبادة ، وبه مكتبة إسلامية ،
وثقافية وبه قاعة للمحاضرات والاجتماعات ، وبه استحداث المصاحفات
الصحية السريعة ، وحوله مكان للشبان يمارسون به بعض الرياضيات
المباجة ، حتى إذا أذن المؤذن للصلاة هرعوا إليها ، ونريد أن يكون بكل
مسجد مكان مخصص للنساء ، تصلين به وتتدارسن فيه شؤونهن .

ونحن بهذا نخلق مركزاً دينياً شيعياً واسع الأثر في خدمة الإسلام
والمسلمين ، كما كان مسجد المصادر الأول للإسلام .

ثانياً - المؤاخاة بين المسلمين

ومع بناء المسجد خطا الرسول خطوة أخرى لها خطرها العظيم في تكوين المجتمع الاسلامي في المدينة ، وتلك الخطوة هي المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، وكانت هذه الخطوة استجابة لقوله تعالى : « إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله : والذين آووا ونصروا ، أولئك بعضهم أولياء بعض » (١) والتم تكن المؤاخاة التي حصلت مؤاخاة بين المهاجرين من جانب والأنصار من جانب آخر فقط ، وإنما تتم بعضها بين مهاجر ومهاجر ، فيالرسول اتخذ علياً بن أبي طالب أخاً له ، وبعضها بين أنصاري وأنصاري ، والكثير منها بين مهاجر وأنصاري كما سنرى ، وقصد الرسول بذلك أن يقرب أيضاً بين الأوس والخزرج إذ كانت الحروب بينهما قريبة عهد ، وأن يقرب بين بعض قبائل المهاجرين وبين البعض الآخر ، كما قصد أيضاً أن يؤكد المساواة في الإسلام بطريقة عملية ، فأخى بين أفراد من أعظم القبائل العربية وبين بعض الموالى والعبيد ، وفي ضوء هذه المبادئ دعا الرسول المسلمين ليتأخوا في الله أخوين . فكان هو وعلى بن أبي طالب أخوين ، وكان أبو بكر وخارجه بن زهير أخوين ، وكان عمر بن الخطاب وعثمان بن مالك الخزرجي أخوين ، وكان جعفر بن أبي طالب ومعاذ بن جبل أخوين ، وكان أبو عبيدة بن الجراح وسعد بن معاذ أخوين ، وكان عبد الرحمن بن عوف وسعيد بن الربيع أخوين ، وكان الزبير بن العوام وعبد الله بن مسعود أخوين ، وكان طلحة بن عبيد الله ولعبي بن مالك أخوين ، وكان عمار بن ياسر حذيفة بن اليمان أخوين ، وكان سلمان الفارسي وأبي الدرداء أخوين ، وكان بلال وأبو رويحة عبد الله الخثعمي أخوين ، وتأخى عدد كبير من المهاجرين بأفراد من الأنصار ، وجعل الرسول لهذا الإخاء حكم إخاء الدم والنسب (٢) قال الإمام عبد الرحمن الخثعمي في كتابه الروض الأنف إن الرسول

(١) سورة الأنفال : الآية ٧٢ .

(٢) ابن هشام ج ٢ ص ١٩ .

صلى الله عليه وسلم آخى بين أصحابه حين نزلوا المدينة ليُذْهِبَ عنهم وحشة الغربة ويؤنسهم عن مفارقة الأهل والعشيرة ، ويشدُّ أزر بعضهم ببعض ، فلما عز الإسلام واجتمع الشمل ولذبت الوحشة أنزل الله سبحانه « وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » (١) أعنى في الميراث . ثم جعل المؤمنين كأنهم إخوانة فقال « إنما المؤمنون أخوة » (٢) يعنى في التوادد وشمل الدعوة (٣) .

ومن هذا يتضح أن هذه المؤاخاة كان من نتائجها التوارث بين الأخوين والتعاطف والإيناس ، وقد وضعت الآية الكريمة السابقة « وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض » حدا للتوارث بين الأخوين من هذا النوع ، ولكننا نجد هذه المؤاخاة قد قويت وتأصلت بين كثير من هؤلاء حتى أن حمزة بن عبد المطلب كتب وصيته قبل أن يخوض غمار الحرب يقيم أحدهم لأخيه زيد بن حارثة (٤) .

وبهذه المؤاخاة انصهرت هذه المجموعات وهؤلاء الأفراد في بوتقة الاسلام ، وتشكلت منها أسرة اسلامية جديدة متحابية متعاونة ، يربطها رباط التوحيد وتقوى بينها مواسيق الحب والتعاطف ، وقد نسي كل من هؤلاء نسبه وعصبته ونزاعاته الجاهلية ، وتطلعوا جميعا الى النسب السامى وهو العلاقة الاسلامية والرباط الدينى المتين ، ومن العجيب أن الزمن مر ، وتتابعت الأحداث ، وتغيرت الظروف التى دعت للمؤاخاة في هذا الوقت العصيب وهذا المحيط الضيق ، ولكن هؤلاء الإخوة لم ينسوا المؤاخاة التى عقدها الرسول بينهم ، يحكى ابن هشام (٥) ، أن بلالا كان قد خرج للشام مجاهدا واستقر هناك منذ عهد أبى بكر ، فلما جاء عهد عمر بن الخطاب ، ودون الدواوين سأل عمر بلالا : إلى من يكون ديران الشام يا بلال ؟

(١) سورة الأنفال : الآية ٧٥ .

(٢) سورة الحجرات : الآية ١٠ .

(٣) الروض الأنف ج ٢ : ص ١٨ .

(٤) ابن هشام ج ٢ : ص ١٨ .

(٥) سيرة ابن هشام ج ٢ : ص ١٩ .

قال بلال : الى أبى ريحمة يا أمير المؤمنين ، فانى لا أحب أن أفارقه للأخيرة التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عقد بينى وبينه فاستجاب له عمر .

كيف تمت هذه الموازنة وهذا التآلف بين من كانوا بالأمس أعداء
منشأحين ؟ إنه فضل الله وقدرته التي ما فتئها قدرة ، وقد صور القرآن
الكريم ذلك في قوائمه تعالى : « وانكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء ،
فآتاكم بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخوانا » (١) وقوله : « وآلف بين
قلوبهم ، لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله
آلف بينهم ، إنه عزيز حكيم » (٢) .

ويجب أن نذكر هنا العمون ، وحسن الاستقبال ، وكرم الضيافة ،
والحفارة التي قدمها الأنصار المهاجرين ، وقد زادت المؤاخاة هذه العلاقات
قوة ، فأصبح الأنصار للمهاجرين أملاً ، أنشعوا لهم صدورهم ، ولم يرضوا
عليهم بما لهم « يجبرون من هاجر إليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة
مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » (٣) .

[illegible]

- (١) سورة آل عمران الآية ١٠٣ .
- (٢) سورة الأنفال الآية ٦٣ .
- (٣) سورة الحشر : الآية التاسعة .

ثالثا - المعاهدة بين المسلمين وغير المسلمين

جعل الدين الاسلامي توحيد الله أساسا قويا يمكن أن يتعاون في ظله اتباع الديانات السماوية المختلفة قال تعالى : « يا أهل الكتاب ، تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله » ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » (١) فإذا ارتقى الانسان بإنسانيته ، وسما بعقله وروحه وترفع عن عبادة الصنم والحيوان والشمس والقمر ، وآمن بالله وحده ، ورفض أن يشرك به شيئا ، فان ذلك الانسان مسلما كان أو مسيحيا أو يهوديا تربطه صلة قوية بمن شاطره هذه العقيدة وإن اختلف معه في الدين : « ومن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها » (٢) .

وفي ضوء هذا المبدأ عقد الرسوا معاهدة بين المسلمين وبين اليهود وأقليات أخرى صغيرة كانت تعيش في المدينة ، وتعتبر هذه المعاهدة من أنفس المعاهدات الدولية وأمتعها وأجدرها بتقدير الناس جميعا على اختلاف أديانهم ، وهى بالاضافة الى ذلك تنير السبيل للمؤمنين ، وتبين لهم كيف يتعاونون مع أتباع الأديان السماوية الأخرى ، ويكونون معهم وحدة تتمتع كل مجموعة فيها بالحرية الدينية .

ويتعهد الموقعون على هذه المعاهدة بالتعاون في الدفاع عن بلدهم المشترك ضد أى اعتداء قد يقع عليه ، وأن يتعاونوا ماليا في الأزمات الاقتصادية ، وأن يرجعوا جميعا عند اختلافهم لقضاء الرسول ، وفيما يلى مقتبسات مختارة من هذه الوثيقة الهامة :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، انهم أمة واحدة من دون الناس ،

(١) سورة آل عمران : الآية ٦٤ .

(٢) البقرة : الآية ١٥٦ .

• الذين من قريش شأى ربيعتهم يتعاقلون بينهم وهم يستعدون عليهم
بالمعروف وأنفسط بين المؤمنين (أى هم على أمرهم الذى كانوا عليه من
تعاونهم فى القصاص والديات ولكن حسبما تقضى النظم الاسلامية) ،
وينو عرف وينو الحارث (من الخزرج) وينو ساعدة (من الأوس) على
ربعتهم يتعاقلون بينهم ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين
المؤمنين ، وإن المؤمنين لا يتركون مفترحاً (مثقلاً بدين أو غم) بينهم ،
بل يعطونه بالمعروف فى فداء أو عقل • وإن المؤمنين على كل من بغى
أو ارتكب إثماً أو عدواناً أو فساداً بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعاً
ولو كان ولداً أحدهم •

• ولا يقتل مؤمن مؤمناً فى كفر ، ولا ينصر كافراً على مؤمن •
• وإن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا
متناصر عليهم •

• وإن سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن ذون مؤمن •
• وإنه لا يجير مشرك مالا لقريش (كانت قريش على الشرك آنذاك)
ولا نفساً •

• وإنه من اعتبط (قتل ظلماً) مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه قود به
إلا أن يرضى ولى المقتول بالعقل (الدية) وإن المؤمنين عليه كافة ولا يحل
لهم إلا قيام عليه •

• ومهما اختلفتم فيه من شئ فإن مرده الى الله وإلى محمد •

• وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين •

• وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ،
إلا من ظلم أو أثم •

• وإن ليهود بنى النجار ويهود بنى الحارث ... مثل ما ليهود بنى
عوف إلا من ظلم أو أثم •

وإن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وأن يربط بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم ، وإنه لا يأتهم أمرؤ بحليفه ، وإن النصر للمظلوم ، وإن يشرب حرام جوفها (لا تجوز الحرب بداخلها) لأهل هذه الصحيفة ، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ، وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله ، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب ، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم ، وإنه من خرج فهو آمن ، ومن قعد بالمدينة فهو آمن إلا من ظلم وأثم ، وإن الله جبارٌ لمن برّ واتقى ومحمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) (١) .

والذى يتمعن هذا الميثاق يجد أن الدولة الإسلامية ظهرت للوجود ، وأصبح جميع المؤمنين رعايا لها متساوين على اختلاف أجناسهم وعصبياتهم ، وتتعاقد الدولة الإسلامية مع أتباع الأديان الأخرى تعاقدًا أساسه النصر للمظلوم ، والنصح والبر ، وحرمة الأوطان المشتركة ، وحرمة من يدخل في الميثاق ويقبل جواره ، على أن تصان عقائد المتعاقدين وشعائهم وحريتهم في الدعوة لدينهم مهما تباينت هذه الأديان (٢) .

لقد كان الرسول في المؤاخاة يربى أرواح أتباعه وعواطفهم ويسمو بمشاعرهم ، ولكنه هنا ينظم المجتمع الإسلامى ، فيلاحظ من فيه من غير المسلمين ، ويضع لهم وللمسلمين هذه المرة القواعد والقوانين والدستور الذى يلزم أن يتبعه الجميع ، كانت المؤاخاة فلسفة روحية عالية عميقة ، وجاءت هذه الوثيقة قانونًا محددًا ، ينظم الروابط بين المسلمين بعضهم البعض الآخر . والروابط بينهم وبين غير المسلمين ، وقد شملت هذه الروابط الناحية القضائية والمالية ، والقصاص ، وحرية الأديان ، والتعاون الأحراب وغير ذلك مما يكفل لهذا المجتمع الجديد نجاحًا ، ويضع أمامه «أيهديه السبيل» .

(١) ابن هشام ج ٢ ص ١٦ — ١٩ .

(٢) عبد الرحمن عزام : الرسالة الخالدة ص ٨٨ .

رابعاً : الثُورَى (٭)

وضع الرسول صلوات الله عليه في ذلك العهد المبكر أسس الحكم في المجتمع الاسلامى في مختلف الشئون ، والدعامة الرئيسية لهذه الأسس هى اتباع النص الصريح إذا وُجِدَ ، فإذا لم يوجد فالثورى والاجتهاد .

ومن المعروف أن الاسلام عتّى عناية كاملة بأمر الدين والدنيا ، فهو عقيدة وهو في نفس الوقت نظام ، فكما دعا الاسلام للإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وضع كذلك نظاماً مفصّلاً أو قابلة للتفصيل عن مشكلات الأسرة كالزواج والطلاق والميراث ، وعن مشكلات المجتمع الاسلامى كالتعاون والقضاء وفرض المنازعات والمساواة ، وعن مشكلات المجتمع العالمى كالحروب والمعاهدات .

وان الرسول صلى الله عليه وسلم هو زعيم المجتمع الاسلامى الأول ، وكانت في يده السلطة الدينية والسلطة الزمنية ، وهو باسم السلطة الدينية كان يطقى التشريع من الله ويفسره إن احتاج الى تفسير ، ويفصله إن احتاج الى تفصيل ، وباسم السلطة الزمنية كان ينفذ هذا التشريع ، ويقود المجتمع في ظله الى الغاية الحميدة في الدنيا والآخرة .

وكانت آيات القرآن الكريم التى نزلت في مكة تقتصر تقريباً على أصول الدين والدعوة الى هذه الأصول . كالإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر ، والأمر بمكارم الأخلاق والنهى عن مساوئها ، أما في المدينة فقد شملت آيات القرآن جميع الأمور المدنية كالبيع والإجارة والربا ، والأموال الجنائية كالقتل والسرقة ، والأحوال الشخصية كالزواج والطلاق والميراث .

(٭) للاطلاع على بحث علمى كامل عن التنظيم السياسى في الاسلام ندعو القارىء للرجوع الى كتاب « السياسة في الفكر الاسلامى » للمؤلف .

(م ٥ — المجتمع الاسلامى)

وبذلك استطاع الرسول في المدينة أن يمدد المجتمع الجديد بالأفكار الإسلامية التي توَّجَّهه وهو يسير .

ومن الملاحظ أن التشريع في القرآن لم يأت دفعة واحدة ، وألا كان انتقالاً ضخماً لم يتعوده القوم وربما نفروا منه ، بل جاء التشريع متتالياً ، وتبع حاجات الناس ، فقد كان الرسول يسأل عن أشياء أو تحدث أمامه حادثة تحتاج إلى فتيا ، فكان ينتظر أن يوحى إليه بالجواب ، وكثيراً ما ورد الجواب مرتبطاً بالسؤال الذي وجه للرسول كقوله تعالى :

— يسألونك عن الخمر والميسر ، قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما (١) .

— يسألونك عن اليتامى ، قل إصلاح لهم خير (٢) .

— يسألونك عن المحيض ، قل هو أذى (٣) .

— يسألونك ماذا أحل لهم ، قل أحل لكم الطيبات (٤) .

وأحياناً كان يجيء الجواب غير مرتبط بصيغة السؤال وذلك هو الغالب ، ومن أمثلة ذلك أن رجلاً من غطفان كان عنده مال كثير لابن أخ له يتيم ، فلما بلغ اليتيم الرشد طلب المال فمنععه عمه ، فترافعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فنزل قوله تعالى « وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم » (٥) .

وفي بعض الأحوال كان الرسول لا يتلقى جواباً من الله ، وكان ذلك يعتبر إيداعاً من الله بالاجتهاد لمحاولة إيجاد حل لهذه المسألة ، فكان الرسول

(١) سورة البقرة : الآية ٢١٩ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٢٠ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٢٢٢ .

(٤) سورة المائدة : الآية ٤ .

(٥) سورة النساء : الآية ٦ .

يجمع (المصاحبي أصحابه) * ونحذف الروايات التاريخية، لأنه شأن يكفى عن استشارة فهم حتى قال أبو هريرة « ما رأيت أحداً قط كان أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم » وكان أبو بكر وعمر في مقدمة الصحابة الذين كان الرسول يعتمد عليهم ، وقد روى عنه أنه قال لهما « وأيم الله لو اتفقتما على أمر ما خالفكما فيه أبداً » ، وفي ضوء اجتهاده واستشارته كان الرسول يصدر قضاءه في المسائل التي لم ينزل فيها قرآن ، مثل صافه التوفيق في قضائه كان بها ، وإن أخطاه التوفيق إلى الوحي مثلاً ، وحينئذ يدرج الرسول ما قضى به على حالة تقديراً لغير الاجتهاد ، ويتبع القرآن فيما يجيب من أحداث تنطبق عليها الآية الجديدة ، فلا يمان للآية أثر يجزى ، وبما ورد فيه قرآن يخالف لما قضى الرسول به مسألة أسرى قزوة بدر ، فقد روى أنه عليه السلام أتى يوم بدر بسبعين أسيراً فيوم الديار وعقيل بن أبي طالب وكانوا يطعمون أن يقدوا أنفسهم بالمال ، فاستشار الرسول أصحابه فقال أبو بكر : قومك وأهلك ، استبقهم لحل الله يتوب عليهم ، وخذ منهم فدية تقوى بها أصحابك . وقال عمر : أضرب أعناقهم فانهم أئمة الكفر وإن الله أغناك عن الفداء . وقال أغلب الصحابة إلى رأى أبى بكر فقضى به الرسول ، ولكن سرعان ما نزلت الآية الكريمة : « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة » (١) . فقررت هذه الآية أن شرط الفداء هو سيادة الاسلام وقوة جانبه وأنكمال الكفر وضعف سلطانه . واسم يكن إلا أن قد وصل إلى مكانة المدونة والسيطرة بالقياس إلى الكفر في ذلك الحين ، ولذلك كان إذلال الكفار وإخضاع المحاربين أرجح أن يقر القرآن من قبول الفداء .

(١) سورة الأنفال : الآية ٦٧ .

ومن ذلك أيضا ما نزل في غزوة تبوك ، إذ استأذن بعض الناس في المتخلف عن الغزو مع الرسول واستجاب لهم الرسول قبل أن يتحصري حقيقة نواياهم ، فنزل قوله تعالى « عفا الله عنك ، لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين » (١) •

على أن ما صححه القرآن للرسول كان قليلا ، أما الغالب فإن رأى الرسول الناتج عن تفكيره واستشارته لأصحابه كان هو الأساس لسير الأمور •

وهناك أمران هاما يتصلان بالتشريع في هذه الفترة وعلاقته بالقرآن الكريم وهذان الأمران هما :

١ - القرآن وإن كان أساس الشريعة وأصلها الأول ، جاءت دلالاته على الأحكام التشريعية الفقهية في كثير من الأمور على نحو كلى لا جزئى ، فالصلاة والزكاة لم يرد لهما تفصيل في القرآن ، ومن ثم نشأت الحاجة للرسول وإلى الأحاديث لتبيين ما أبهم ، وتفصيل ما أجمل ، قال تعالى « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » (٢) •

على أن الرسول لم يفسر من القرآن إلا ما دعت إليه الحاجة في عهده ، وكان هذا من حكمة الله وهديه ، إذ أن الرسول لو فسر القرآن كله لفسره ملائما لروح العهد والبيئة التي كان فيها ، ولقيت هذا التفسير الصادر عن الرسول ، ولكن الرسول ترك ما لم تدع حاجة ماسة لتفسيره ليفسره العلماء عندما تدعو لذلك الحاجة ، ملائمين بينه وبين الأزمنة التي يعيشون فيها ، والظروف التي تحيط بهم في حدود المعانى الكلية لروح الاسلام ، وعلى ألا يختلف التفسير الجديد مع ما سبق فيه شرح أو إجماع •

وكان أصحاب رسول الله يدركون عدم رغبته في تفسير ما لم تدع له الحاجة ، ولذلك ما كانوا يسألونه إلا عند الضرورة ، روى عن ابن عباس

(١) سورة التوبة : آية ٤٣ •

(٢) سورة النحل : آية ٤ •

... قال : ما رأيتم ؛ وما قط كانوا خيرا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما كانوا يسألونه إلا عما ينفعهم ، وكان عمر بن الخطاب يلعن من سأل عما لم يكن •

٢ — نصوص القرآن كلها قطعية الثبوت ، لا ريب في صحتها لوصلها إلينا بطريق التواتر ولقوله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » (١) إلا أن دلالة هذه النصيرص على الأحكام ليست قطعية دائما ، بل قد تكون قطعية إذا لم يحتفل النص الا تفسيرا واحدا كأكثر آيات الموازيث وآيات الحدود ، وقد تكون دلالة النص ظنية لا يقطع بها ، لاحتماله أكثر من تفسير بسبب ما اشتمل عليه من لفظ عام أو مشترك مطلق ، ومثل ذلك قوله تعالى : « حرمت عليكم الميتة » (٢) • فان افظ الميتة عام يشمل ميتة البروميتة البحر ، فهل المراد ذلك كله ؟ أو المراد ميتة أحدهما فقط ؟ ومن هنا كانت دلالة النص ظنية فجاءت السنة وحددت الحلال والحرام بقول الرسول عن البحر « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » •

فأنت ترى بيسر ووضوح أن هذا المجتمع كان يسير على هدى القرآن والحديث وهدى الشورى التى كان الرسول يركن إليها ويسأل أصحابه رأيهم ويستفيد بأفكارهم عندما لا يوجد نص قرآنى يعتمد عليه ، وكان ذلك عملا بقوله تعالى : « وشاورهم فى الأمر » (٣) وقوله : « والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم » (٤) •

وفى حدود الدستور الذى كانت تلك مراجعه نعم هذا المجتمع بأسعد حياة •

(١) سورة الحجر : الآية التاسعة .

(٢) سورة المائدة : آية الثالثة .

(٣) سورة آل عمران : آية ١٥٩ .

(٤) سورة الشورى : الآية ٣٨ .

خامساً - وضع أسس النظام الاقتصادي للإسلام *

في هذه الفترة وضعت الأسس الاقتصادية للإسلام ، هذه الأسس التي ترمى الى أن تخلق بين المسلمين جوا من الحب والتعاون والائثار ، ووسيلتها لذلك تحقيق العدالة الاجتماعية ، بحيث لا يوجد جائح يعيق بجوار متخم ، وعار يرى الآخر وهو يرفل في الحرير والدياج .

والإسلام لا يحارب الغنى ، ولا يحاول أن ينتقص من ثروة الأغنياء ، مادام الأغنياء قد حصلوا على المال بطريق مشروع وأدّوا حق الله فيه .
ويسمح الإسلام أن يؤخذ عند الضرورة من مال الغنى ما يكفي بحاجة الفقير أو بحاجة الدولة ، وفي ظل التفكير الاسلامي الاقتصادي طالما اختفى الفقر ، وتجمعت ثروات طائلة للأغنياء ، حتى كان الغنى يبحث عن يتسلم منه الزكاة فلا يكاد يجده .

والإسلام في سياسة المال فلسفة خاصة ليست بالرأسمالية ولا بالشيوعية ولا بالاشتراكية الأوروبية ، وهاك ملامح هذه الفاسفة .

١ - مبدأ الملكية الفردية :

يقرّ الإسلام حق الملكية الفردية للمال الذي حصل عليه المسلم بالطرق المشروعة ، وقد نسب القرآن الأموال للناس في الآية الكريمة « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » (١) وكذلك في قوله « الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار » (٢) . ويقرّ الإسلام كذلك التفاوت في الغنى بقدر الجهد الذي يبذله كل مسلم ، وبقدر التوفيق الذي يصادفه ، وقد ورد القرآن

(*) عن الاقتصاد في الإسلام يراجع القارئ ما كتبه المؤلف بكتابه :
الاقتصاد في الفكر الاسلامي .

(١) سورة التغابن : الآية ١٥ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٧٤ .

الكريم مقررا هذا التفاوت ، قال تعالى « والله فضل بعضكم على بعض في الرزق » (١) وقال « نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ، ورنعنا بعضهم فزق بعض درجات » (٢) .

وعلى هذا فالاسلام يجيز الملكية الفردية ، ويشمل ذلك ملكية الأراضى الزراعية ، كما يشمل ملكية المتاجر والمصانع ، ويحرس الاسلام هذه الملكية وينقلها الى ورثة المالك عن طريق نظام الميراث في الاسلام ، ولا يجيز الاسلام للحكومة التدخل في هذه الملكيات الا اذا تعارضت مع الصالح العام ، ويكون تدخل الحكومة حينئذ بالتوفيق بين حق الملكية الفردية الذى أقره الاسلام ، وبين المصلحة العامة التى هى أيضا أساس من أسس التشريع الاسلامى .

ولا نزاع أن التفاوت في الثراء طبيعى جدا ، لأن الناس متفاوتون فيما هو أفضل من الثراء وأنفس منه ، إنهم متفاوتون في الصحة ، والقوى العقلية ، والزكاء ومتفاوتون في الجمال ، واللون ، والصوت ، ومتفاوتون في مقدار توفيقهم في الزواج أو الجوار أو الصحبة ، ومتفاوتون في مدى صلاح الأولاد ونجاحهم ، ولم يقل أحد بوجوب محاربة هذا التفاوت وضرورة أن يصبح الناس سواسية في صحتهم وعقولهم وأولادهم عددا ونوعا وتوفيقا .. وغير ذلك ، فالنهج الاسلامى في إباحة التفاوت في الغنى نهج طبيعى واضح .

٢ — مكانة المال :

بماذا يفضل المسلم المسلم ؟ وهل للمال نصيب في رفع شخص عن آخر درجة في التقدير والاحترام ؟

الجواب لا ، والرسول صلى الله عليه وسلم خير مثل لذلك الموضوع ، لقد عاش فقيرا ومات مدينا ، ومع هذا نال في حياته وبعد موته أسمى

(١) سورة النحل : الآية ٧١ .

(٢) سورة الزخرف : الآية ٣٢ .

درجة من الاجلال والتعظيم ، وقد ورد في الحديث (إن الله لا ينظر الى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم) وحددت الآية الكريمة مكان التفضيل بين المسلمين : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (١) فالله سبحانه وتعالى صوّر للمسلمين أكرمهم وأعظمهم درجة ، بأنه أتقاهم وأكثرهم صلة بالله وبعداً عن نواهيه .

وروى مسلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم سأل أصحابه يوماً أنذرون منّ المفلّس ؟ قالوا : المفلّس فينا من لا درهم له ولا متاع . فقال : المفلّس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وزكاة وصيام ، ويأتى وقد شتم هذا ، وقتل هذا ، وسفك دم هذا ، وذبح هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه ، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح في النار .

ذلك هو المفلّس في الاسلام مهما كان ماله ، والغنى في الاسلام هو الغنى في خلقه ، الغنى في عمله ، الغنى في تقواه ، عن أسامة بن شريك قال : كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ جاءه أناس فسألوه : من أحسن عباد الله الى الله تعالى ؟ فأجاب : أحسنهم خاقاً (٢) . وفي رواية ابن حبان أنهم سألوا : ما خير ما أعطى الإنسان ؟ فأجاب : خلق حسن .

ونسوق الآن آيتين كريمتين قارنتا بوضوح بين المال وسواه ، وبيننا مكانة المال ، يقول الله تعالى « زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ ، وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ ، وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ، ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الْمَآبِ » (٣) . فالمال بصنوفه متاع الحياة الدنيا لمن تغرهم الحياة الدنيا ، أما عند الله

(١) سورة الحجرات : الآية ١٣ .

(٢) رواه الطبراني .

(٣) سورة آل عمران : الآية ١٤ .

١- المال الصالح هو الذي يبذل بحسن المآب ، ويقول تعالى : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا » (١) .

هذه هي مكانة المال في الاسلام ، على أن المال إذا أحسن صاحبه التصرف فيه ، ونفع به ، يقوده الى أعظم الجزاء ، قال عليه السلام « السخى قريب من الله ، قريب من الناس ، قريب من الجنة ، والبخل بعيد من الله بعيد من الناس ، بعيد من الجنة ، قريب من النار ، ولجأه سخي أحب إلى الله تعالى من عابد بخل » (٢) .

٢- التقريب في المظهر بين التفاوتين في الغنى :

هذه فكرة اسلامية نبيلة للغاية ، فالاسلام مع اهتمامه بالتقريب في المستوى المادى بين المسلمين على ما سيأتى ، يهتم أيضا بالتقريب بين الغنى والفقير في المظهر ، ويكره الاسلام وجود التفاوت الضخم في اللباس والمتاع ، لأن ذلك ربما خلق نوعا من السخط أو الحسد قليلا كان أو كثيرا .

وطريقة التقريب التي يقترحها الاسلام رائعة ، يجب أن يشترك للوصول إليها الغنى والفقير جميعاً ؛ فَيُحَرِّمُ على الغنى الترف ، وقد نسب الله للمترفين السبق في مجاهدة الرسل والكفر برسالاتهم ، قال تعالى « وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون » (٣) ونسب لهم أنهم قادة الشر ورواد الضلال : « ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأصلحنا السيئلا » (٤) وذكر سبحانه أن الترف والمتاع يفسدان الذكر ويقودان للبوار والخسران : « سبحانه ما كان

(١) سورة الكهف : الآية ٤٦ .

(٢) رواه الترمذى .

(٣) سورة سبا : الآية ٤٣ .

(٤) سورة الاحزاب : الآية ٦٧ .

ينبغي لنا أن نتخذ من ذنوبك من أولياء ، ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر ، وكانوا قوماً بوراً » (١) والمترفون هم الذين يستجيبون لداعى الفسوق بيسر وسهولة : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ، فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » (٢) والمراد بقوله تعالى : أمرنا مترفيها ، هو : أكثرنا مترفيها ، وليس المراد بقوله تعالى أردنا أن نهلك .. معنى الارادة الذى يتبادر للذهن من الرغبة فى عمل الشيء والتهيئة له والاجبار عليه ، وإنما المقصود تهيئة الأسباب والمسببات ، فطبيعة المترفين ستؤدى للفسق ، والفسق سيؤدى للخراب والدمار (٣) .

ومن أحاديث الرسول ما يؤيد تحريم الترف واستهجانه ، فقد روى أبو داود « تكون إبل للشياطين وبيوت للشياطين ، فأما إبل الشيطان فقد رأيتها ، يخرج أحدكم بنجيات معه قد أسمنها ويمر بأخيه قد انقطع فلا يجمله ، أما بيوت الشياطين فلا أراها إلا هذه الأقفاص التى تستر الناس بالديباج » ويحذر الرسول من السرف والخيلاء فى قوله « كل ما شئت والبس ما شئت ما خطأك اثنتان : سرك ومخيلة » (٤) .

وحرم الاسلام على الرجال لبس الحرير والتزين بالذهب ، كما حرم استعمال آنية الذهب والفضة فقد روى حذيفة « لا تلبسوا الحرير ولا الديباج ، ولا تشربوا فى آنية الذهب والفضة فانها لهم فى الدنيا ولكم فى الآخرة » أما النساء فيجوز لهن لبس الحرير والتزين بالذهب لأن ذلك يناسب المرأة لضرورة أن تبدو لزوجها فى مظهر حسن ، ثم لأن الرجال أكثر اختلاطاً بالحياة العامة ، فالترف معهم يؤذى الفقير ويؤله ، بخلاف المرأة لأن اختلاطها بالحياة العامة محدود جداً عن اختلاط الرجال .

ويجب أن يكون واضحاً أن تحريم الترف ليس معناه الشنط

(١) سورة الفرقان : الآية ١٨ .

(٢) سورة الاسراء : الآية ١٦ .

(٣) اقرأ الكشاف ج ٢ : ص ٣٣٥ .

(٤) رواه الترمذى .

والتقشف ، فالاسلام لا يعرف هذه الخشونة المصطنعة • ويهتف بالمسلم : « وأما بنعمة ربك فحدث » (١) ويقول تعالى في آية أخرى « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » (٢) وقد نهى الاسلام عن البخل والتقتير ، قال تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبذرها على كل البسط فتتعد ملوماً محسوراً » (٣) وروى أبو الأحوص الجشسى عن أبيه قال : رأى النبی صلى الله عليه وسلم وعلى أطمار فقال : هل لك من مال ؟ قلت : نعم • قال : من أى المال ؟ قلت : من كل • قد آتاني الله من الشاة والإبل • قال : إذا آتاك الله مالا فليزأثر نعمته عليك • فالرسول يرى أن عدم إظهار النعمة إنما هو ضرب من إنكار فضل الله وعطاؤه • وروى جابر أن الرسول رأى رجلاً أشعث قد تفرق شعره فقال : أما كان يجد هذا ما يسكن به رأسه ؟ ورأى رجلاً عليه ثياب وسخة فقال : أما كان يجد هذا ما يغسل به ثوبه ؟

انتهيناً الآن من إيضاح النصيب الذى يُلزِمُ الشرعُ الغنى أن يَسْتَهْمَ به للتقريب بين مظهره وبين مظهر الفقير ، وهذا النصيب هو ترك الترف مع عدم الوصول إلى الشطف والتقشف والخشونة ، أما النصيب الذى على الفقير أن يؤديه فهو أن يرتفع بمستوى مظهره حتى تضيق الهوة بينه وبين الغنى • وطريقة ذلك أن يتبع تعاليم الاسلام التى تحث الفقير على العمل والسعى فى طلب الرزق بإخلاص ومثابرة ونشاط ، قال تعالى : « فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » (٤) وقال : « فإذا قُضِيَتِ الصلوة فانتشروا فى الأرض وابتنوا من فضل الله » (٥) وقد وردت لأحاديث كثيرة فى هذا الشأن ، فقد روى الترمذى أنه صلى الله عليه وسلم قال : « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده »

(١) سورة الضحى : الآية ١١ •

(٢) سورة الأعراف : الآية ٣٢ •

(٣) سورة الاسراء : الآية ٢٩ •

(٤) سورة الملك : الآية ١٥ •

(٥) سورة الجمعة : الآية العاشرة •

وسوءى الله سبحانه وتعالى بين العامل المكافح وبين المجاهد في سبيل الله تعالى : « وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله ، وآخرون يقاتلون في سبيل الله » (١) وروى أن الرسول كان جالسا يوما مع أصحابه ، فرأوا شابا ذا جلد وقوة قد بكر يسعى ، فقال أحد الجالسين : ويح هذا ، لو كان شبابه وجلده في سبيل الله . فقال عليه السلام : « لا تقولوا هذا فإنه إن كان يسعى على نفسه ليكفها عن المسألة ، ويغنيها عن الناس ، فهو في سبيل الله ، وإن كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف ليغنيهم ويكفيهم فهو في سبيل الله » بل إن الاسلام جعل منزلة العمل أسمى من منزلة الانقطاع للعبادة ، فقد روى أن قوما قدموا على النبي عليه السلام فقالوا « إن فلانا يصوم النهار ويقوم الليل ، ويكثر الذكر فقال : أئكم يننى طعامه وشرابه ؟ فقالوا : كلنا . قال : كلكم خير منه . ويروى أن عمر بن الخطاب نظر الى رجل مظهر للنسك متماوت فحقيقه بالدرة وقال : لا تثمت علينا ديننا أمتك الله (٢) .

وهناك حديث شريف يرقى بكسب العبد الى ارقى الدرجات ، حتى أنه يغرى بالعمل ، ويجعل النفس تتوق اليه وهو قوله عليه السلام « أحل ما أكل العبد كسب يد الصانع إذا نصح » .

وكان عمر بن الخطاب اذا رأى غلاما فأعجبه سأل : هل له حرفة ؟ فإن قيل : لا قال : سقط من عيني (٣) .

فإذا عمل الفقير وكسب ما يسد به حاجته ، فإن عليه بعد هذا أن يحسن مظهره وبخاصة في المجتمعات التي ستجعله مع الفنى : « خذوا زينتكم عند كل مسجد » (٤) . وينزل الفنى درجة تبعده عن الترف ،

(١) سورة الزمل : الآية ٢٠ .

(٢) المبرد : الكامل ج ٢ : ص ٥١٠ .

(٣) ابن الجوزى : مناقب عمر .

(٤) سورة الاعراف : الآية ٣٠ .

وصعود الفقير درجة بكسبه وأخذه زينته ، يتحقق هدف الاسلام السامى من التقريب بين الفنى والفقير فى مظهريهما ، كما يتضح اتجاه الاسلام فى تعظيم العمل ، والحث عليه ، وبيان فضله وأنه يعدّ عبادة من العبادات •

٤ — المال مال الله :

يقر الاسلام حق الملكية الفردية كما سبق القول ، ولكن المقصود من هذا التعبير هو ملكية الفرد بالنسبة للأفراد الآخرين ، أو قل إنه سَكَنِيَّة الظاهر أو ملكية الانتفاع ، أما المالك الحقيقى لكل شىء فهو الله سبحانه وتعالى : « والله ملك السموات والأرض وما بينهما » (١) • « لله ملك السموات والأرض وما فيهن » (٢) والمالك الأعظم الذى « لم يكن له شريك فى الملك » (٣) مَنَحَ حق الانتفاع أو مَنَحَ الملكية الظاهرية التى نسميها الملكية الفردية الى بعض خلقه ، قال تعالى :

- هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها (٤) •
- ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة (٥) •
- وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه (٦) •
- وأنفقوا مما جعلناكم مستخلفين فيه (٧) •
- وآتوهم من مال الله الذى آتاكم (٨) •

وهناك آية أخرى تدل على أن الله خلق الكل للكل : قال تعالى :

-
- (١) سورة المائدة : الآية ١٧ •
 - (٢) سورة المائدة : الآية ١٢٠ •
 - (٣) سورة الاسراء : الآية ١١١ •
 - (٤) سورة هود : الآية ٦١ •
 - (٥) سورة لقمان : الآية ٢٠ •
 - (٦) سورة الجاثية : الآية ١٣ •
 - (٧) سورة الحديد : الآية ٧ •
 - (٨) سورة النور : الآية ٣٣ •

« وجعل فيها رواسي من فوقها ، وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين » (١) فان الآية تدل على أن الرزق قدّر في الأرض لكل سكان الأرض ، وكلمة «سواء» تفيد الشمول للخلق جميعاً ، دون أن يختص بالرزق أحد على أحد . وكلمة « للسائلين » تعني الساعين للرزق ، الطالبين له ، المجتئين من فضل الله .

ويروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : يا ابن آدم ، نقول : مالي مالي ، ومالك من مالك إلا ما أكلت فأفئيت ، أو لبست فأبأيت ، أو أعطيت فأمضيت (٢) .

وقد سبق القول ان الاسلام يحرس الملكية الفردية ، ومعنى هذا أنه ليس لإنسان أن يعتدي على ما استخلف الله فيه شخصاً آخر ، أو أن يعمّره هو مادام الله وكل عمرانه لشخص آخر ، وينسى كثير من الناس هذه الحقيقة وهي أن المال عارية مستردة فيطغون به « إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى » (٣) . وتشتط طبيعة النسيان والجحود في بعض الناس فيتباهون بما في أيديهم ، ويعتقدون أنه مالهم كسبوه بخبرتهم ومواهبتهم ، وتكون عاقبة هؤلاء أن يسترد الله منهم ما آتاهم ، وربما مسهم هم الضرر مع زوال المال نتيجة لما اقترفوه من الجحود والكفران ، وقد ورد في القرآن الكريم أمثلة كثيرة لذلك ، ونحن نورد منها: مثالين لا يحتاجان الى تعليق ، قال تعالى :

« وأضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا ، وكلتا الجنتين آتت أكلها وإن تظلم منه شيئا ، وفجرنا خلأهما نهرا ، وكان له ثمر ، فقال لصاحبه وهو يحاوره : أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا ، ودخل جنته وهو ظالم لنفسه ، قال : ما أظن أن

(١) سورة فصلت : الآية ١٠ .

(٢) البيرد : الكمال ج ١ : ص ٣٢٩ .

(٣) سورة الطلق الآيتان : ٦ — ٧ .

تبيّن هذه أبداً ، وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ، ويقول يا ليتني لم أشرك بربى أحداً ، ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله ، وما كان منتصراً » (١) ويختم الله سبحانه وتعالى هذه القصة بقوله « هنالك الولاية لله الحق ، هو خير ثواباً وخير عقبي » ومعنى الولاية النصر والعون ، وقرأ حمزة والكسائي الولاية بكسر الواو ومعناها الملك والسلطان فالملك والسلطان في مثل هذه الظروف يظهران للعيان أنهما لله الحق وحده جل جلاله ،

أما المثال الثاني فيرتبط بقارون وثروة قارون التي هي حتى الآن مضرب المثل في الضخامة ، والتي أزالها الله وأزاله معها في لمح البصر ، قال تعالى « إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم ، وآتيناهم من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ، إذ قال له قومه : لا تفرح ، إن الله لا يحب الفرحين ، وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين ، قال : إنما أوتيته على علم عندي . أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ، ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ، فخرج على قومه في زينته ، قال الذين يريدون الحياة الدنيا ، يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم ، وقال الذين أوتوا العلم : ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون فخشعنا به وبداره الأرض ، فما كان من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين » (٢) .

ويقول صلى الله عليه وسلم « إن لله عند قوم نِعَمًا أقرها عندهم ما كانوا في حوائج الناس ، ما لم يملكوهم ، فان ملوهم نقلها الى غيرهم » .

ويترتب على هذه الحقيقة الهامة وهي أن المال مال الله استخلف فيه

(١) سورة الكهف : الآيات ٣٢ — ٣٣ .

(٢) سورة القصص : الآيات ٧٦ — ٧٧ .

البشر ، أن الانسان ليس مطلق التصرف فيما تحت يده ، أو في الذى نطلق عليه مجازا أنه ملكه ، ولو كان هذا الشيء ملكا خالصا للشخص لكان له أن يتصرف فيه على ما يَحب ، ولكنه في الحقيقة وكيل فيه ؛ ولذلك فهو يخضع في التصرف في هذا المال الى نظم معينة وضعها المالك الحقيقي سبحانه وتعالى ، وأهم هذه النظم ما يلي :

١ — لا يجوز له أن يكتزه بل لابد أن يطلقه للتعامل فينتفع به الصانع والعامل والزارع والتاجر ، فإذا كنزه استحق غضب الله عليه « والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكتزون » (١) •

٢ — لا يستعمله في رشوة فان استعمله في رشوة فقد عصى المالك واستحق غضبه : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدولوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون » (٢) وقال صلى الله عليه وسلم « الراشى والمرتشى في النار » •

٣ — لا يسرف في استعماله فإذا أسرف تعرض لقت الله وغضبه « ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » (٣) ، ومدح الله المعتدلين وذم المسرفين والمفترين في قوله « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » (٤) وجعل الله المسرف أخا للشيطان : « ولا تبذر تبذيرا ، ان المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا » (٥) •

(١) سورة التوبة : الآيتان ٣٤ — ٣٥ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٨٨ .

(٣) سورة الأنعام : الآية ١٤١ .

(٤) سورة الفرقان : الآية ٦٧ .

(٥) سورة الاسراء : الآيتان ٢٦ — ٢٧ .

٤ — لا يَسْتَعْمِلُ الْمَالُ فِي الْاِحْتِكَارِ وَانْتِهَازِ الْفُرْصِ وَإِلَّا تَعْرَضُ لِسُخْطِ اللَّهِ وَبَرِيءُ اللَّهِ مِنْهُ ، فَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ « مَنْ اِحْتَكَرَ طَعَامًا أَرْبَعِينَ يَوْمًا يَرِيدُ بِهِ الْغَلَاءَ فَقَدْ بَرِيءَ مِنَ اللَّهِ وَبَرِيءُ اللَّهِ مِنْهُ » وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَيْضًا « الْجَالِبُ مَرْزُوقٍ وَالْمَحْتَكِرُ مَلْعُونٌ » وَقَالَ « بئس العبد المحتكر ، إِنْ أَرْخَصَ اللَّهُ الْأَسْعَارَ حَزَنٌ ، وَإِنْ أَغْلَاهَا فَرَحٌ » .

وَمِنْ صُورِ الْاِحْتِكَارِ الَّتِي يَمْكُنُهَا الْإِسْلَامُ وَيَحَارِبُهَا بِعَنْفٍ نَوْعٍ كَثِيرٍ الْاِنْتِشَارُ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ ؛ فَهَذَا تَاجِرٌ مُبْتَدِئٌ افْتَتَحَ لَهُ حَافِتَا بَيْعٍ فِيهِ نَرْعَا مِنَ الْأَنْوَاعِ رَجَاءُ أَنْ يَرْبِحَ قُوَّتَهُ وَقُوَّةَ أَوْلَادِهِ ، وَلَكِنَّ الرُّأْسُمَالِيِّينَ لَا يَرِيدُونَ أَنْ يَفْتَحُوا الطَّرِيقَ لِلنَّاشِئِينَ ، وَحِينَئِذٍ يَطْلُنُ هَؤُلَاءِ الرُّأْسُمَالِيُّونَ حَرْبًا مَالِيَةً ضِدَّ هَذَا الْمُسْكِينِ ، فَيَعْمِدُونَ إِلَى الْأَصْنَافِ الَّتِي يَبِيعُهَا فَيُخَفِّضُونَ أَثْمَانَهَا بِقَدَرٍ بَارِزٍ ، وَيَقَعُ هَذَا الْمُسْكِينُ فِي حَيْرَةٍ ، فَمَنْ جَارَاهُمْ فِي خَفْضِ الْأَسْعَارِ جَرَّ عَلَى نَفْسِهِ الدَّمَارَ ، وَإِنْ بَقِيَ مُحْتَظًا بِأَسْعَارِهِ أَعْرَضَ عَنْهُ الْمُشْتَرُونَ فَلَحَقَهُ الْبَوَارُ ، وَلَا يَقْوَى هَذَا النَّاشِئُ عَلَى الْمَقَاوِمَةِ الطَّوِيلَةِ فَيَتْرَكَ لَهُمُ الْمَجَالَ ، وَيَذْهَبُ ضَحِيَّةً مِنْ ضَحَايَا طُغْيَانِ الرُّأْسُمَالِيَّةِ . وَمِثْلُ هَذَا التَّصَرُّفِ تَمَرُّدٌ عَلَى الْقَانُونِ الْإِسْلَامِيِّ الرَّشِيدِ .

٥ — لَا يَسْفَهُ فِي تَصْرِيفِ الْمَالِ ، فَإِنْ سَفَهَ فِي اسْتِعْمَالِ مَالِهِ حَجَرٌ عَلَيْهِ ، وَسَلَبٌ مِنْهُ حَقُّ التَّصَرُّفِ فِي ذَلِكَ الْمَالِ ، قَالَ الْفُقَهَاءُ : وَالْحَجَرُ يَكُونُ عَلَى الصَّبِيِّ وَالْمَجْنُونِ وَالسَّافِيهِ وَالْمُبْذِرِ لِمَالِهِ وَالْمُفْلِسِ الَّذِي ارْتَكَبَتْهُ الدِّيُونُ ، وَلِيُنَوِّبَ وَلِيُّ كُلٍّ عَنْهُ فِي التَّصَرُّفِ فِي الْمَالِ حَتَّى يَرْتُدَّ السَّافِيهِ أَوْ يَكْبُرَ الصَّغِيرَ ، وَقَدْ قَرَّرَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ أَخْذَ حَقِّ التَّصَرُّفِ مِنْ هَؤُلَاءِ وَمَنْحَهُ لِأَوْلِيَائِهِمْ قَالَ تَعَالَى « فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا (صَغِيرًا) أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْلِكَ هُوَ (أَيْ مَجْنُونًا) فَلْيَمْلِكْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ » (١) ،

(١) سُورَةُ الْبَقَرَةِ : الْآيَةُ ٢٨٢ .

ونظم الفقهاء الولاية فجعلوها للآب ، فالجد ، فالوصى ، ثم الحاكم لقوله عليه السلام « السلطان ولى من لا ولى له » (١) .

٦ — لا يستعمله في ربا : إذا تحقق المبدأ الرئيسى الذى نتكلم عنه وهو أن المال مال الله ، فلا يجوز أن يتخذ مخلوق من البشر وسيلة لتعذيب البشر ، ثم إن طريق الحصول على المال هو العمل ، أما أن يجلس المرابى ، ويربو ماله على حساب جهد المحتاج وعرقه ، فهو ما يحرمه الاسلام تحريما قاطعا ، ولا نظن ان المشرع الحكيم قسا فى شئ قسوته على المرابى قال تعالى « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ، ذلك بأنهم قالوا : إنما البيع مثل الربا . وأحل الله البيع وحرم الربا ، فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره الى الله ، ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » (٢) وقال « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين ، فإن لم تفعلوا فأذّنوا بحرب من الله ورسوله ، وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » (٣) ولا يقف جرم الربا على المرابى ، بل يدخل معه كاتبه وشاهده ودافعه . قال جابر « لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهده ، وقال : هم سواء » (٤) .

ولابد فى الحديث عن الربا أن نعطى بعض تفاصيل الأهمية ذلك الموضوع : ولعل أهم ما نبادر باثباته أن الأديان السماوية جميعا قد حرمت الربا ، فاليهودية حرمت الربا ، وعلى الرغم من ذلك اتخذ اليهود الربا صناعة مفضلة لهم ، وبرعوا فى الاتجار بالمال ، والمسيحية كذلك حرمت

(١) انظر باب الحجر فى كتب الفقه الكثرة .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٧٥ .

(٣) سورة البقرة : الايتان ٢٧٨ — ٢٧٩ .

(٤) رواه مسلم .

الربا وهاجمته وهاجمت المتبالمين به ، وليست الأديان السماوية قدما هي التي حرمت الربا ، بل إن المفكرين العاديين استطاعوا أن يدركوا ما في الربا من خطر على الفرد والمجتمع فقالوا بتحريمه ، ولعل أقدم من حرم الربا من المفكرين هم المصريون القدماء ، وفي العصر الحديث نجد كارل ماركس وهو الذى وضع الخطوط الرئيسية للمذهب الشيوعى يقول أيضا بتحريم الربا •

وإذا جاز لقوم أن يناقشوا حل الربا وحرمة فإن المسلمين بالذات لا يجوز لهم — فيما أعتقد — إلا أن يسلّموا بالنظرية القائلة بتحريمه ، وليس ذلك لأنهم مسلمون فحسب ، بل لأن الدول الإسلامية فى العصر الحديث قاست الواناً من الاستبداد ، والاستعمار والاستغلال ، وهذه كلها جاءت وليدة الربا ، فالاستعمار فى البلاد الإسلامية بدأ عن طريق المرابين من الأفراد والشركات الذين وفدوا إلى الشرق الإسلامى وأقرضوا الناس ، وأقرضوا الحكومات ، وبمرور الزمن تحكّم هؤلاء فى ثروات البلاد وأصبح الأفراد والحكومات مدينين لهم ، ثم كانت الخطوة التالية وهى تدخل الدول التى جاء منها هؤلاء المرابون لتحميهم هذه الدول وتحصى أموالهم ، وهكذا عانت مصر من صندوق الدين ألوانا من العذاب ، وعانت إندونيسيا من اللجنة الهولندية صنوفا من الضغط ، وعانت كل البلاد الإسلامية والشرقية نفس النتائج العصبية ، ومضى الزمن ، واشتد الاستعمار ، واستحكمت حلقاته ، وتحكّم فى مصير الدول الإسلامية ، وابتز أموالها ، وأوقف سيادتها ، وقضى على الحريات بها والدّين لا يزال ينمو وينمو ، حتى إن إندونيسيا بعد أن سلب الهولنديون ثروتها ومنتجاتها أكثر من ثلاثة قرون ، خرجت من الاستعمار وهى مدينة بمئات الملايين من الروبيات ديناً لا يرتكز على عدل أو قسطاس مما جعل الحكومة الإندونيسية تعلن فى الرابع من سبتمبر سنة ١٩٥٦ إلغاء هذه الديون الظالمة الجائرة •

ولماذا حرم الإسلام الربا ؟

حرم الإسلام الربا ليحارب جشع الغنى الذى يسعى ليزيد ماله من عرق الفقير ، إنها فى الحق قسوة عاتية أن يزداد مال الغنى على حساب المحتاج وعلى حساب الذى يستدين ليعالج ابنه أو أهله من مرض ، أو يرد عادية من عادات الزمن •

إن على الغنى أن يقرض الفقير قرضاً حسناً لا ربح فيه ، وأن ينتظره إلى ميسرة إن جاء أو أن السداد والمدين ذو عسرة ، بل فى هذه الحالة ينبغي أن يحط الغنى عن المدين بعض الدين أو كله عملاً بقوله « وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم » وعلى الفقير أن يجتهد فى تسديد دينه وميساعده الله على ذلك ما أخلص فى نيته ، فقد جاء فى الحديث الشريف « من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه » (١) وليحذر المدين المظلّ عند المقدرة على السداد فقد قال الرسول عليه السلام « مظل الغنى ظلم » (٢) فاذا تعذر على الفقير السداد سمّاه عنه من مال الزكاة من سهم الخارمين •

تلك هى فكرة الاسلام فيما يتعلق بالربا ولا نزاع فى أنها فكرة إنسانية رائعة ، إنها تتلخص فى مبدأ رائع ، هو أن الاسلام يكره أن ينال شخص السعادة على حساب شقاء الآخرين ، وربما غالى هذا المراسى فتمنى للناس الأزمات والضيق حتى يلجئوا إلى الاقتراض منه ، ومثل هذه الأمنية تمحق المجتمع ، وتقطع أوصاله ، وتقضى عليه •

• — مبدأ حق الفقير فى مال الغنى :

هذا المبدأ من أهم المبادئ فى التشريع الاسلامى ، ويهمنى أن نبورز هنا كلمة « حق » بمثلولها الكامل ، فالذى يأخذه الفقير أو تأخذ الدولة

(١) رواه النسبة

(٢) رواه البخارى •

من مال الغنى ليس منحة ، وليس عطاء ، وليس تفضلا ، ولكنه حق ، فاذا
نكص الغنى عن تسليم ذلك الحق ألزمه الحاكم بذلك وأرغمه عليه ، ولو
بالقوة والسلاح ، وقد روى عن أبى بكر قوله : والله لو منعونى
عقال بغير كانوا يعطونه لرسول الله لحاربتهم عليه •

وكلمة « حق » هذه وردت فى القرآن بهذا النص إبرازاً للمعنى الذى
شرحناه ، قال تعالى :

- وآت ذا القربى هقة والمسكين وابن السبيل (١) •
- وآتوا هقة يوم حصاده (٢) •
- وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم (٣) •

وكثير من الناس يظنون أن الزكاة هى الحق الوحيد الذى يجب فى
مال الغنى ، ويهمن أن نوضح قصور هذا الرأى ، ويهمن أن تذاق الحقيقة
فى هذا الموضوع بين الناس ليعرفوا التشريع الإسلامى على وجهه الأكمل ،
فالحقيقة أن فى مال الغنى نوعين من الحقوق هما :

(أ) حق محدد ، ثابت ، دائم ، هو الزكاة ؛ فهى مقادير محددة ،
فى وقت معين ، وتُدفع فى جميع الظروف ، وهذا الحق هو القدر الأدنى
فى مال الغنى •

(ب) حق غير محدد ، وغير ثابت ، وغير دائم ، وذلك القسم هام
جدا فى التفكير الإسلامى ، وهو غير محدد أى يزيد وينقص حسب الحاجة
وحسب مقدار الثروة ، وغير ثابت أى ليس له وقت معين بل يطلب عند

(١) سورة الاسراء : الآية ٢٦ .
(٢) سورة الانعام : الآية ١٤١ .
(٣) سورة الذاريات : الآية ١٩ .

الحاجة ، وغير دائم أى يدفع عند حاجة الناس أو الدولة ، ويستقط إذا لم توجد هذه الحاجة • ويمكن أن نسميه الانفاق الواجب للمصالح العام •
وستكلم بشيء من التفصيل عن كل من هذين النوعين :

١ — الزكاة :

الزكاة أحد أركان الاسلام الخمسة ، وهى ركن حافل بالثقافة الروحية ، ولقد طاف العالم برحلة طويلة منذ بدء البشرية حتى الآن ، وشهد العالم فى أثناء هذه الرحلة فيضا من الدماء وألوانا من الحروب التى تسببت عن المال بسبب التراحم عليه ، والتكالب لنيله ، وقد وصف الاسلام الدواء للبشرية منذ أربعة عشر قرنا ، ولكن كثيرين من الناس صمّثوا آذانهم ولم يعوا هذه الدعوة ، وهبت الحروب وأريقّت الدماء ، ثم وجد العالم أن لابد من أخذ قسط من مال الغنى ورده الى الفقير ، بل بالغت بعض التشريعات فأزالت الملكية تماما ، وحددت التوارث أو منعتة ، وجعلت الناس متساوين فيما يملكون ، والطريقان بعيدان عن الصواب ، فحصر الثروات فى أيدي قليلة شر لا يقره العقل ولا يقره الاسلام « كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » (١) ، والمساواة التامة بين الناس شيء يناقض الطبيعة ، فالطبيعة فاوتت بين الناس فى الصحة والذكاء والجمال والصوت وغيرها كما سبق القول ، فكيف ننسوى بين الناس ؟

والطبيعة تجعل الأبناء يرثون آباءهم فى كثير من صفاتهم أو فى كلها ، فكيف نحرم الأبناء من ميراث مال الآباء ؟

إن المنطق والعقل يريان أن السبيل الصحيح هو الطريق الوسط ، هو اتجاه الاسلام ، وتحقيق مبادئه الاقتصادية •

و « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » (٢) • وطبيعة الانسان الشح « قل : لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذا لأمسكنكم خشية الإنفاق ،

(١) سورة الحشر : الآية السابعة .

(٢) سورة الكهف الآية ٤٦ .

وكان الإنسان قتورا » (١) والإنسان يعمل لينمّي ماله في تجارة أو زراعة أو غيرهما ، ثم يقدم الزكاة من هذا المال العزيز الذى كدّ في جمعه وتنميته والذى هو زينة الحياة الدنيا على الرغم من طبيعته الشحيحة ، إنها رياضة روحية رائعة فرضها الاسلام ليسمو بالمسلمين عن دنيا المادة إلى صفاء الروح ، وليعلمهم الحياة الاجتماعية السمحة التى لا يشغل فيها الشخص بنفسه وآله ويدع من سواهم ، فالاسلام بالزكاة ينقل الانسان من الأنانية إلى الإيثار ، ومن الفردية الى دنيا الجماعة ، فيحس أنه فرد في هذا المجتمع ينتفع به وينفعه •

وقبل الاسلام كانت هناك ضرائب ، ولكنها كانت مفروضة على الفقير يدفعها للغنى ، يدفعها من عرقه وجهده ، فإن لم يكف العرق والجهد سجن فيها أو دفعها من دمه ، فجاء الاسلام وصحح الوضع ، فجعل الضريبة على الغنى يدفعها لصالح الفقير •

وشهد التاريخ ثورات شبت نتيجة الضغط والقسوة ، وكانت ثورات قامت بها الشعوب ضد الملوك ، ولا تزال نظائر لها تحدث في عهدنا الحاضر ، إذ يضيق الشعب بحاكمه الذى يأخذ الخير كله لنفسه ، فيهب في وجهه ، وتراق الدماء ، وتكثر الضحايا من الجانبين ، وهذه الكلمات تكتب وهناك في بعض البلاد دماء تسيل ، وأرواح ترهق من هذا النوع ، ولكن الاسلام شهد حربا من نوع آخر ، إنها حرب أشعلها الحاكم لمصلحة الشعب ، إنها تلك الحرب التى قادها أبو بكر وهو يهتف هتافه الذى أوردناه أنفا : « والله لو منعوني عقال بغير كانوا يعطونه لرسول الله لقاتلتهم عليه » ، ولم يتوقف أبو بكر حتى أخذ للفقراء حقهم من الأغنياء وأصحاب النفوذ •

وهكذا نجد الزكاة أداة تطهير روحانى بالغ الغاية ، وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك أبلغ تعبير ، قال تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم

وتتخير بها » (١) ، ووضع النظام الاسلامي أسس العدالة الاجتماعية في أسسها معانيها ، فجعل (المال ملكا للأمة ، تحفظه اليد المستحقة وتنميه ، ثم تنتفع به الأمة كلها ، يخرج من أحد جانبيها ويقع في الجانب الآخر ، فهو من هذا كذا ، ومن هذا كذا ، وما اليد المعطية واليد الآخذة إلا يدايان المؤسسة واحدة كاتحادها ، لا كالتفرقة ، ذلك الفردية ، ولا يخدم فيها ، ولا مستخدم ، إنما هما مفادان لاشيئية واحدة هي شخصية المجتمع الذي لا قوام له ولا دواء إلا بالاشياء التي يخدمها ويقتلها (٢) ويشترط القرطبي (٣) الزكاة بأنها مأخوذة من التركية أي التطهير ، فكان الخارج من المال يطهره من تبعة الحق الذي جعله الله فيه للمساكين .

وآيات الزكاة التي وردت ، في القرآن كثيرة ، وغالبا ما تترد مع الصلاة قال تعالى « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » (٤) . وقال « قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون » (٥) .

والأنواع التي تجب فيها الزكاة خمسة :

التقدي (الذهب والفضة) — عروض التجارة — السوائيم — الزروع — الثمار .

ويشترط لوجوب الزكاة في كل من هذه الأنواع أن يصل المال الى مقدار معين جعله الشارع دليلا على الغنى واليسار ، فإذا لم يصل المال الى هذا النصاب فلا زكاة واجبة فيه . ويشترط كذلك الحول والنماء ، وأن

(١) سورة التوبة : الآية ١٠٤ .

(٢) الاسلام عقيدة وشريعة للأستاذ الشيخ محمود شلتوت ، ص ٨٧ — ٨٨ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ج ١ ، ص ٣٤٣ .

(٤) سورة البقرة : الآية ٤٣ .

(٥) سورة المؤمنون : الآيات ١ — ٤ .

تكون الماشية سائمة ، وأن تبلغ الزروع حدّ قوتها ، وأن تطيب الثمار ويبدو صلاحها •

وأول نصاب الابل خمس وفيها شاة • فإذا بلغت عشرين ففيها شاتان •

وأول نصاب البقر ثلاثون وفيها تبيع أو ثمن ستة أشهر ، فإذا بلغ أربعين ففيها مسنة أو ثمن ستة •

وفي أربعين شاة إلى مائة وعشرين شاة ، فإذا بلغت مائة وإحدى وعشرين ففيها شاتان ، وفي مائتين وواحدة ثلاث شياه وفي أربع مائة أربع شياه ، ثم في كل مائة شاة •

وزكاة النقد وعروض التجارة ربع العشر •

وزكاة الزروع والثمار العشر إذا سقيت بالسيح أو الأمطار ، فإذا سقيت بالآلات فزكاتها نصف العشر •

وقد ذكرت ذلك لأدون ملاحظة مهمة هي أن زكاة الزروع والثمار أكثر جدا من زكاة سواها ، فهي العشر أو نصف العشر على الأقل ، ولكنها ربع العشر في النقد وعروض التجارة وأقل من ربع العشر في المسائمة ، ويبدو لي في الإجابة عن هذه الملاحظة أن الشارع كان أكثر اهتماما بالطعام منه بغيره ، وأن ظهور الزرع للفقير وطول بقائه في الحقل أمام عينه ، جعل الفقير أكثر طمعا في الزروع منه في غيرها من التجارة والنقد ، تلك التي لا يراها الفقير إلا لاما •

وهناك تعليل آخر هو أن زكاة الزروع والثمار هي زكاة في ثمرة ، أما رأس المال وهو الأرض الزراعية • فغير داخلية في التقدير الحسابي ، أما ما عدا الزروع والثمار من نقد أو تجارة أو سوائم ، فـرأس المال داخل في النصاب ، ويُدفع قدر الزكاة عن رأس المال ومن الربح جميعا •

وفي مجتمع المدينة كان عامل الزكاة يتولى جمعها وتقديمها للرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان الرسول يتولى توزيعها على مستحقيها الذين

ورد ذكرهم في الآية الكريمة « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل » (١) وكان توزيع الزكاة يتم بمجرد أن يتسلمها الرسول ، وقلما كان يبقى منها شيء يزيد عن حاجة المستحقين ، وحينئذ كان يحتفظ به الرسول حتى تحين الحاجة إليه ، ويروى المأوردى أن بعض الأبل والمائسة بقيت لدى الرسول مرة فمكئزها عن غيرها من أموال المسلمين بمراع خاصة بالبيع يعبرون عنها بالحمى ، كما وسمها الرسول بمسيم خاص حتى تميز عن سواها (٢) .

وقبل أن نترك الزكاة ينبغي أن ندون ملاحظتين هامتين :
أولاهما : حرص المسلمون على أن يؤدوا زكاة أموالهم إلى مستحقيها .
وثانيهما : عفة الفقراء من المسلمين ، فقد كانوا بين كاسب قوته بعمله ، وبين قانع بالكفاف يناله من الزكاة دون أن يطمع في المزيد .
وقد نتج عن هذين الاتجاهين أن أصبح المسلم في أيام الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز يحمل زكاته ويطوف بها فلا يجد من يأخذها منه (٣) .

وكثيرا ما أسهمت الزكاة في خلق فرص العمل للفقراء ، فمن الواضح أن من الزكاة ما يدفع للعاجز أو الضعيف حتى يحمل المجتمع ذلك العضو الذي هاض واضمحل ، ومن الزكاة ما يدفع للفقير القادر على العمل ليكون رأس مال له في تجارة ينميها أو زراعة أو صناعة يعرفها ، ولمثل هذا كانت الزكاة تدفع مرة أو أكثر حتى يستقيم أمره ويشهد عوده ، وكان

(١) سورة التوبة : الآية ٦ .

(٢) الأحكام السلطانية ص ١٧٦ ، وانرا « الاقتصاد في الفكر الإسلامي » للمؤلف .

(٣) تكتون عمر فروخ : عبقرية العرب في العلم والفلسفة ص ١٢٣ .

عمر بن الخطاب يحدث الرعاة أن يبتاعوا غنماً يهديهم من الزكاة لينتفعروا
ثروة يمشون بها ، وكان أكثرهم مستجيبون لعمر ويعملون بخصيخته .

(ب) الاتفاق الواجب للصالح العام :

تمر بالدولة أو بالأفراد ظروف خاصة ، أو أزمات و حرج ، وتستلزم
هذه الظروف وتلك الأزمات أن يسهم الأغنياء بنصيب آخر غير الزكاة من
مالهم لرد الخطر عن الدولة أو لإزالة الأزمة عن الفرد ، فالظروف
القاسية هنا ليست خاصة بالدولة فقط ولا بالفرد فقط ولكنها تشملهما
جميعاً ، وهي في حالة الدولة يتسأل عنها جميع الأغنياء في الدولة ، وفي
حالة الفرد تتسأل عنه الدولة ويسأل عنه من عرف ذلك من الأغنياء
كأقاربه وجيرانه .

ربما ظن البعض أن هذه الأفكار جديدة ، ولقول لهؤلاء : نعم إنها
جديدة من ناحية الإذاعة والإعلان عنها ، ولكنها ، ليست جديدة فيما
يختص بالتشريع الاسلامي ، بل إنها قديمة فيه ، وتجدت منذ العهد المبكر
للإسلام ، وطبقت في المجتمع الاسلامي الأول الذي نتحدث عنه ، والذي
كونه الرسول عليه السلام في المدينة .

والأدلة على هذا النوع من الإنفاق صريحة وواضحة في مصادر
التشريع الاسلامي ، يقول الله تعالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل
المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة
والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى ، والمساكين
وابن السبيل والمساكين ، وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة » (١) .
فمن الواضح أن الآية الكريمة ذكرت اعطاء المال لذوى القربى واليتامى
وغيرهم ، ثم عرجت فذكرت دفع الزكاة . ومن هنا يتضح أن الزكاة هي ،

(١) سورة البقرة : الآية ١٧٧ .

وأن اقشاة الملهوف وسد الخلة سئء آخر • ويقول الله تعالى : « ويسأؤنك ماذا ينفقون ؟ قل العفو » (١) • أى الفضل الذى يتبقى بعد حاجاتكم دون باؤغ الجهد ، وترتبط هذه الآية الكريمة بقصة رجل نال مرة بيضة من ذهب ، فجاء بها الى رسول الله وقال له : خذها منى صدقة للفقراء ، فأعرض عنه الرسول واستدار ، فدار الرجل حتى واجه الرسول مرة أخرى وأعاد قؤله ، فأعرض الرسول مرة أخرى ، فلما كرر الرجل هذا العرض أخذها الرسول منه وهو مغضب ، وقال : يأتى أأحدكم بماله كله يتصدق به ويجلس يتكفف الناس ، انما الصدقة عن ظهر غنى (٢) •

ويقول النسفى (٣) فى تفسير الآية السابقة ما نصه : « العفو معناه الفضل • أى أنفقوا ما فضل عن قدر الحاجة ، وكان التصدق بالفضل فى أول الاسلام فرضا ، فاذا كان الرجل صاحب زرع أمسك قوت سنة وتصدق بالفضل ، وإذا كان صانعا أمسك قوت يوم وتصدق بالفضل ، فنسخت آية الزكاة العفو » ونحن نوافق النسفى على أن آية الزكاة نسخت كون التصدق بالفضل فرضا دائما ، ففى الأحوال العادية تكفى الزكاة • أما فى الظروف الاستثنائية فيتحتم على القادرين أن يذهبوا من أموالهم بقدر ما يسد الحاجة •

وقد ورد فى حديث صحيح : « ما آمن بى رجل بات شعبان وجاره جائع الى جانبه وهو يعلم » وفى حديث آخر : « أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعا فقد برئت منهم ذمة الله » (٤) • وقد اتضح من الحديثين أن دفع الزكاة لم يشعف هؤلاء من مسئولية عدم دفع جديد زائد عن الزكاة

(١) سورة البقرة : الآية ٢٠٩ •

(٢) تفسير البيضاوى ج ١ ص ٤٦ •

(٣) تفسير النسفى ج ١ ص ٧٦ •

(٤) مسند أحمد •

إذا كانت الزكاة لم تكف لسدّ الحاجة • وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث صريح (١) « إن في المال حقا سوى الزكاة » •

ويقول ابن حزم الأندلسي (٢) : وفرض " على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقودوا بفقرائهم ، ويجبرهم السلطان على ذلك إن لم تنقّم الزكوات بهم ، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذي لا بد منه ، ومن اللباس الشتاء والصيف بمثل ذلك ، وبمسكن يكتفهم من المطر والشمس وعيون المارة • وبرهان ذلك « فأّت ذا القربى حته والمسكين وابن السبيل » (٣) •

ويقول ابن حزم الأندلسي في موضع آخر (٤) : ولا يعتبر المسلم مضطرا لأكل لحم الميتة أو لحم خنزير وهو يجد طعاما فيه فضل عند صاحبه المسلم أو الذمى ، لأن فرضا على صاحب الطعام اطعام الجائع فاذا كان ذلك فليس بمضطر الى الميتة ولا الى لحم الخنزير ، وله أن يقاتل عن ذلك ، فان قُتِلَ فعلى قاتله القود ، وان قُتِلَ المانعُ فيألى لعنة الله ، لأنه منع حقا ، وهو طائفة باغية ، قال تعالى « فان بغت احدهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تنفى إلى أمر الله » (٥) ، ومانع الحق باغ على أخيه الذي له الحق •

ويقول ابن تيمية (٦) : إذا قُدّر أن قوما اضطروا الى سكنى في بيت إنسان إذ لم يجدوا مكانا يأوون إليه الا ذلك البيت فعليه أن يسكنهم ، وكذلك لو احتاجوا الى أن يعيرهم ثيابا يستدفئون بها أو الى آلات يطبخون بها أو يبنون أو يسقون ، فانه يجب أن يبذل صاحبها هذا مجانا إذا كان مستغنيا عن تلك المنفعة وعن عوضها •

(١) رواه الترمذى •

(٢) المحلى ج ٦ ص ١٥٦ •

(٣) سورة الروم : الآية ٣٨ •

(٤) ص ١٥٩ من الجزء السادس سالف الذكر •

(٥) سورة الحجرات الآية التاسعة •

(٦) السيرة في الاسلام ص ٣٧ — ٣٨ •

وروح الدعوة الحميدية واضحة في أن الزكاة وحدها لا تجبرى أموال المسلمين من حقوق المحتاجين فيها ، ، فما دام هناك محل للبر والصدقة فهي واجبة ، وحق المسلم على المسلم لا ينتهي بأداء الزكاة ؛ فيجب إذاً أن نستلهم من شريعة الهدى ، وأن نستوحى من روح الدعوة الحميدية نظاماً للبر تقوم عليه الدولة ، لنؤازر بين الثروات والحاجات ، ونقيم التكامل الاجتماعى ، ونقضى على حرب الطبقات « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » (١) .

وكما أن هذه النفقة غير دائمة فهي غير ثابتة الوقت ، فمن المعلوم أن وقت زكاة الزروع هو وقت الحصاد ، وزكاة التجارة تتوقف على الحول ، أما هذه النفقة التى نتحدث عنها فليس لها وقت محدد ، وإنما تحين وقت الحاجة لها من جانب الدولة أو جانب الفرد ، ووقت القدرة على دفعها من جانب الغنى .

ومقدار هذه النفقة غير محدود أيضاً فهو يتوقف على ظروف الحاجة وعلى ظروف الدافع ؛ ومن الممكن عند الاقتضاء أن يرتفع فيشمل نصف المال أكثر من النصف حسب الظروف والأحوال .

وإذا سخا الأغنياء فقدموا من تلقاء أنفسهم للدولة ، أو للأفراد ما يسد الحاجة كان في ذلك الكفاية ، فإذا ضنوا بالمال ، أو كان بذلهم غير كاف فإن الإمام أن يصدر التشاريح التى تحتتم عليهم دفع ما يسد الحاجة كما ذكر ابن حزم فيما سبق ، والمجتمع الإسلامى فى الفترة التى نتحدث عنها كان ورعاً ، تغلب عليه الجانب الروحى ، وضعفت قيمة المادة لديه ؛ ومن أجل هذا كان عطاء الناس موسوماً بطابع السخاء . مما جعل الرسول ﷺ عليه يحاول أن يرد ما تصدق به بعض المسلمين ، لا اعتقاده أنهم يتصدقون بما هم فى حاجة اليه كما مر فى قصة الرجل الذى أراد أن يتصدق ببيضة الذهب التى كانت كل ما يملك .

(١) عبد الرحمن عزام : الرسالة الخالدة ص ٧٩ .

ونجد الأنصار كذلك يقدّمون بسطاء من أموالهم ودورهم للمهاجرين « يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » (١) .

وكان المجتمع الاسلامي في هذه الفترة سمحا كما سبق القول ، ولذلك لم يلجأ الرسول الى التشريع ، وكان يكفي أن يهيب بالناس فيستجيب الناس ، ولعل غزوة تبوك كانت من أقسى الامتحانات التي مرت بالمجتمع الاسلامي في ذلك العهد ، فالثقة بعيدة ، والغزوة في وقت الحصاد ، والمركة ضد الروم ، مما يبعث على الخوف ، ولكن المجتمع الاسلامي نجح في التغلب على هذه الصعاب ، وعلى ما أثاره المنافقون من تثبيط ومخاوف : « لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم ، وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون » (٢) . قال ابن هشام (٣) : (ثم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم جد في الاعداد للسفر ، وأمر الناس بالجهاز ؛ وحض أهل الغنى على النفقة والحملان في سبيل الله ؛ فحمل رجال من أهل الغنى واحتسبوا ، وأنفق عثمان في ذلك نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها) وقد ذكر بعض المؤرخين أن ما أسهم به عثمان في هذه الغزوة كان تسعمائة وخمسين بعيراً وخمسين فرسا ، وألف دينار (٤) .

وعندما حل بالحجاز جذب وتطلع الناس الى ما قد يرد من الشام من حب وزيت ، أقبلت لعثمان ألف بعير تحمل براً وزيتاً وزببياً ، فجاءه التجار يريدون أن يشتروا منه ما حملت البعير ، وأن يثرّبحوه الدرهم درهمين أو ثلاثة ، ولكنه قال لهم : أعطيت عشرة . فسألوه : من أعطاك

(١) سورة الحشر : الآية التاسعة .

(٢) سورة التوبة : الآية ٨٨ .

(٣) سيرة ابن هشام ج ٢ : ص ٣١٦ .

(٤) دكتور حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسي ج ١ ، ص ٣٣ .

عن الدرهم عشرة ؟ سأجاب : أعلماني الذى يقول « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » (١) فهل عندكم أكثر من عشرة ؟ فقالوا : لا • فقال أشهدكم أن هذه العير وما حملت صدقة للفقراء والمساكين •

وعن جرير قال : كنا فى صدر النهار عند رسول الله بالمدينة فجاءه قوم بكيت ثيابهم • فظهر الحزن على وجه الرسول لما رآه فيهم من الفاقة ، فدخل ثم خرج ، فأمر بلالا فأذن ولما اجتمع الناس ، خطب فيهم فقال :

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيبا » (٢) •

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتتظر نفس ما قدمت لعد » (٣) •

ثم قال : ليتصدق رجل من ديناره ، من درهمه ، من ثوبه ، من صاع بره ، من صاع تمره ، حتى قال ولو بشق تمرة •

قال : فجاءه رجل من الأنصار بصرة كادت كشفه تعجز عنها ، بل لقد عجزت ، ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب ورأيت أموالا كثيرة ، ورأيت وجه رسول الله يتהל كأنه مذهب (صفحة مطلية بالذهب من شدة بشره وسروره) فقال الرسول وهو يعطى الفقراء : من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص ذلك من أجورهم شيئا (٤) •

على أن تدخل الحاكم (هو فى هذه الفترة الرسول صلى الله عليه وسلم) وقع أحيانا ، وكانت الضرورة تدعو لتدخله ، فمن المعروف أن

(١) سورة الانعام : الآية ١٦٠ •

(٢) سورة النساء : الآية الاولى •

(٣) سورة البقرة : الآية الثامنة •

(٤) رواه مسلم •

بالبشريين وفقدوا الى المدينة فقراء لا مال معهم ولا ثروة ، لأنهم كانوا بين فقير لا مال له ، وبين غنى ترك في مكة ماله ودياره وهاجر الى المدينة بدينه ، وقد سبق القول أن الأنصار أكرموا المهاجرين غاية الكرم ، وآثروهم على أنفسهم ، ولكن بعض المهاجرين كانت فيهم عفة لم تسمح لهم أن ينالوا شيئاً من أموال الأنصار ، ومن المهاجرين من قنع بالقليل من عون الأنصار ، وعلى كل حال فقد كان واضحاً أن غالبية المهاجرين يعانون بعض الضنك اذا قيسوا بغالبية الأنصار ، ولعل الأنصار كانوا مستعدين أن يزدوا في المنح والعطاء ، ولكن إياء المهاجرين كان يحول دون ذلك . واستمر الحال على هذا ، حتى جاءت موقعة بنى النضير التي تسببت عن تأمر اليهود ضد الرسول صلوات الله عليه ومحاولتهم الفتك به ، ولهذا «اجمهم الرسول وحاصروهم ، فطلبوا الكف عن دمائهم والسماح لهم بالخروج من المدينة على أن يأخذوا معهم ما تحمل الابل من المال الا الدروع ، فخرجوا على ذلك ، وأخذ الرسول ما تركوه من أموالهم على أنه فيء ليس للمقاتلين فيه نصيب إذ لم يحصل هناك قتال ، وانما يترك كله للرسول ليتصرف فيه كما يرى ، وقد انتهز الرسول هذه الفرصة فلم يوزع الفء بالتساوي بين المسلمين ، ولكنه استعمله ليعيد به نوعاً من التوازن في الغنى والثراء ، فمنحه للمهاجرين بوجه خاص ولرجلين فقيرين من الأنصار ، وقد أيد القرآن الكريم وجهة نظر الرسول وبيّن أن الثراء يلزم أن يكون مشتركاً متنقلاً ، ولا يجوز أن يقف عند مجموعة من الأغنياء يتداولونه ولا يتعداهم لغيرهم : قال الله تعالى « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فالله وللرسول ولذو القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ، وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ، ان الله شديد العقاب ، للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون » (١) .

(١) سورة الحشر : الآيتان ٧ — ٨ .

نفقة التطوع :

نفقة التطوع هي أن تقدم مزيدا من الفضل غير القدر الضروري الذي يجب تقديمه للمعطي إليه ، كأن تقدم له بيتا أفسح من بيته ، أو تزوجه وليس الزواج ضروريا له ، أو تزيد من رزقه وعنده ما يكفيه •

وقد انتهينا فيما سبق من الكلام على الحق الواجب في المال ، سواء في ذلك الحق المنتظم وهو الزكاة ، أو الحق غير المنتظم وهو الانفاق للصالح العام ، الذي يجب في ظروفه الضرورة ، ولكن هذين ليسا وحدهما كل ما استمتع به المجتمع الاسلامي الأول ، بل كان هناك نوع آخر أشمل وأوسع ، انه غير واجب على جماعة المسلمين ، ولكن الشرع حث عليه وجعله مندوبا ، وأقبل عليه المسلمون اقبالا يجعل من الحق أن نقرر أن العدالة الاجتماعية كانت طبيعة هذا المجتمع ، فالأغنياء كانوا يجودون بمالهم حتى لو لم توجد حاجة ماسة تستلزم أن يدفع الأغنياء بعض ما يملكون ، والفقراء كذلك كانوا يجودون بما يملكون مهما قل ولو أن الشرع يعفيهم من الاعطاء لضيق ذات يدهم كما سبق القول ، ولم يكن ذاك عند الضرورة فقط ، بل أيضا عند عدم الحاجة بقصد المزيد من التوسعة على الفقراء ، وبين أيدينا وفي الذهن أمثلة تتراحم ، والتاريخ الاسلامي به نماذج رائعة لهؤلاء الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة •

ولا نزاع أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان زعيم المؤثرين وقدوة الكرام المبررة ، قالت له خديجة في ذلك : « إنك تحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الدهر » ، وعن جابر بن عبد الله قال : ما سئل الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : لا ، وأكبر دليل على ذلك ما روى من أن رجلا جاءه يسأله فقال له : ما عندي شيء ولكن ابتعْ على ، فاذا جاءنا شيء قضيناها ، فقال عمر ما كلفك الله ما لا تملك • فكره النبي ذلك من عمر • فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله ، أنفق ولا تخف من

ذی العرش اقلالا • فتبسم صلى الله عليه وسلم وعرف البشر في وجهه ،
وقال : بهذا أمرت •

واقتنى بالرسول أصحابه في ذلك ، روى أن عمر بن الخطاب أصاب
أرضا بخير فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : أصبت لرضا
بخير لم أصب مالا أنفس عندي منها ، فماذا تأمر فيها ؟ فقال الرسول :
إن شئت حبست أصلها وتصدق بريمها • فقبلها عمر « وقفنا على التراء
وذوى القربى ، وفي الرقاب ، وفي سبيل الله ، وللضعيف ، ولا جناح على من
وليها أن يأكل منها بالمعروف ، ويطعم صديقا محتاجا منها ، وخرج عمر بذلك
من أعز ماله » •

وقد ضرب لنا بعض المسلمين مثلا عاليا في السخاء ، فقد سئل أحد
العلماء : كم يجب للزكاة في مائتي درهم ؟ فأجاب : أما على العوام بحكم
الشرع فخمسة دراهم ، ولأما نحن فيجب علينا بذل الجميع •

وليس لنا أن نستطرد في ذكر الأمثلة الرائعة التي شهدها المجتمع
الاسلامى في فترات الزاهرة ، ونكتفى بأن نذكر أن هذه الروح الطيبة كانت
استجابة للتعليم الاسلامى ممثلا في القرآن الكريم والحديث الشريف ،
ومنهما نقتبس بعض نماذج لتوضيح هذا الدستور الاسلامى السامى
الذى اعتنقه المسلمون الأول فانفقوا بمجتمعهم الى أسمى الدرجات ،
قال تعالى :

— من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة ،
والله يقبض ويبسط (١) •

— مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع
سنابل في كل سنبل مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء (٢) •

(١) سورة البقرة : الآية ٢٤٥

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٦١

— مثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله ، ونشيطين في
أنفسهم كمثل جنة درجة ، أصابها وابل فأتت أكمامهم ، فإن لم يكن
وابل ساق (١)

• الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار ، راضين بما أنفقوا ،
عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٢)

— ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤا أولي القربى
والمساكين والمهاجرين في سبيل الله ، وليعفوا وليصبروا ، ألا تنبذون
أن يغفر الله لكم (٣) •

— وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين (٤) •
— ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شحم
نفسه فأولئك هم المفلحون (٥) •

— فاتقوا الله ما استطعتم ، واسمعوا وأطيعوا ، وأنفقوا خيرا
لأنفسكم ، ومن يوق شحم نفسه فأولئك هم المفلحون ، إن تقرضوا الله
قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم ، والله شكور حلیم (٦) •

— ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا • إنما نطعمكم
لوجه الله ، لا نريد منكم جزاء ولا شكورا (٧) •

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من يوم يصبح
العباد فيه الا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفا ،

(١) سورة البقرة : الآية ٢٧٥

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٧٤

(٣) سورة النور الآية ٢٢ •

(٤) سورة سبا الآية ٣٩ •

(٥) سورة الحشر الآية التاسعة •

(٦) سورة التغابن الآيتان ١٦ — ١٧ •

(٧) سورة الانسان الآيتان ٨ — ٩ •

ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفاً » (١) ، وقال : ثلاثة أقسم عليهن ... ما نقص مال عبد من صدقة ، ولا ظلمَ عبد مظلماً صبر عليها إلا زاده الله عزاً ، ولا فتح عبد باب مسألة (جلس يتسول) إلا فتح الله عليه باب فقر (٢) •

ويحث الاسلام المسلم أن يرعى ذريته ويدخر لهم ما يجعلهم بآمن من المفاقة وسؤال الناس ، وفي الحديث « لأن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس » ولكن الاسلام يحذر أن يشتغل المسلم بذريته وينسى المجتمع الذي يعيش فيه وما يجب عليه نحوه من تبعات ، وانه لحق أن يقدم المرء لأولاده ولا يقدم لنفسه بمنح صدقة تعود عليه فائدتها في الدنيا والآخرة •

يروى أنه تجمع لعمر بن عبد العزيز بعض من المال الحلال ، فاستشار وزيره مزاحم فيما يصنع بهذا المال ، فقال له مزاحم : ولدك يا أمير المؤمنين أحق به •

قال عمر : أدعهم لله يا مزاحم •

قال مزاحم : هو مالك يا أمير المؤمنين وقد أحلّ الله الميراث • وعرف عبد الملك بن عمر ذلك فأسرع لمزاحم يقول له : بمس الوزير أنت ؟ تحب أولاد الخليفة أكثر مما تحب الخليفة ؟ هلا نصحتك أن يدفع المال لبيت المال فينال من الله الثواب ؟

وذهب عبد الملك الى أبيه ، ولم يزل به حتى دفع ذلك المال الى بيت المال ، وحذّره من وزراء السوء •

ليت شبابنا يتعلمون من الشاب عبد الملك بن عمر هذا التصرف النبيل •

(١) رواه مسلم •

(٢) رواه ابن ماجه •

وانها لأنانية أن يعيش المرء الأولاده وينسى المجتمع الذى يحيط به ،
مع أن المرء وأسرته وحدة من وحدات هذا المجتمع ، على أن حياة الرجل
لأسرته فقط تجعل هذه الأسرة محرومة من حُبِّ الناس ورعايتهم • وربما
حرمت هذه الأسرة أيضا هذا المال الذى ركَّز المرء جهده لجمعه لها ،
روى عبد الله بن مسعود أن رسول الله قال : « نشر الله عبيدين ممن أكثر
لهما من المال والولد ، فقال لأحدهما أى فلان ابن فلان • قال : لبيك رب
وسعديك • قال : ألم أكثر لك من المال والولد ؟ قال : بلى • قال : كيف
صنعتَ فيما آتيتك ؟ قال : تركته لولدى مخافة العيلة • قال : أما إنك لو
تعلم العلم لضحكت قليلا ولبيكت كثيرا ، أما إن الذى تخوفت عليهم
قد أنزلت بهم •

وقال الله سبحانه وتعالى للآخر : أى فلان بن فلان • قال : لبيك
رب وسعديك • قال : ألم أكثر لك من المال والولد ؟ قال : بلى • قال :
فكيف صنعتَ فيما آتيتك ؟ قال : أنفقتَه فى طاعتك ، ووثقت لولدى من
بعدى بحسن ظولك • قال تعالى له : أما إنك لو تعلم العلم لضحكت كثيرا
ولبيكت قليلا ، أما إن الذى وثقتَ به قد أنزلت بهم » (١) •

وفيما يتعلق بهذا الموضوع نقودنى تجاربى الخاصة الى أن أعارض
بشدة ما هو شائع من أن بخل الناس انما هو للحرص على مستقبل
أولادهم ، والذى يبدو لى أن البخل طبيعة فى بعض النفوس ، وكثيرا ما
يحاول البخلاء أن يستتروا خلف أولادهم ليخففوا الأوم عن أنفسهم ،
ولكننا نتدبر فنجد كثيرين من البخلاء لا أولاد لهم ولا أمل فى الأولاد ، ومع
هذا فالواحد منهم ممسك اليد ، وكم رأينا بخيلا يقتر على أولاده بـل
يحرّمهم ، ولو كان يدخر لهم لأعطاهم فى حياته ما يحتاجون اليه ، إن
البخل فيما أعتقد طبيعة فى بعض النفوس أو مرض "يجدر بمن بلى به
أن يحاول أن يتخلص منه •

(١) رواه الطبرانى •

الإعطاء :

سبق أن ذكرنا أن ما يأخذه الفقير من مال الغنى إنما هو حق له في المال ، وعلى هذا فأداؤه له يجب أن يأخذ صفة أداء الحقوق إلى أصحابها ، دون أن يصحب ذلك رياء " ولا من " ولا أذى ، فإذا صاحب الإعطاء رياء " أو من " أو أذى ضاع الثواب ، وربما لحق المعطي إثم " وسوء مصير . قال تعالى : الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منها ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى ، والله غنى حليم . يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمال والأذى كالذي ينفق ماله رياء الناس ، ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فمثلته كمثل صفوان عليه تراب ، فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا ، والله لا يهدي القوم الكافرين ، ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فأتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل ، والله بما تعلمون بصير » (١) .

وقد علق ابن القيم (٢) ، على هذه الآيات الكريمة بقوله : وقد يعرض للصدقات ما يضيع ثوابها كالرياء والمن والأذى ، فالرياء يمنع انعقاد الثواب ، والمن والأذى يبطل الثواب ، فمثل صاحبها وبطلان عمله كمثل صفوان — وهو الحجر الأملس — عليه تراب فأصابه وابل — وهو المطر الشديد — فتركه صلدا لا شيء عليه ، وتأمل أجزاء هذا المثل البليغ ، وانطباقها على أجزاء الممثل به ، تعرف عظمة القرآن وجلاله ، فإن الحجر وُضعَ في مقابلة قلب هذا المرائي أو المان " أو المؤذى ، فقلبه في قسوته عن الإيمان والاخلاص والاحسان بمنزلة الحجر ، والعمل الذي عمله لغير الله بمنزلة التراب الذي على ذلك الحجر ، ففسوسة ما تحته وصلابته تمنعه من النبات والثبات عند نزول الواابل ، فليس له مادة متصلة فيقبل الماء

(١) سورة البقرة : الآية ٢٦٢ — ٢٦٥ .

(٢) أعلام الموقعين عن رب العالمين ج ١ ص ١٨٥ — ١٨٦ .

وينبت الكلا ، وكذلك قلب المرائى ليس له ثبات عند وابل الأمر والنهى والقضاء والمقدر ، فاذا نزل عليه وابل الوحي انكشف عنه ذلك التراب اليسير الذى كان عليه ، فبرز ما تحته حجرا صلبا لا نبات فيه ، وهذا مَثَلٌ "ضربَه الله سبحانه لعمل المرائى ونفقته •

ومن آداب الاعطاء أن يكون خفية بقدر الامكان حتى يكون خالصا لله ، لا رياء فيه ولا سمعة ، وحتى لا يشق على نفس الفقير ، فقد يؤذيه أن يظهر بمظهر الآخذ المحتاج ، والآية الكريمة تقول : « إن تبدوا الصدقات فنمنا هي ، وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم » (١) •

والذى يبدو لى أن صدر الآية « إن تبدوا الصدقات فنمنا هي » يقصد به إخراج الصدقة علنا دون أن يؤذى الفقير ، كإعطائها لسائل لا يستتفأ أخذها علنا ، أو إخراجها علنا دون أن يعرف لمن تعطى ، كأن يخرج بها أتباع الغنى علنا ثم يتسللون بها الى بيوت الفقراء • أما اذا أعطيت للفقير بصورة علنية يتأذى بها ، فقد ضاع ثوابها « لا تبطلوا صدقاتكم بالان والأذى » والرسول عليه السلام يؤكد هذا المعنى بقوله مستحسنا عمل رجل أخفى صدقته : « تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أخرجت يمينه » (٢) • وذلك تصوير يبين منتهى الحيطة والتكتم عند إعطاء الفقير حقه فى مال الغنى •

ومن النظم الاسلامية التى تلاحظ فى إخراج حق الفقير أن يكون نصيب الفقير فى مستوى الثروة من حيث الجودة ، فاذا تخير الغنى للفقير أقل الانتاج قيمة أو نظافة فقد أضاع ثوابه وهبط بأجره ، يقول الله تعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » (٣) •

(١) سورة البقرة الآية ٢٧١ •

(٢) رواه الشيخان •

(٣) سورة آل عمران : الآية ٩٢ •

التفاوت في الدفع والتفاوت في الاستحقاق :

من المبادئ المهمة في الاقتصاد الاسلامي الأخذ بمبدأ التفاوت فيما يجب أن يدفعه الأغنياء ، ويكون هذا التفاوت تابعاً لدرجة تفاوتهم في الغنى ، وذلك ما يسمى في الاقتصاد الحديث بالضريبة التصاعدية .

ومن المبادئ المهمة أيضاً في الاقتصاد الاسلامي الأخذ بمبدأ التفاوت في الاستحقاق بحسب الحاجة وبحسب عدد أفراد الأسرة ، ذلك ما يسمى في الاقتصاد الحديث بالعلوة الاجتماعية .

ولسنا — بطبيعة الحال — نقصد أن الاسلام أعطى تفاصيل دقيقة عن هذين الموضوعين ، لكننا نقرر أن الاسلام أقر المبدأ ووضحه في التشريع الاسلامي ، أما تفاصيله فقد تركت لتكون موضوعاً للبحث حسب الظروف والعهود المختلفة .

أما مبدأ الضريبة التصاعدية فيتضح أولاً في الزكاة حيث لا تجب إلا في نصاب معين ، وما دون هذا النصاب يترك لسد حاجة الأسرة فان لم يكمل النصاب أعفى مالكة من الدفع .

وتتضح الضريبة التصاعدية فيما سبق أن ذكرناه من أن المقدار الذي يؤخذ من الأغنياء للإنفاق الواجب على الصالح العام يتفاوت بحسب درجات الغنى واليسار .

وقد ضرب الاسلام مثلاً دقيقاً للضريبة التصاعدية في الجزية التي فرضها على الذميين بدل الزكاة التي يدفعها المسلمون ، وبدل الجهاد الذي يلتزم به المسلمون (١) وقد جعل الاسلام هذه الجزية متفاوتة كالاتي :

(١) يحلو لبعض الناس أن يهاجموا الاسلام بسبب الجزية ، ولعله انضح من ذلك أن الجزية كانت مقابل الزكاة التي يدفعها المسلمون ، فبالجزية والزكاة كانت تدار شؤون الدولة ويعطى المحتاجون من المسلمون والذميون ، هذا الى أن الجزية اقل كثيراً جداً من الزكاة ، ولم يلتزم أهل الذمة بدفع الزكاة لأنها ركن من أركان الاسلام الذي لم يعتنقه الذميون ، ثم أن الجزية كانت بدل الدفاع والجهاد اللذين كانا واجبى المسلمين ، وتدلنا المراجع التاريخية أن بعض المسيحيين أسهموا أحياناً في الحرب بجانب المسلمين فسقطت عنهم الجزية ، وسيأتى بيان ذلك في موضعه من هذا الكتاب .

- ١ — الأغنياء ويؤخذ عن كل فرد ٤٨ درهماً في العام .
- ٢ — متوسطو الغنى ويؤخذ من كل منهم نصف هذا القدر (٢٤ درهماً في العام) .
- ٣ — العمال ويؤخذ من كل منهم نصف ما يؤخذ من المتوسطين (١٢ درهماً في العام) .
- أما النساء والعجزة والصبيان فلا تجب عليهم الجزية بتاتاً (١) .

أما مبدأ العلاوة الاجتماعية فقد أثبت الإسلام عنه اتجاهها واضحاً يمكن أن يكون أساساً لدراسات واسعة مفيدة ، فالرسول صلى الله عليه وسلم فرض للأعزب حظاً من الغنيمة والاستروج حظين ، وروى عن عمر قوله في الفئ : ما أنا بأحق بهذا الفئ منكم ، وما أحق بأحق به من أحد إلا أننا على منازلنا ، فالرجل وعياله والرجل وحاجته (٢) . وعندما رتب عمر المرتبات أعطى كل أسرة بحسب عدد الأولاد فيها ، وجعل لكل طفل من أطفال المسلمين نصيباً ، وكان عمر في بادئ الأمر يعطى الأطفال إذا تجاوزوا الرضاع — ولكنه عاد فأعطى نصيباً لكل طفل رضيعاً كان أو غير رضيع ، روى ابن عمر أن ركبا من التجار كانوا في اتجاههم الى المدينة فدخل عليهم المساء قبل أن يَصِلُوا ، فحطوا رحالهم ، وعلم عمر بذلك فقال لعبد الرحمن بن عوف : هل لك أن نسهر عليهم لنحرسهم ونراهم ؟ فاستجاب ابن عوف له وسار مع عمر ، فباتا يحرسان الركب ويصليان ، فسمع عمر في جوف الليل طفلاً يبكي بكاء متصلاً فتوجه نحو الركب ، وقال لأمه : اتقى الله وأحسنى الى طفلك . ثم عاد الى مكانه ، وبعد قليل سمع بكاء مرة ثانية فذهب للمرأة وكرر مقالته لها وعاد الى مكانه ، فلما كان آخر الليل سمع بكاء الصبي ، فسارع الى أمه وقال لها : ويحك إني لأراك أم سوء ، مالى أرى ابنك لا يهدأ طول الليل ؟

(١) انظر هذا الموضوع في « الاقتصاد في الفكر الاسلامى » للمؤلف .

(٢) أبو يوسف : الخراج ص ٥٥ .

خالت المرأة - وهي لا تعرف من تحذّب - : يا عبد الله ، مد أبرمتنى
طول الليل ، إني أعالجه على الفطام فيأبى الا رضاعا •

قال عمر : ولم ؟

قال : وكم لابنك من العمر ؟

قالت : كذا وكذا شهرا •

قال : ويحك لا تعجلية •

وذهب عمر ليصلى بالناس الفجر ، وما يستبين الناس قراءته من
غلبة البكاء عليه ، فلما انتهى من صلاته قال : يا بؤساً لعمر ! كم قتل
من أولاد المسلمين ؟ ثم أمر مناديا فنادى : لا تعجلوا صبيانكم على الفطام
فانا نفرض لكل مولود في الاسلام ، وكتب بذلك الى الآفاق •

تتغنّى بعض الدول بمسلكها الاشتراكي وبالعلوات الاجتماعية التي
نمنحها للمتزوجين أو لذوى الأولاد ، فهل درى هؤلاء أن الاسلام أخذ
بهذا المبدأ أو اقتبح هذا المبدأ منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا ؟

تلك حقائق واضحة نسجلها للباحثين لعل فيها ذكرى لأولى الأبصار •

الاسلام بين المبادئ الاقتصادية الحديثة

قلنا في مطلع الحديث عن العدالة الاجتماعية إن للإسلام في سياسة المال فلسفة ليست شيوعية وليست رأسمالية وليست من الاشتراكية الغربية ، ولكنها إسلامية ، ولعلنا أوضحنا عناصرها واتجاهاتها ومبادئها فيما أوردناه من أبحاث ، ولعل من الخير أن نختم هذا الموضوع بإيراد دراسة مقارنة موجزة عن المبادئ الاقتصادية الإسلامية بالنسبة لهذه المبادئ الاقتصادية الحديثة .

الاقتصاد الإسلامي والشيوعية :

يبعد الاقتصاد الإسلامي عن النظم الشيوعية بعدا واسعا ، فقد سبق أن قررنا أن الإسلام يقر الملكية الفردية ويقر التفاوت فيها ، ويشمل ذلك ملكية الأراضي الزراعية وملكية المتاجر والمصانع ، ولا يجيز الإسلام التدخل في هذه الملكية إلا إذا تعارضت مع الصالح العام كما سبق ، ويحرس الإسلام هذه الملكية وينقلها لورثة المالك ، والإسلام بذلك يعارض الشيوعية التي لا تدع للإنسان إلا حق الامتلاك الشخصي للدخل الناتج من عمله ومدخراته ، أو المنزل الذي يسكنه بأثاثه وأمتعته ، والأدوات المخصصة لاستعماله الشخصي وتوفير الراحة له ، وحق توريث هذه الملكية الشخصية ^(١) .

ومن الحق أن نوضح أن الشيوعية الأصلية أدركت بُعدها عن المنطق السليم في آرائها الاقتصادية ، فأدخلت ولا تزال تدخل بعض الأفكار على أسسها ، محاولةً بذلك التوفيق بين الآراء الماركسية وبين الحكمة داخات المجتمع .

(١) دستور اتحاد الجمهوريات السوفيتية .

على العمال وعلى مختلف الطبقات العاملة ، كما ازداد التنافس والتطاحن بين الدول ، الأمر الذى أدّى الى اشتداد حالة التوتر بينهما ، وانتهى بنشوب الحرب العالمية الثانية « (١) ومن هذا يتضح أن النظام الرأسمالى لا يعيش الا فى جو سياسى معين ، أو قل ان هذا النظام يتدخل فى شئون السياسة والحكم ، وذلك أيضا عنصر آخر يبعده عن النظام الاقتصادى فى الاسلام .

ولا نزاع أن الحرب زادت ثروات الرأسماليين ، وقفزت بغناهم ، ولذلك يسميهم الباحثون المحدثون « تجار الحرب » لمحاولتهم إشمالها حتى تنمو مواردهم على حساب جثث القتلى وأشلء الضحايا . ويقول الأستاذ الدكتور أحمد أمين : والشعوب لا مصلحة لها فى الحرب ، وإنما يدعو لها ويدبرها الرأسماليون ، الذين ينتفعون ماليا من الحرب ولا يهمهم ما يصيب العالم من ويلات (٢) .

ومن نكبات الرأسمالية على الشرق خاصة ذلك الاحتلال العاتى ، وهذا الاستعمار البغيض ، وما كان ذلك الاستعمار إلا نتيجة حتمية لتضخم رعوس الأموال والبحث عن إيجاد سوق لتصريف انتاج الآلات التى يملكها الرأسماليون « فالسيطرة الاستعمارية على العالم باسم الحضارة إنما تسعى لاثباع شهوات الرأسمالية وقد وضعت الرأسمالية والاستعمار متساندين أسس هذا الاضطراب العالمى الذى قد يقضى على الحضارة كلها » (٣) .

ويقول ستوارد (٤) : إن مبادئ الحرية التى سادت فى الغرب وفودى بها أكثر القرن التاسع عشر قد هبت عليها ريح هوجاء من المطامع

(١) دكتور قهر الدين يونس : الانسانية ص ٢٤ .

(٢) الشرق والغرب ص ٣٦ .

(٣) عبد الرحمن عزام : الرسالة الخالدة ص ٢٤٣ .

(٤) نقلا عن « حاضر العالم الإسلامى » .

السياسية والاقتصادية فمزقتها شرمزق ، وبددت صورها كل مبدد ، إذ أخذ التراحم يشتد ، والتنازع يوغر قلوب الدول الغربية ، حتى طفح الكيل ، فاشتعلت الحرب العالمية الكبرى ، واشتد نهم أوربا وجشعها للتوسع في والاستعمار ومناطق السطوة ونيل الامتيازات ، واحتياز الأسواق الاقتصادية ، اشتدادا وحشيا غير مسبوق المثل .

ويقول البنديت نهرو : إن فساد العالم يرجع معظمه الى فساد نظامه الاقتصادي والسياسي في الوقت الحاضر ، وانه لا سبيل الى الإصلاح ما دامت الرأسمالية تسخر طبقة لطبقة ، والاستعمار يسخر أمة لأمة .

الاقتصاد الاسلامي والاشتراكية الغربية :

وتختلف اشتراكية الغرب عن الاقتصاد في الاسلام ، فاشتراكية الغرب تقوم على أساس من حرب رأس المال ، ونضال الطوائف ، أما الاقتصاد الاسلامي فيقوم على أساس التعاون والاخاء (١) .

ومن الواضح كذلك أن الاشتراكية الغربية ترمي الى القضاء على الثروات الكبيرة ، وتقف منها موقف العداء ، ولكن الاسلام لا يتعرض لهذه الثروات مادامت قد تكونت على أساس سليم ، ومادامت بعدد تكوينها تابعة لروح الاسلام ، عاملة لخير المجتمع وغير ضارة به .

ويضع الاسلام وسيلة هامة يصل بها الى ازالة الطبقة الثابتة ، وهذه الوسيلة هي نظام الميراث الذي من طبيعته أن يفتت الثروات .

والاشتراكية الغربية تكثر من التأميم فتكثرب بذلك من الشيوعية التي تعمل على تملك الدولة وسائل الانتاج ، أما التفكير الاسلامي فانه يسعى لتوزيع الثروة على الأفراد ، ولا يلجأ للتأميم الا للضرورة ، ولذلك يقول المفكرون المسلمون ان الاشتراكية تحارب الغنى ولكن الاسلام يحارب الفقر .

(١) دكتور محمد حسين هيكل : حياة محمد ص ٥٥٢ — ٥٤٣ .

والملكية في اشتراكية الغرب ملكية كاملة ، ولكنها في الاسلام
وظيفة اجتماعية ليس غير •

تلك مقارنة موجزة بين النظام الاقتصادي في الاسلام وسواه من
النظم ، ولا شك أن النظام الاسلامي حقق لتابعيه في الفترات التي انتشر
فيها أسمى ألوان النجاح واليمن والبركة •

وبعد الحديث عن العدالة الاجتماعية في الاسلام ، وما تلاها من
مقارنة موجزة بين الاسلام وبين الاتجاهات الاقتصادية الحديثة ، نستطيع
أن نجيب على سؤالين مهمين :

١ — لماذا يلجأ بعض المسلمين أحيانا إلى الشيوعية ؟ •

والجواب على ذلك قصير وواضح ، هو أن المسلمين لجئوا للشيوعية
أحيانا لأن النظم الاقتصادية الاسلامية معطلة ، ولو بحثت هذه النظم
وتطورت حسب مقتضيات الأحوال في ضوء الأسس التي سبق إيرادها
والتي جاء بها القرآن والحديث ، لوجد الناس فيها ضالتهم ولكانت الدول
الاسلامية في مأمن من الزحف الشيوعي ، الذي لا يمكن أن ينمو في تربة
نشط فيها الاسلام والفكر الاسلامي •

٢ — ما موقف الاسلام من الشيوعية ؟

هذا سؤال مهم يلزم أن تكون الشجاعة أساسا في الاجابة عنه ،
فبين الرأسمالية والشيوعية حرب لا تهدأ ، وكل منهما يرى في الآخر
خطرا عليه ، ويتمنى أو قل يحاول أن يمحو هذا الخطر من الوجود ،
وسلاح الدعاية من أهم الأسلحة التي يستعملها أتباع كل من المذهبين في
هدم المذهب الآخر ، ولا ييسر سلاح الدعاية التي يستعمله الرأسماليون
ضد الشيوعية على نهج واحد ، وإنما يتلوّن بحسب القوم الذين يستعمل
بينهم هذا السلاح ، ومن أمثلة هذا التلوّن ما رأيته بنفسى ، وما يمكن أن
يراه كل شاعر أو كاتب أتيحت له فرص التنقل بين الأقطار المختلفة •

في البلاد الإسلامية تقوم الدعاية ضد الشيوعية على أساس أن الشيوعية تقوم على الإلحاد والاباحية ، وقد اتخذ هذا الأساس بالبلاد الإسلامية لأن لدى المسلمين حساسية دقيقة في ذلك الموضوع . فإيمانهم العميق بالإله الواحد الأحد ، وبالأسرة ونظام تكوينها ، يجعلهم يهتمون الشيوعية لما يذاع عنها من إلحاد وإباحية .

وفي إندونيسيا بالذات تقوم الدعاية ضد الشيوعية على أساس أن الشيوعيين ألد أعداء المسلمين ، ولو أتاحت لهم فرصة لقتلوا المسلمين واستحلوا دماءهم كما فعلوا في حادثة « مديون » (١) المشؤمة وفي حادثة الجنرالات (٢) .

وفي أوروبا تقوم الدعاية ضد الشيوعية على أساس آخر غير الإلحاد والاباحية وغير الفتك والاعتداء ، ولم تتخذ هذه الأسلحة أسسا للدعاية ضد الشيوعية بأوروبا . لأن الإلحاد معترف به هناك ، فليس شيئا يثير الجماهير إذ أن الحضارة الأوروبية التي تسود الغرب تشترك مع الشيوعية في هذا الاتجاه ، وهي والشيوعية صنوان في الكفر والإلحاد (٣) . وكذلك الاباحية منتشرة بأوروبا ، ويرادها الأوروبيون لونها من أوران مدينيتهم . ولم يتخذ هناك الاعتداء سلاحا دعاية ضد الشيوعية بأوروبا لأن مذبحة هذه البلاد حرمت الفتك بسبب اختلاف الرأي ، وأصبح هذا التحريم عادة لا تتخلف تقريبا .

وعلى هذا حوربت الشيوعية بأوروبا بسلاح جديد يناسبها ، فذلك هو أن الشيوعية تقوم على الانتهازية .

(١) مديون ، مدينة من مدن بلاد الوسطى حدثت بها مذبحة قسام بها الشيوعيون ضد المسلمين .

(٢) اقرأ عنها في الجزء الثامن من « موسوعة التاريخ الإسلامي » للمؤلف .

(٣) محمد الفزالي : الإسلام والأوضاع الاقتصادية .

الأوروبيين ضد الشيوعية ، لأن الأوروبيين حريصون على الحرية ، وعلى
النظم الديمقراطية في حياتهم السياسية •

وفي أمريكا تقوم الدعاية ضد الشيوعية على أساس آخر يثير ثائرة
الأمريكيين ، وذلك الأساس هو أن الشيوعية تسعى الى الاستيلاء على
الثراء الأمريكي لصالح الرجل الآسيوي الأفريقي ، والرجل الأمريكي
حريص على الترف الذى تعود به ، ولنعم به ، ولذلك يكره الشيوعية ويحاربها •

وتتخذ الرأسمالية وسائل كثيرة لاذاعة هذه الدعايات ، ويخدع
بعض المسلمين بطريق أو بآخر فيأخذ السلاح من الرأسمالية ليضرب
به الشيوعية •

الاتحاد السوفيتى والغرب سواء :

وكان الأجدر بالمسلم أن يتذكر أن الشيوعية السوفيتية والرأسمالية
الغربية يستويان في الحقد على الاسلام ومصارعته ، فالشيوعية السوفيتية
عدوة الاسلام ، وقد كانت روسيا قبل النظام الشيوعى وبعده دولة عدوانية
وقد تركز زحفها على جيرانها وبخاصة ابتداء من القرن التاسع عشر
فضمت جورجيا سنة ١٨٠١ ومناطق تركستان سنة ١٨٢٦ وضمت التركس
والقوقاز سنة ١٨٦٤ ووصلت في حدودها الى افغانستان ، فأصبحت مرو
وبخارى وسمرقند وغيرها من المدن الإسلامية التى كانت زاهرة مائجة
بالفكر الاسلامى ضمن الاتحاد السوفيتى ، وفي العصر الحديث اندفع
الاتحاد السوفيتى لغزو افغانستان وهو حتى كتابة هذه السطور يدمر
العالم ويقتل الانسان البريء •

وقد اتبعت روسيا سياسة « الترويس » أى نقل المسلمين من
مناطقهم الى فيافي سيبيريا وغيرها ، ودفع عدد من الروس ليحلوا محل
المسلمين في בתاعهم الخصبة •

وعلى العموم فلسفة الاتحاد السوفيتي بالاسلام صلة دماء وكراهية على مر العصور .

فاذا جئنا الى الحرب قابلتنا الحروب الصليبية بدمائها وقسوتها . ثم الاستعمار الأوربي بما فيه من نهب وتدمير ، ثم غرس الدولة الصهيونية في قلب العالم العربي والاسلامي وتقويتها بمختلف الوسائل لتكون شوكة تجعل العالم العربي والاسلامي ينزف دائما ، ولا يحقق ما يرجوه . من تقدم ووحد ، وان دماء الأحرار من المسلمين الذين قتلتهم أسلحة الغرب لم تجف بعد في مصر وإندونيسيا والباكستان وسوريا ولبنان والعراق والجزائر وغيرها .

ولنعد الى الشيوعية لنذكر ان الشيوعية السوفيتية وضعت لنفسها خطة استعمارية طويلة المدى ، فقد حاربت الاستعمار في وقت من الأوقات لتطرده من الدول الصغيرة ، فلما نجحت في ذلك قدمت القروض والمساعدات لهذه الدول ، ثم التهمتھا ، والذي ينظر للزحف السوفيتي الآن يجد أنه امتد الى كل القارات ، فأصبح في انجولا وأثيوبيا ، وفي أوربا الشرقية ، واقتحم أفغانستان وهدد الباكستان ، وجنوده كالأخطبوط ، يمتد ويدمر كل القيم ، وقد سكت العالم حتى الآن عن الزحف الشيوعي ، وفي السكوت وبالله ، وإن الاستعمار الغربي هو الذي مهد الطريق للزحف الشيوعي ، وكلاهما خطر على الاسلام والدول الاسلامية .

سادسا - القدوة الحسنة

هناك عامل كان له أثر خطير في تكوين المجتمع الاسلامي الأول والسير به قدما الى الأمام ، وذلك العامل هو القدوة الحسنة التي تمثلت في الرسول صلاوات الله عليه ، لقد بنى الرسول المسجد ليكون مجتمعا واحدا للمسلمين وأخى بين أتباعه ليوحد بين قلوبهم وليكون منهم أسرة اسلامية واحدة ووضع المعاهدة سجلا دستوريا يتبعه سكان المدينة من مسلمين وغير مسلمين حتى يعرف كل حقه والواجب عليه ، ووضع النظام السياسي

والاقتصادي للمسلمين ، ولكن كان هناك معين "أسمى من الواجب . وكان بعيد الأثر في تكوين مجتمع إسلامي رائع ، ذلك هو القدوة الحسنة التي تمثلت في خلق الرسول صلوات الله عليه وسلم ، ففاض على المسلمين بارشاده وتهذيبه وأدبه ، ذلك الأدب الذي وصفه الرسول بقوله (أدبنى ربى فأحسن تأديبي) وذلك الخلق الذي قال الله عنه « وإنك لعلى خلق عظيم » (١) وقال « ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك » (٢) وهكذا لم تكن المسألة نظريات تنظم ، ولا قوانين تنشر فقط ، وإنما وجد كذلك الجانب العملي الذي تمثل في الرسول ، والذي كان لا يقنع بتنفيذ الواجب ، بل كان يضيف من اتجاهه ومن مشاعره الكثير لخدمة الإسلام ورفع شأن المسلمين وهكذا كانت أخلاق الرسول هديا لهذا المجتمع الجديد ، وكانت صفاته قوة ربطت هذا المجتمع برباط وثيق ، وكانت قيادته بلهمة الخير لهذه الأمة الجديدة ، ونحن هنا نقتبس من صفات الرسول بعض العناصر التي كانت بعيدة الأثر في سير سبينة هذا المجتمع في خضم الحياة بنجاح وفوز .

لقد تركزت في يد الرسول صلوات الله عليه السلطة الدينية والسلطة الدنيوية ، ولكنه كان يأبى أن يظهر في أى مظهر من مظاهر الساطان أو الملك أو الرياسة ، وكان يقول لأصحابه (لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد الله ورسوله) وخرج على جماعة ممن أصحابه فقاموا له فقال : لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا . وكان إذا بلغ أصحابه وهم جلوس جلس منهم حيث انتهى به المجلس ، وكان يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم ويداعب صبيانهم ويجلسهم في حجره ، ويجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ، ويعود المرضى في أقصى المدينة ويقبل عذر المعتذر ، ويبعد من لقيه بالسلام ، ويبعد أصحابه بالمصافحة ، ولا يجلس في انتظاره أحد وهو يصلى إلا خفف صلاته وسأله عن حاجته ، فإذا فرغ عاد الى صلاته . وكان أطيب

(١) سورة القلم : الآية الرابعة .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٥٩ .

الناس نفسا ، وأكثرهم تبسما ما لم ينزل عليه قرآن أو يعظ أو يخطب ، وكان في بيته يرقع ثوبه ، ويحلب شاته ، ويخسف نعله ، ويخدم نفسه ، ويعقل البعير ، ويأكل مع الخادم ، ويقضى حاجة الضعيف والبالس والمسكين ، وكان إذا وجد أحدا في حاجة آثره على نفسه ولو كان به خصاصة ، وكان لا يدخر شيئا لغده حتى لقد توفي ودرعه مرهونة عند يهودى في قوت عياله ، وكان جم التواضع ، شديد الوفاء ، يروى أنه قدم من لدن النجاشى وفد فقام بنفسه يخدمهم ، فقال له أصحابه نحن نكيب • فقال انهم كانوا لأصحابنا مكرمين وانى أحب أن أكافئهم وبلغ من طيبة نفسه ورقة قلبه أنه كان يسمح لأحفاده أن يداعبوه في أثناء صلاته ، بل لقد صلى مرة وهو يحمل « أمامة » ابنة بنته زينب •

ولم يقف بره ورحمته عند الانسان بل شمل الحيوان أيضا ، كان يقوم بنفسه فيفتح بابه لهرة تلتمس عنده ملجأ من حر أو برد أو جوع أو عطش ، وقام مرة بنفسه على تمرىض ديك مريض ، وكان يمسح الجواد بكم قميصه •

وكان مستعدا أن يعطى كل ما يملك ، إذ كان لا يسمع لشيء مما في الحياة أن يكون صاحب سلطان عليه ، وكانت سياسته أن يكون هو صاحب السلطان على ما امتلكه ، وكان شديد الزهد في الحياة المادية حتى بلغ به أن اتخذ فراشا خشنا ، وأنه لم يشبع قط ، وكان طعامه بسيطا للغاية ، ولقد عانى الجوع أكثر من مرة ، وفي إحدى المرات شد على طنه هجرا من شدة الجوع ، وكان زهده في اللباس كزهده في الطعام •

ولم يكن هذا الزهد ولا هذه الرغبة عن الدنيا فرضا من فروض الدين ، فقد جاء في القرآن الكريم « كلوا من طيبات ما رزقناكم » (١) وجاء « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا » (٢)

(١) سورة البقرة : الآية ١٧ •

(٢) سورة القصص : الآية ٧٧ •

ولكن محمداً أراد أن يضرب للناس المثل الأعلى في القوة على الحياة ، قوة لا يتطرق اليها الضعف ، ولا يستعبد صاحبها متاعاً أو مالاً أو سلطاناً (١) .

وفي معاملته لأتباع الأديان الأخرى لم ينتقيد فقط تجاههم بمسا التزمه في الوثيقة السابقة ، بل راح يصفى عليهم من خلقه السمح ، ومعاملته الكريمة وصفاء روحه ، فقد روى أنه كان يحضر ولائمهم ويشيع جنازاتهم ، ويعود مرضاهم ، ويزورهم في بيوتهم ، ويكرمهم اذا زاروه حتى أنه فرش عباءته لنصاري نجران عندما وفدوا عليه حتى يجلسوا عليها ، وكان يقترض من أهل الكتاب ويرهن عندهم أمتعته ، مع أن بين المسلمين كثيرين من الأغنياء الذين كانوا مستعدين لتقديم أموالهم وأنفسهم له ، ولكنه أراد أن يعلم أتباعه الطريقة المثلى في معاملة أهل الكتاب (٢) .

سابعا : سيطرة روح الاسلام على هذا المجتمع

من العرض السابق ندرك أن المجتمع الاسلامي الأول لم يكن يسير فقط تبعا لقوانين الاسلام ، بل تبعا لروحه ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم باعث هذه الروح ومركز إشعاعها ، تدل على ذلك الآية الكريمة « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » (٣) فالآية هنا لم تصفه بالعدل أو الصدق وغير ذلك من الصفات التي يجب أن تتوافر في المسلم بل وصفته بما هو أكثر من الواجب ، وصفته بما لا يمكن أن يوضع في كلمات أرق وأجمل من هذه العبارات السامية : رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رءوف رحيم .

ولعل روح الاسلام التي يمكن أن نستنبطها من هذه الآية تتمثل في الحب ، حب الله ، وحب الخير ، وحب المسلمين بعضهم بعضا في الله .

(١) دكتور محمد حسين هيكل : حياة محمد ص ٢٣٠ — ٢٣٢ بتصرف .

(٢) عفيف طيارة : روح الدين الاسلامي ص ١٩٩ .

(٣) سورة التوبة الآية ١٢٨ .

وإذا وُجِدَ هذا الحب بين الإنسان وبين ربه ، عبده باخلاص
وحرص على تقوية صلته به ، وحينئذ لا تكون صلاته قراءة وركوعاً
وسجوداً ونقراً للأرض برأسه ، ولكنها ستكون انفلاتاً من الدنيا ،
وخلوًا لله واتصالاً به •

وإذا أحب المسلم الخير عمله ووجد لذة ومتعة في عمله ، تفوق كل
آخر وكل جزاء •

وإذا أحب المسلم المسلم اختفت الحاجة الى القوانين وظهر الإيثار ،
ونعم المجتمع بحياة سامية جميلة •

فالحب هو ذلك الهدف السامى ، الذى يدرك من قرأ القرآن الكريم
بعناية أنه أعظم ما يمنحه الله ويعطيه ، وأعلى ما يحرمه ويمنعه ، تعال
بنا الى القرآن الكريم لنرى ما الجزاء الذى يمنحه الله للتوَّاب والمتطهر
والمتقى والمؤمن والمقسط •• وما العقاب الذى ينزله الله بالكافر والظالم
والفسد والخائن والمحتال ••• شئ واحد ولكنه ينطوى على كل شئ ،
إنه الحب يمنحه الله للتوَّاب والمتقى والمحسن ويحرم منه الكافر والظالم
والخائن ••• قال تعالى :

- فاتبعونى يحببكم الله (١) •
- إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين (٢) •
- فان الله يحب المتقين (٣) •
- والله يحب المحسنين (٤)
- والله يحب الصابرين (٥) •
- إن الله يحب المتوكلين (٦) •
- إن الله يحب المقسطين (٧) •

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٢ .
(٤) سورة آل عمران : الآية ١٣٤ .
(٦) سورة آل عمران : الآية ١٨٨ .

(١) سورة آل عمران : الآية ٣١ .
(٣) سورة آل عمران : الآية ٧٦ .
(٥) سورة آل عمران : الآية ١٤٦ .
(٧) سورة المائدة : الآية ٤٥ .

— يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه (١) •

— والله يحب المطهرين (٢) •

— إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص (٣) •

— إن الله لا يحب المعتدين (٤) •

— والله لا يحب الفساد (٥) •

— والله لا يحب كل كفار أثيم (٦) •

— فإن الله لا يحب الكافرين (٧) •

— والله لا يحب الظالمين (٨) •

— إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً (٩) •

— ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ، إن الله لا يحب من كان

خواناً أثيماً (١٠) •

— والله لا يحب المفسدين (١١) •

— إنه لا يحب المعتدين (١٢) •

— إنه لا يحب الخائنين (١٣) •

- (٢) سورة التوبة : الآية ١٠٨ .
- (٤) سورة البقرة : الآية ٩٠ .
- (٦) سورة البقرة : الآية ٢٧٩ .
- (٨) سورة آل عمران : الآية ٥٧ .
- (١٠) سورة النساء الآية ٤٨ .
- (١٢) سورة الأعراف : الآية ٥٥ .

- (١) سورة المائدة : الآية ٥٤ .
- (٣) سورة الصف : الآية الرابعة .
- (٥) سورة البقرة : الآية ٢٠٥ .
- (٧) سورة آل عمران : الآية ٣٢ .
- (٩) سورة النساء : الآية ٣٦ .
- (١١) سورة المائدة : الآية ٦٤ .
- (١٣) سورة الأنفال : الآية ٥٨ .

— إنه لا يحب المتكبرين (١) *

وسيطر الحب على هذا المجتمع وانطلق كالسحر قوله صلى الله عليه وسلم « لا يكمل إيمان المرء حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » فإذا هذا المجتمع يسير ليس فقط تبعا للإسلام ، بل تبعا لروح الإسلام ، لقد سبق أن ذكرنا قصة الرجل الذي جاء يسأل الرسول ، فقال له الرسول : ليس عندي شيء ولكن ابْتَغْ عَلَىَّ * وكيف أن عمر قال للرسول : ما كلفك الله إلا * تملك * هل تصرف الرسول في هذه المسألة تبعا لتعاليم الإسلام وأوامره ؟ وهل يمكن أن تكون هناك تعاليم تقضى بأن يستدين إنسان ليمنح إنسانا آخر ؟ لا قاله سبحانه يقول « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » (٢) ، لكن الرسول لم يتصرف هذا التصرف لأنه مكلف به ، بل لأنه يحب الخير * وإن جهدت نفسه في سبيله ، إنه تصرف تبعا لروح الإسلام لا تبعا لقانونه ، هنا رجل محتاج وربما كانت حالته لا تشجع التجار على إقراضه ، والرسول يستطيع أن يسد حاجة الرجل ولو بطريق القرض ، وسعيه لله على السداد ، تلك هي روح الإسلام أن تحس بأن حاجة الناس هي حاجتك ، وأن تعمل على عون الناس ومساعدتهم ما استطعت إلى ذلك سبيلا ، لا لأنك مكلف بهذا بل لأنك تحب الخير وتحس بالسعادة أن تقوم به *

وذلك الرجل الذي حسب الإسلام صياما وصلاة وذكرًا فأخذ يصوم النهار ويقوم الليل ، ويكثر الذكر ، ويعتمد على الناس في الإحسان إليه ومساعدته بالطعام والشراب واللباس ، هذا الرجل مسلم بلا شك ، ولكن روح الإسلام غابت عنه ، هذه الروح التي تكره أن يعيش الإنسان على جهد سواه ، وألا يسهم في خير الإنسانية وكفاحها * وأن يكون مستهلكا ولا انتاج له ، ولذلك أرشد الرسول أصحابه إلى روح الإسلام

(١) سورة النحل : الآية ٢٣ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٧٦ .

في هذه القصة ، فسأل أيكم يكفى طعامه وشرابه ؟ فلما قالوا له : كلنا .
قال : كلكم خير منه .

وعندما حانت الهزيمة بالمسلمين في غزوة أحد ، وركزت قريش جيدها
للفتك بالرسول ، وقف مسلمون برة يتلقون عن الرسول الردى ويدافعون
عنه وهم مستعدون للموت دونه ، ليس في الاسلام ما يلزم المسلمين
بهذا ولكن حبهم للرسول وادراكهم لروح الاسلام كل ذلك قادهم الى أن
يدركوا مبلغ الخسارة التي يخسرها الاسلام لو قتل الرسول في مثل هذه
الظروف فقدموا أنفسهم فداء له ، ووضعوا أجسامهم هدفا للموت في
سبيله .

ولعلنا الآن نستطيع أن نكتفى بهذا القدر من الحديث عن روح
الاسلام وسيطرتها على ذلك العهد وهذا المجتمع ، ففي الدراسة السابقة
نماذج كثيرة تبين كيف استطاعت هذه النخبة من المسلمين أن تفهم روح
الاسلام وآدابه وفلسفته ولأن تساير الرسول صلوات الله عليه في فهمه
العميق لهذه الشريعة السمحاء .

المجتمع الاسلامي ونموه ويتفتح

اتسع المجتمع الاسلامي في حياة الرسول حتى شمل جزيرة العرب كلها تقريبا ، وكانت المبادئ التي وضعها الرسول عقب الهجره لمجتمع المدينة ، تسير مع الاسلام أنى سار ، فلما عم الاسلام الجزيرة كانت هذه المبادئ مهيمنة على نفوس المسلمين جميعا ، وبخاصة أولئك الذين تمكن الاسلام من قلوبهم ، وبقي مبدأ واحد وضعه الرسول أصوله أيضا في مجتمع المدينة ، ولكنه كان أكثر وضوحا عندما انتشر الاسلام واتسع نطاقه ، ذلك المبدأ هو ما يسميه بعض المؤرخين المحدثين (١) « عصبه الأمم الاسلامية » . وقد نشأ هذا المبدأ كما قلت بالمدينة في سورة مائدة ، ويبدو ذلك من مراجعتنا لنص المعاهدة التي عقدها الرسول بالمدينة ، وبقي فيها حقوق جماعات المسلمين وواجباتهم ، وحقوق سكان المدينة من غير المسلمين وواجباتهم ، ففي هذه المعاهدة برزت الدولة الاسلامية كما سبق القول ، وبرز كذلك زعيم الدولة الاسلامية الذي يرجع اليه اذا اشتد أمر أو نشب خلاف واسع ، وبرزت كذلك الأسرة الاسلامية المتساوية المتعاونة المتكافلة ، وبالإضافة الى ذلك برز شيء كان موجودا من قبل الاسلام ولكن الرسول أبقي منه جانب الخير ونظمه ورتب حدوده ، وذلك هو وحدات هذا المجتمع ، أو قل : الأسرة أو القبيلة في المجتمع الاسلامي ، لقد دعم الرسول التعاطف بين أفراد هذه القبائل ونصت المعاهدة سألقة الذكر على أن بنى عوف على ربعته (أمرهم الذي كانوا عليه) يتعاضلون معاقلمهم الأولى (يسيرون على ما كانوا عليه من التضامن في دفع الدية أو أخذها) وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .، ومثل ذلك المهاجرين من قريش ولبنى الحارث ولبنى ساعدة وغيرهم .

فلما اتسع الاسلام وشمل جزيرة العرب كلها كان هذا التعبير

(١) انظر حياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل ص ٥٧٩ .

« عصبه الأمم » أدق دلالة وأوضح معنى ، فقد رد النبيُّ الأمراء الى امارتهم والمالوك الى ممالكهم بعد أن أسلموا ، ولم تكن في الجزيرة مستعمرة خاضعة لمكة أو ليثرب ، وكان العرب يومئذ جميعا سواسية أمام الله في ايمانهم المتين به ، وكانوا جميعا يدا واحدة على من اعتدى عليهم ، أو حاول فتنهم عن دينهم (١) •

وكان الرسول بذلك يضع الدستور الاسلامي للأجيال القادمة ، ويهيئ الأمر للعلاقات بين الدول والممالك الكبرى التي كان يدرك أن الاسلام سينتظمها في يوم ما ، وخلصه الدستور هو وحدة بلا استعمار ، مركزية في الأهداف ، والسياسة ، والرياسة العليا التي تتكلم باسم الجميع في الشؤون الخارجية والقضايا العامة ولا مركزية في المشكلات الداخلية •

ذلك هو المجتمع الاسلامي الأول الذي كونه الرسول صلوات الله عليه على أساس من الايمان بالله والاخاء والحب فكتب له النصر ، وتقدم من فوز الى فوز ، وانطلق أفرادهم يحملون هذه الرسالة السامية الى أركان الأرض ، أو قل انطلقت هذه الرسالة من تلقاء نفسها الى أركان الأرض ، وكانت تنتشر ولو انهزمت جيوش المسلمين ، وكانت تتقدم ولو تراجع أولئك الذين يحملون قبسها ويدافعون عنها •

ذلك هو المجتمع الاسلامي كما كونه الرسول وأضفى عليه من خلقه السامي وسيرته العطرة ، المجتمع الذي كان مثال الايثار في عالم كله أثر ، المجتمع الذي كان نورا وهاجا في عالم مشحون بالظلمات ، فلنسر خطوات أخرى مع هذا المجتمع لنرى كيف تجاوز الجزيرة العربية ، حاملا الرسالة السامية للعالم أجمع ، ثم لنرى كيف تسرب له الداء ، فأكل من لحمه وأوهن عظامه ؟ وكيف بدأ البعث الجديد ؟ وما الوسائل التي ندعم بها هذا البعث لنجبل مستقبلنا بماضيها ، ولنستعيد الزمام الذي أفلتت حيننا من أيدينا •

(١) حياة محمد للدكتور هيكل ص ٥٧٩ •

المبحث الثاني في عهد الصحابين :

كان الصديق والفاروق عضدى الرسول في أثناء حياته ، واستطاعا أن يصلا الى أسرار الدعوة الإسلامية وكنهها انسامى . ولما لحق الرسول بالرفيق الأعلى حملا العبء بكفاءة ممتازة وعبقورية نادرة زادوا عن الإسلام بثبات ورباطة جأش عندما تجمعت قوى الشر تعارضه بعد وفاة الرسول وكان للإسلام بقيادتهما الفوز المبين ، ودفعوا عجلة الإسلام خارج جزيرة العرب ، وحطما القوة الرهيبة التى كانت تهدد الإسلام من الشمال ، وكانت تعدّ العدة للقضاء عليه ، كما أزالا الحاجز الحصين الذى كان يقف حائلا بين الإسلام والشعوب المتطلعة اليه ، وانهارت جيوش قيصر وكسرى التى كانت تدافع عن الباطل أمام جيش الحق والتوحيد ، ووقفت جيوش المسلمين عقب النصر ، وتقدم العلماء يدعون الناس للدين الجديد ويشرحون لهم أسسه ومبادئه وأخلاقه ، ودخل الناس في دين الله أفواجا وانفسح المجتمع الإسلامى وتباعدت أطرافه ، ولكن عين الخليفة كانت ساهرة ، واحاطته بتعاليم الإسلام وروحه كانت كاملة شاملة ، وفي المجتمع الجديد جدّت مشكلات ، ولكن الخليفة الملهم الموهوب اقترح للمشكلات الحلول الموفقة ، لا شيء يمكن أن يصف ما أحرزه أبو بكر وعمر من توفيق الا وصف واحد ، هو أنهما كانا ملهمين ، وان شئني هامين يجب أن يذكر بجانب الخليفتين العظيمين هما أن الخليفتين وُفّقَا لتوسيع رقعة العالم الإسلامى ووُفّقَا كذلك فيما أدخلاه على الدراسات الإسلامية من تفاصيل وشروح استجابة لمطالب هذا المجتمع الجديد ، فقد كان الرسول على صلة بالله سبحانه عن طريق الوحي ، وكان الوحي يمدّه بحلول لمشكلات المجتمع ، فلما انقطع الوحي بوفاة ، اجتهد كل من الخليفتين في حدود المبادئ الإسلامية والقرآن الكريم والحديث الشريف ، والفهم الكامل لروح الإسلام وقيمه ، فاستطاعا أن يحصلوا على حلول موفقة لما صادفهما من مشكلات . وكان عمر في ذلك الباب نسيج وحده ، لأن المجتمع الإسلامى اتسع في عهده ، وكثرت مطالبه ، وبرزت فيه حالات

لم تظهر في عهد الرسول وعهد أبى بكر ، ويقول ابن تيمية انه لما تولى أبى بكر وعمر صارا كاملين في الولاية ، واعتدل منهما ما كان ينسب لكل منهما في عهد الرسول من لين الأول وشدة الآخر (١) . وسنرى في دراسته القادمة صورة لهذا المجتمع الواسع وهو يسير بنجاح محققا خير الدنيا والآخرة .

عهد أبى بكر

وأول ما يطالعنا في عهد أبى بكر ذلك الدستور الرائع الذى افتتح به أبو بكر خلافته مبرزا النهج الذى سيسير عليه فيما يتعاقب بسياسة الحكم ، وفيه يقول :

« أيها الناس ، انى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فان أحسنت فأعينونى ، وان أسأت فقومونى ، الضعيف فيكم قوى عند حتى آخذ له حقه ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه ، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فان عصيت فلا طاعة لى عليكم .

« انى وليت هذا الأمر وأنا له كاره ، والله لوددت أن بعضكم كفانيه . ألا وانكم أن كلفتمونى أن أعمل فيكم بمثل عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أقم به ، كان رسول الله عبدا أكرمه الله بالتوحى وعصمه به ، ولكنى بشرت بخير من أحد منكم » .

وسار أبو بكر في خلافته خير سيرة ، جاعلا الأسس التى وضعها الرسول للمجتمع الإسلامى نبراسا يهتدى به ، ويسير فى ضوئه . كان بلا نزاع قدوة حسنة للمسلمين ، وكان عادلا عطوفا على غير المسلمين ما سألوا . وكانت أعماله لتحقيق العدالة الاجتماعية قوية ناجحة ، وكان لا يتأجج بأمر من غير شورى ، إلا أن يكون القرآن الكريم أو الحديث

(١) السياسة الشرعية فى اصلاح الراعى والرعية لابن تيمية ص ٧ .

الصحيح صريح الدلالة على هذا الأمر ، وحينئذ فاتباع للدستور الاسلامي
الخالد ، وكان الناس عنده سواسية لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على
عربي إلا بالتقوى ، وكانت روح الاسلام توجه تفكيره وتقرر اتجاهاته ،
وفي الصفحات التالية سنبرز هذه الاتجاهات خلال مواقف خالدة قام بها
أبو بكر :

كان موقف أبي بكر عقيب وفاة الرسول دليلاً قوياً على عبقريته ،
وعمق إيمانه بالله ، وفهمه الكامل لتأموس الحياة حتى ولو زادت أبصار
الآخرين وأثرت فيهم الخطوب والأحداث ، وأول ما يبرز من ذلك
ما ذكره المؤرخون من أن انتقال الرسول للرفيق الأعلى أذهل العقول
وأطار الأبواب ، حتى أن عمر بن الخطاب مع رجاحة عقله وسداد رأيه
راح يهدد بالويل كل من قال إن محمداً قد مات ، ولكن أبا بكر مع
عظم المصيبة عليه ، لم تستطع هذه المصيبة أن تنسيه حقائق الكون
وطبيعة الحياة ، فدخل على الرسول وهو مسجى في جكاد وشجاعة ،
وكشف عن وجهه وقبّله في جبينه وقال : « بأبي أنت وأمي قد ذقت الميتة
التي كتب الله عليك ... ما أطيبك حياً وما أطيبك ميتاً » ثم خرج الى
الناس ووقف بينهم وقال : أيها الناس ، من كان يعبد محمداً فإن محمداً
قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، « وما محمد إلا رسول
قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن
ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين » (١) .

وبهذا أعاد أبو بكر الى الناس رشدهم ، وأزال عنهم الاضطراب
والشكوك وعرفهم هذه الحقيقة ليتدبروا أمرهم ، وليفكروا فيما يصنعون
لدينهم ودنياهم عقب وفاة الرسول .

وكانت الصلوات الجمعة بين الرسول وبين أبي بكر تحتمل أن يكون
أبو بكر من أهم من يعنى باعداد جثمان الرسول للدفن ، ويصحب ذلك

(١) سورة آل عمران : الآية ١٤٤ .

الجثمان الطاهر الى مثواه ليودعه الوداع الأخير بعد عِشْرَةِ طويلة أضفى فيها الرسول على الصديق آيات حبه ورضاه وتقديره ، وقابل الصديق ذلك بالعمى حيث يقل المعين ، وبالاخلاص الجهم فى حاله الظلمات . ولهذا وقف أبو بكر فى صحبة جثمان الرسول يؤدى واجبه المقدس ، ولكن عمر أرسل اليه أن أخرج الينا ، قال أبو بكر لرسول عمر قل لعمره إني مشغول . فرد عمر رسوله ليقول لأبى بكر : انه قد حدث أمر لابد لك من حضوره وعجب أبو بكر ، وسأل نفسه : أى أمر يحتم على أن أذع جثمان الرسول فى هذه اللحظات الحاسمة ؟ وخرج ليرى .

كان الأنصار قد اجتمعوا فى سقيفة بنى سعد ، وأوشك أمرهم أن يتم على تعيين واحد منهم خلفا للرسول ، كما عرف أبو بكر ذلك ، أدرك واجبه تجاه عقيدته ، وتجاه المبادئ الإسلامية التى امضى الرسول زهرة حياته يعامها وينشرها ، فترك جثمان الرسول على كره منه ، وانتزع نفسه انتراما من هذا الجوار الحبيب الى نفسه ، ومن هذه الصحبة فى لحظاتها الأخيرة ليؤدى واجبه وتولى أبو بكر الخلافة ، وممرت الأيام واحتضر أبو بكر فأخذ يوصى عمر بالآلا يشغل نفسه بجثمانه إن مات ، وأن يبادر فيرسل الجنود ليدعم بها جيش المثنى الذى كان يحارب فى العراق ، وذكره أبو بكر بما فعله هو حين وفاة الرسول ، وكيف لم يشغل جثمانه الطاهر عن أداء واجبه وان كان ذلك قد شق عليه ، قال أبو بكر : « اسمع يا عمر ما أقول لك ، ثم اعمل به ، انى لأرجو أن أموت من يومى هذا ، فلا تصبحن حتى تندب الناس مع المثنى ، ولا تشغلنكم مدينة وان عظمت عن أمر فينكم ، وروية بكم ، وقد رأيتنى متوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما صنعت ، ولم يمتب الخلق بعثله ، والله لو تواتينا عن أمر الله وأمر رسوله لأخذنا الله وعاقبنا ، فاضلرمت المدينة علينا نارا »

وهكذا كان التراث الإسلامى فى مقدمة ما يعنى به أبو بكر ، وهكذا كانت روح الإسلام تقوده وترشده .

ولنعد الى الحديث عن خلافة أبى بكر : لما بويح أبو بكر خليفة ، رآه الناس فى اليوم التالى يحمل تجارته فى طريقه الى السوق ، فاعترضه من رآه من المسلمين وفيهم أبو عبيدة الذى قال له : ان هذا الأمر لا يصلح مع التجارة • فسأل : وكيف أعيش وأطعم أهلى ؟ فتدبّر المصاحبة الأمر ، وفرضوا له من بيت المال كفايته لقوته وقوت عياله • ولو أننا تخطينا عدة شهور كما فعلنا من قبل لنرى أبا بكر وهو مشرف على الموت كيف لم تطب نفسه بما أخذ من مال المسلمين نظير تفرغه لمصالحهم ، فقال : « ردوا ما أخذت من مال المسلمين اليهم فانى لم أصب منه شيئاً ، وإن أرّضى التى بمكان كذا وكذا للمسلمين بما قد أكون أصبت من أموالهم ، ويروى عن عمر أنه قال بعد أن نفذ وصية أبى بكر : « يرحم الله أبا بكر ، لقد أحب ألا يدع لأحد بعده مقالا ، ولقد أتعب أبو بكر منّ يجيء بعده تبعاً شديداً » •

ولقد بلغ أبو بكر من التنزه حدا يحسبه أهل جيلنا ممعنا فى المبالغة ، لم تغير الخلافة من حياته شيئاً ، ولم تنتقل به من داره الصغيرة البدوية فى السّوح الى غيرها ، وقد نسي منذ تولى أمور المسلمين نفسه ، ونسى أهله وأبنائه ، وتجرد لله تجردا مطلقا ، وأوجب على نفسه أن يشعر بضعف الضعيف وحاجة المحتاج تحقيقا لمعنى الاخاء فى أسمى صوره • وإيذاًنا بأنه ليس له فى الحياة هوى ، وأنه يقدر بذلك على أن يقيم بين الناس عدلا منزها لا يعرف محاباة • وإنما يعرف حدود الله فى أن يعيش الناس جميعا فى ظلّ هذه الحدود آمنين مطمئنين (١) •

مشكلات ومواجهتها :

ومواجهه أبو بكر عقب بيعته مشكلات قاسية صعبة ؛ فقد كان كثير من العرب حديثى عهد بالاسلام ، وكثيرون منهم اعتنقوه رهبة من حرب أو رغبة فى خير ؟ ولم يكن الايمان قد تعمق فى قلوبهم بعد ، فما ان سمعوا

(١) الدكتور محمد حسين هيكى : الصديق ابو بكر ص ٣٦٢ — ٣٦٣ •

نبا وفاة الرسول حتى تطلعوا الى القلص من سلطان الاسلام ، وأرادوا العودة الى جاهليتهم الأولى حيث الحكم للقوة لا للقانون ، لذلك أرتد كثير من العرب عن الاسلام ومنع آخرون الزكاة ، وتطلعت كل من اليهودية والنصرانية الى استعادة مجدها الزائل وشمسها الغاربة ، وخرج أوغاد في الجزيرة العربية يدعون النبوة ويقولون انهم رسل الله ، وانتفضت الجزيرة كلها انتفاضا على مسلمي مكة والمدينة والطائف ومن تمسك معهم بالدين الحنيف .

لقد تزعزعت عقول كثيرين من المسلمين إزاء هذه الأحداث الجسام بل صرّح بعضهم ألا طاقة للمسلمين بحرب العرب جميعا ، وسجل التاريخ خلافا في الرأي بين أبي بكر وعمر ، ولكنه كان خلافا غير متوقع لقد تعود المسلمون أن يروا عمر صليبا يميل للشدة والصرامة ، وأن يروا أبا بكر سمحا يميل للين واليسر ، ولكن الخلاف في هذه المرة كان على عكس ما عهدته الناس ، كان عمر يتجه للين وعدم الحرب ، وشاركه هذا الرأي جلة الصحابة ، وقد يكون اجتهدهم قادهم الى هذه الطريق ، ولكن الذي لا نزاع فيه أن انتفاض الجزيرة كلها ضد الاسلام والمسلمين كان له أثره على أصحاب هذا الرأي ، ولكن أبا بكر بقى كالطود الشامخ ، لم تصلّ هواجس الخوف الى قلبه ، وأحس أنه المسئول عن مستقبل الاسلام والمسلمين ، وكأنما غمر قلبه إحساس "قوى بأن الاسلام سينتصر وإن الغمة سترتفع ، فصاح بعمر : كنت أدخرك للشدائد فجيئت تخذلني . وصاح بالمسلمين وهو يتحدث عن مانعي الزكاة : « والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه » (١) . وإذا كان ذلك هو موقفه من مانعي الزكاة فكيف يكون موقفه من المرتدين أو مدعي النبوة ومن تبعوهم ؟ وبادر أبو بكر فعقد الأولوية لأهد عش قائدا . وجمع حول كل قائد نخبة من صفوة المحاربين ، وسيرهم الى مواقع الفتن والغدر ، كما أرسل المرتدين ولانهي الزكاة

كتبوا يدعوهم فيها للهودة لهزيمة الاسلام ، ويبدوهم ان استمروا في طغيانهم ولم تمض فترة طويلة حتى كان أبو بكر قد أعاد للجزيرة العربية هدوءها وكشفت الغشارة عن ضلوا ، وكتب للنصر المبين • يقول ابن تيمية (١) : وظهر من أبي بكر من شجاعة القلب في قتال أول الردة وغيرهم ما برز به على عمر وسائر العرب •

ويقول السير توماس أرنولد (٢) عند الحديث عن ذلك الموضوع وتتويج هذه الجهود بالظفر والنصر راجع الى الروح القوية التي بثها محمد في نفوس أتباعه المخلصين •

وكان الرسول في أثناء حياته يرسل القضاة والمعلمين الى البقاع المختلفة في جزيرة العرب ، وكان يرشدهم أن يتبعوا في قضائهم الكتاب والسنة ، فان لم يجدوا فيهما الحكم المطلوب اجتهدوا وحكموا حسبما يقضى به اجتهادهم فلما مات الرسول جدت مشكلات كثيرة لم يقع نظيرها في أثناء حياته ، فاجتهد أبو بكر واستشار أصحابه ، وأقدم بشجاعة على ما أداه اليه اجتهاده من نتائج ، ولعل من أعظم المشكلات التي صادفت أبا بكر في مطلع خلافته مشكلة جمع القرآن •

جمع القرآن :

كانت حرب اليمامة أعظم حرب وقعت بين المسلمين والمتمردين وعلى اثرها آذنت دولة المتمردين جميعا بالانكماش فالزوال ، ولكن ضحايا المسلمين فيها كانوا كثيرين ، فقد استشهد فيها ألف ومئتان من المسلمين من بينهم عدد كبير من كبار الصحابة ومن حفاظ القرآن ، وكان من بين القتلى زيد بن الخطاب أخو عمر بن الخطاب وقد حزن عليه عمر كثيرا ، يروى أنه لما رأى ابنه عائدا من الغزوة قال له :

(١) السياسة الشرعية في اصلاح الراعى والرعية ص ١٧ •

(٢) The Caliphate p. 18. (٢)

ما جاء بك وقد هلك زيد ؟ ألا وارىت وجهك عنى ؟

قال عبد الله : سأل الله الشهادة فمنحه إياها ، وجهدت أن تساق إلى فلان أعطتها . على أن حزن عمر على أخيه لم يشغله عن أمر ذى بال ، فقد رأى أن كثيرين من الحفاظ ماتوا في هذه المعركة ، فأسرع إلى أبى بكر وهو في مجلسه بالمسجد وقال له : إن القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس ، وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن ، فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه ، وإنى لأرى أن تجمع القرآن . وكان ذلك الموضوع مفاجأة لأبى بكر لأنه لم يكن قد فكر فيه ، ولذلك أجاب أبو بكر : كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسولى صلى الله عليه وسلم . قال عمر : هو والله خير . وفكر أبو بكر في الأمر واقتنع بأن مصلحة المسلمين أن يجمعوا القرآن ولو أن الرسول لم يفعل ذلك ، فقد كان أبو بكر يدرك أن على المسلمين أن يجتهدوا ليحطوا ما يصادفهم من مشكلات ، ولعل ذلك كان مطلع الاجتهاد في أمر اختلفت فيه الآراء بين الاتباع المطلق وبين الاجتهاد في ضوء الظروف الجديدة وفي حدود اتعاليم الإسلامية والمصلحة العامة ، وقد انتصرت هذه الفكرة ، وعندما طلب أبو بكر من زيد بن ثابت أن يجمع القرآن ، وكان عمر حاضراً ، قال زيد : كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله ؟ فدافع أبو بكر عن رأيه ورأى عمر حتى شرح الله قلب زيد لهذا الرأي ، واضطلع بهذه المسؤولية العظمى ، فجمع القرآن من الرقاع والشعشب وصدور الرجال .

ماذا بعد موت الخليفة الأول ؟

وهناك اجتهاد آخر أقدم عليه أبو بكر في محيط الأنظم السياسية ، وذلك هو تعيين خلف له بعد استشارة كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار ، ومن الثابت عند جمهور المسلمين أن الرسول صلوات الله عليه لم يعين خلفاً له ، وعلة ذلك واضحة ، فإن الرسول لو اختار للمسلمين من يخافه لظن القوم أن هذا الاختيار هو من وحى الله تعالى ، ولخضعوا للخليفة دون

أن يحاسبوه أو يراقبوه ، والرسول لا يضمن ألا يخطئ الخليفة أو يزلّ ، وكان الرسول يدرك أن تعيينه خلفا له سيعطى هذا الخلف نوعا من الحصانة ، فلا يستطيع الناس خلعه أو الخروج عليه لو جاوز الصواب ، لهذه الأسباب ترك الرسول مسألة الخلافة دون أن يؤثر فيه فيها توجيه واضح ، ولكن هذه الأسباب كانت كما ترى خاصة بالرسول ، فماذا يمنع أبا بكر من الاجتهاد والتفكير في هذه المسألة عظيمة الشأن ؟

ثم إن الظروف التي أحاطت بالفترة الأخيرة من حكم أبي بكر كانت خطيرة ، فالجيوش الإسلامية تخوض معارك طاحنة ضد الفرس والروم وهذه الجيوش في حاجة متصلة الى المدد والرعاية ، كان أبو بكر لا يزال يذكر الخلاف الذي حصل عقب وفاة الرسول ، وخشى أبو بكر إن اختلف المسلمون على الخلافة بعد موته أن يؤدي هذا الخلاف الى الاضطراب ، واضطراب العاصمة وعدم استقرار الحكم سيؤديان إلى أوخم العواقب بالنسبة للمحاربين المسلمين •

إزاء ذلك كان لابد لأبي بكر أن يجتهد وأن يستشير الصحابة ، وقد أداه ذلك الى تعيين عمر ، وكتب بذلك وثيقة حفظت على المسلمين وحدتهم وضمنت للمحاربين الرعاية التي أدت الى النصر المبين ، وعقب البيعة اتجه أبو بكر لله وقال : اللهم إني لم أرد بذلك إلا صلاحهم ، وخفت عليهم الفتنة فعملت فيهم بما أنت أعلم به ، واجتهدت لهم رأيا فوليت عليهم خيرا وأقواهم وأحرصهم على الرشد •

وضرب أبو بكر مثلا عاليا للحكام ، يحثهم على أن يقف كل منهم وقفة من حين الى آخر يحاسب نفسه ويفكر فيما قدّم من خير وفيما وقع فيه من أخطاء ، فمثل ذلك الحساب جدير أن يقود الى طريق الخير والرشاد ، روى عبد الرحمن بن عوف أن أبا بكر بعد أن كتب وثيقة تعيين عمر قال : إني لا آسى على شيء من الدنيا إلا على ثلاث فعلت وددت أنى تركتكن ، وثلاث تركتكن وددت أنى فعلتكن • • والذي يقرأ هذه

القصة يدرك بساطة الأخطاء التي اعتقد أبو بكر أنه ارتكبها وتمنى لو لم يفعلها ، ولكن الأهم من ذلك أن القارئ يدرك أن أبا بكر لم يكن يغفر لنفسه الهفوات وكان يجمع زلاتها ويخضعها لحساب مريد *

وكان أبو بكر شديد البر والعطف على الفقراء والمحرزين ، وكان يتولى بنفسه رعايتهم ، فان ضاق بذلك مال بيت المال اتسع له ماله الخاص ، وكان حريصا على أن يقدم للمساكين ما يحتاجون اليه دون أن يعلم بذلك أحد ، روى أن عمر بن الخطاب كان يتعهد امرأة عمياء ، ولكنه كان كلما جاءها ألفاها وقد قضيت حاجاتها ، فترصد عمر يوما ليعرف من الذي يقوم بخدمةها دون فتور ، فاذا به أبو بكر ، ومما أشر عنه قوله : إن أشقى الناس في الدنيا والآخرة الملوك ، فمنهم من إذا ملك زهده الله فيما بيده ورغبته فيما بيد غيره *

« ولا حاجة الى القول بأن مثال أبي بكر كان أسوة عظماله في سائر بلاد شبه الجزيرة ، وإن طمأنينة العرب التي عدل الخليفة وانصافه ، والى بره ورحمته ، والى حكمته وحسن سياسته ، كانت من العوامل ذات الخطر في نجاح سياسته » (١) كما كانت من أهم العوامل التي ضمننت أن ينعم المجتمع الاسلامي في هذه الفترة بكل عناصر السعادة والتوفيق *

عهد عمر بن الخطاب

عمر بن الخطاب جدير بما ناله من اهتمام المؤرخين القدامى والمحدثين ، وسأحاول أن أكبح قلمي لأكتب عن هذا الخليفة من ناحية اتصاله بالمجتمع الاسلامي ، خيف أن ينفلت القلم مبهورا بسيرته الزكية وأعماله الجسام *

وقد سبق أن أشرنا الى مكانة الصديق والفاروق من الرسول ، وأن الصاحبين أكملوا البناء الشامخ الذي وضع الرسول أسسه الثابتة ، كان أبو بكر

(١) الصديق أبو بكر ص ٣٧٦ *

رأى خليفة ولكر الشهادة أنه لم يكن وحده ، بل كان عمر معه ، كان كل منهما يكمل الآخر •

قال أبو بكر لعمر عندما اشتد الجدل في سقيفة بنى ساعدة : ابسط يديك نبأيح لك •

قال عمر : أنت أفضل مني •

قال أبو بكر : أنت أقوى مني •

قال عمر : إن قوتي لك مع فضلك •

وهكذا يمكننا أن نقول دون تحرج : أن كرسى الخلافة سفل في وقت واحد بفضل أبي بكر وقوة عمر • وقد كان الناس يدركون ذلك ، ويحسون بسلطان عمر ونفوذه في عهد الصديق العظيم ، حتى قال بعضهم لأبي بكر : والله ما ندري أنت خليفة أم عمر ؟

قال أبو بكر : إنه هر لو كان شاء •

وكان هناك فارق واضح يلحظه الباحث بين الصديق والفاروق ، وهذا الفارق يرسم صورتيهما رسماً دقيقاً ، استمع لخطاب أبي بكر الذي افتتح به خلافته : أيها الناس إني وأيت عليكم ولست بخيركم ••• وإلى خطاب عمر في موقف مماثل : أيها الناس إني وأيت عليكم وأولاً رجاء أن تكون خيركم لكم ، وأقواكم عليكم وأشدكم اضطلاعاً بما ينبغي من دهم أموركم ، ما وأيت ذلك فيكم ، ولو علمت أن أحداً أقوى مني على هذا الأمر لكان أن أقدم فتضرب عنق أحب إلى من أن أليته •

تواضع سمع من أبي بكر يتفق مع نفسه السمحة الرضية • واعتداد بالنفس من عمر يتفق مع ظموه وقوته ، ثم قل من ناحية أخرى إن سماحة أبي بكر كانت تتفق مع الظروف التي تولى فيها الخلافة ، حيث

كان العالم الاسلامي محدودا بالجزيرة العربية ، وحيث كانت تعيش النخبة الطيبة من أصحاب الرسول في تواضعهم وصفاتهم ، أما عمر فقد تولى الأمر وقد امتد الاسلام الى أرض الفرس والروم ، وكثر المسلمون عدداً ، واتصلوا بحضارات الأمم المفتوحة ، وتطلع بعضهم الى الاستمتاع بالنعيم الذي كان يرفل فيه حكام هاتين الإمبراطوريتين وقادتهما ، كان عمر على صلة تامة بهذا التطور طيلة عهد سلفه ، ولذلك كان لابد له أن يتولى هذا الأمر في قوة واعتداد بالنفس ، ليكبح جماح الطامعين •

وهناك ملاحظة أخرى تبرز في حياة عمر وتتصل بالتطور الاجتماعي أيضا اتصالا وثيقا ، تلك هي العطف واللين والرحمة التي ملأت نفسه ، وأصبحت أبرز خصاله عقب توليته الخلافة ، فقد عرّف الناس عمر في عهدي الرسول وأبى بكر شديدا حازما ، وصوّره التاريخ لنا على أنه الشخص الوحيد الذي مثل منذ دخل الاسلام حتى تولى الخلافة دور الشدة والقوة بجانب الرسول وبجانب الخليفة الأول ، حتى إذا آل له الأمر انقلب رخاء ويسراً ورحمة •

نجد في غزوة بدر يصير على إعدام أسرى قريش ، ويهتف بالرسول قائلا : هؤلاء أئمة الكفر ، اضرب أعناقهم ، مكّنّى من أقربائهم فيهم ، ومكّن عليا وحمزة من أخويهما فنضرب أعناقهم •

ونجد شدته قد ذاعت ، وأصبح اسمه مقترنا بالجد والحزم عند الصغار والكبار ، فلقد رمى أن جارية سوداء في بيت الرسول ، فذرت مرة إن عاد الرسول سالما من إحدى غزواته أن تضرب بالدف فرحا وسورا ، فلما عاد الرسول سالما استأذنته أن تقي بنذرهما فأذن لها ، وأخذت الجارية تضرب بالدف أمام الرسول ، ودخل أبو بكر وعثمان وعلي وغيرهم من أبة ، وجلسوا مع الرسول والجارية مستمرة في فرحها ونشاطها . ثم دخل عمر فسرعان ما وجهت الجارية وأسرت تخفى دفا ، فقال الرسول : يا أبا عبد الله ! يا أبا عبد الله ! يا أبا عبد الله !

ويستمر عمر في شدته وحزمه في عهد أبي بكر ، حتى إذا أصبح عمر خليفة برز ما كمن في نفسه من عطف ولين ورحمة ، ولا شك أن أصدق تصوير لنفس عمر ما حدث به عن نفسه في هذا الموضوع ، قال :

« بلغنى أن الناس هابوا شدتى ، وخافوا غلظتى ، وقالوا قد كان عمر يشدد علينا ورسول الله بين أظهرنا ، ثم اشتد علينا وأبو بكر والينا دونه ، فكيف وقد صارت الأمور إليه ؟ ومن قال ذلك فقد صدق » .

« إننى كنت مع رسول الله ، فكنت عبده وخادمه ، وكان من لا يبلغ أحد صفته في اللين والرحمة ، وكان — كما قال الله — بالمؤمنين رءوفا رحيفا ، فكنت بين يديه سييفا مسلولا حتى يغمدنى أو يدعنى فأمضى ؛ فلم أزل كذلك مع رسول الله حتى توفاه الله وهو عنى راض ، والحمد لله على ذلك كثيرا وأنا به أسعد » .

« ثم ولى أبو بكر أمر المسلمين فكان من لا تتكرون دعتهم وكرمه وليته ، فكنت خادمه وعونه ، أخلط شدتى بليته ، فأكون سييفا مسلولا حتى يغمدنى أو يدعنى فأمضى ، فلم أزل معه كذلك حتى قبضه الله عز وجل وهو عنى راض ، فالحمد لله على ذلك كثيرا وأنا به أسعد » .

« ثم إنى قد وليت أموركم أيها الناس ، فاعلموا أن تلك الشدة قد ضوِّعت ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدى على المسلمين ، فأما أهل السلامة والدين والقصد فأنا ألين لهم من بعضهم لبعض ، ولست أدع أحدا يظلم أحدا أو يعتدى عليه حتى أضع خذه على الأرض وأضع قدمى على الخد الآخر حتى يذعن للحق ، وإنى بعد شدتى تلك أضع خدى على الأرض لأهل العفاف وأهل الكفاف » .

وهكذا يبدو لنا بوضوح أن رحمة عمر الكامنة في نفسه لم يكن هناك ما يدعو لإبرازها في عهدى الرسول وأبى بكر ، فقد فاضت رحمة الرسول ورحمة أبى بكر حتى لم يبق لعمر مجال في هذا الاتجاه ، فلما آل له الأمر

وأصبح مسئولاً عن الرحمة والشفقة ، وملجأ الكنان للمعوز والمظلوم ،
ومصدر الحزم للظالم والجائر ، وفيّ عمر بهذين الهدافين وزاد •

نماذج من حزم عمر :

فأبو سفيان ، مع حوِّله وطوله يظلم مسلماً فيأمره عمر بأن يرد
للمسلم حقه ، فيتردد أبو سفيان ، وحينئذ يهرى عليه عمر بالدرة ولا يدعه
حتى يعيد الحق الى نصابه •

وسيف الاسلام خالد بن الوليد القائد الذي لم يهزم قط ، والذي
أبلى أعظم بلاء في نصرة الاسلام ، يأخذ عليه عمر بعض المآخذ فيقرر عزله •

وجبله بن الأيهم آخر ملوك الغساسنة يدخل الاسلام ويذهب ليطوف
بالبيت ، وهناك يبطأ أعرابي ذيل إزاره سهراً ، فيلتفت الملك اليه ويلطمه لكمة
قاسية • ويقضى عمر للأعرابي أن يثأر لنفسه ، ولا احتج جبله بأنه ملك
والأعرابي سوقة ، أجابه عمر : لقد سوى الاسلام بينكما •

تلك صورة موجزة من شدة عمر ، وهي ومثيلاتها تدل دلالة قوية على
أنها قسوة في الحق ، قسوة لا تعرف الطغيان ولا التشفى وإنما تقيم
العدل وتكسر حدة الظالم •

ونماذج من لينه وسماحته :

وبجانب ذلك نجد نفس عمر تفيض رحمة ولينا وسماحة ، نجده يسرع
إلى دار الدقيق ليحمل منها عدلاً لامرأة فقيرة وصغارها الجائعين ، وفي
دار الدقيق يقول لمولاه « أسلم » : احملْ علي هذا العدل • فيقول أسلم :
أنا أحماه عنك يا أمير المؤمنين ، ويكرر عمر قوله ويكرر أسام جوابه ، فيضيق
به عمر ويصيح : لا أم لك ، أنت تحمل عني وزري يوم القيامة ؟ احمله
عليّ • ويسرع عمر الى المرأة ، ويساعدها في الطبخ وتبريد الطعام وإطعام
الأطفال •

ويذهب مرة في سمه الى فادر الدينة فيسمع أنين امرأة ، ويتساءل عنها ، فيخبر أنها قد جاءها المخاض ، فيمترسل عمر ليسأل : من معها يساعدنا ؟ فيرف أنها امرأة غريبة فقيرة نزلت هي وزوجها في هذه البقاع حديثا ، فيسرع عمر الى زوجته ويسألها : هل لك في أجر ساقه الله إليك ؟ ويخبرها الخبر ، فتواثق على الذهاب لمساعدة المرأة ، ويصحبها عمر حاملا على ظهره دقيقا وشحما ، وتحمل زوجته ما يصلح للولادة ، ويجلس عمر مع الزوج يحادثه ولا يعرف أحدهما الآخر ، ثم تنادى زوج عمر : يا أمير المؤمنين بكسر صا حيك بعلام . فيدرك الرجل أنه في حضرة الخليفة العادل الرحيم ، فيثنى عليه ويشكر له .

وليس من الممكن أن نستمرس في ذكر هذه القصص الرائعة فقد أوردت منها كتب الأدب والتاريخ مجموعة كبيرة ، وكلها تشترك في أنها تصوّر عمر حاكما مسلما مثاليا ، وقدوة حسنة لولاته وأتباعه .

صور من أخلاق عمر :

بقى علينا أن نمصو في نفس عمر جوانب غير جانب الاعتداد بالنفس والرحمة الفياضة ، وتلك الجوانب الجديدة ستصوره الحاكم الذي يترتب على صلاحه صلاح الرعية : « صنفان دن أمتي إذا صاها صلاح الناس ، وإذا فسادا فساد الناس : العلماء والأهراء » :

لعمري في مال المسلمين سياسة وضحا بقوله : ألا إني أنزلت نفسي من مال المسلمين بمنزلة ولي . أمر اليتيم ، إن استغنيت استعفت ، وإن افتقرت أكلت بالعرف تفرشم البهيمة بالبادية : القضم لا الخضم (أي كما تأكل ماشية البادية قليلا قليلا بأطراف أسنانها دون أن تملأ فمها بطعام تحتاج إلى الأضراس لطحنه) .

وهكذا كانت سياسة عمر وحياته ، بيت صغير قليل الأثاث ، طعام

طالما تكوّن من الخبز والزيت والملح : ملابس ان اختلفت عن ملابس المسلمين فهي أقل منها ، وعفة عن مال المسلمين بلغت الغاية وزادت .

كان سارية بن زئيم يقود جيشا من جيوش المسلمين في حرب فارس ، وقد كتب له النصر ، وكان له مما ظفر به المسلمون سَقَط فيه جواهر ، فاستوهبه سارية من الجند وبعث به وبخبر النصر الى عمر ودخل رسول سارية بيت عمر وقت الظهيرة ، وطلب عمر طعاما لنفسه ولضيفه ، فجاء الغداء : خبز وزيت وملح جريش ، ونادى عمر زوجته أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب ، فقالت : انى لاسمع حسّ رجل ، ولو أردت أن أبرز للرجال اثثريت لى غير هذه الكسوة . فأجاب عمر ألا يكفيك أن تكونى بنت علي بن أبي طالب وزوجة عمر ؟ فقالت : ما أقل غناء ذلك عنى .

وبعد أن فرغ الطعام قدّم رسول الجيش لعمر هدية الجيش له ، فتجهّهم وجه عمر وصاح : لا ولا كرامة ، عد الى الجيش وقدم لهم ما غنموه ، وفتح الباب يطرد الرجل من بيته ، واعتذر الرجل ، وذكر أنه أنضى بغيره ، فأبدله عمر بغيرا من إيل الصدقة وجعل بغيره مكانه ، ورجع الرجل آسفا كاسف البال .

وكان عمر شديد الاحساس بالمسؤولية الملقاة على عاتقه ، وهناك قصة شهيرة تعود المؤرخون أن يذكروها ويعلقوا عليها باعجابهم بحساسية عمر وشعوره بحق المسلمين عنده ، وقد سبق لنا أن أشرنا اليها ، ولكنى هنا أعيد الإشارة اليها وأعلق عليها من جانب آخر :

بينما كان عمر يعس اذ رأى نارا فأتجه لها فرأى امرأة وحولها صبيّة يتضورون جوعا ورأى قدرا منصوبة ... فسأل عمر المرأة عما يبكي بنيتها . فقالت : الجوع ، جزى الله عمر . قال وما يدرى عمر بكم ؟ قالت المرأة : يتولى أمورنا ويغفل عنا فأسرع عمر الى بيت الدقيق

وحملَ دقيقا وشحما وسارع للمرأة ، وأخذ يساعدها في طهو الطعام وتقديمه للأطفال وهي تقول له : أنت أولى بهذا الأمر من عمر •

والذي نعجب له في هذه القصة هو إدراك المسامين لحقهم عند الخليفة ، وإدراكهم لواجب الخليفة تجاههم ، وهذا يدل فيما أرى على نضج ديمقراطي رائع ، شمل المرأة والرجل ، والمتعلم والجاهل ، والغنى والفقر •

ومن هذا أيضا ما حكى أن عمر جاءته برود فوزعها على المسلمين بردا بردا لكل منهم ، وأخذ هو أيضا أحد هذه البرود ، وبعد أيام صعد المنبر وناب الناس للجهاد ، فوقف رجل وقال : لا سمع ولا طاعة نسأل عمر : ولم ذلك ؟

قال الرجل : لأنك استأثرت علينا ، لقد خرج نصيبك من البرود بثر واحد ، وهو لا يكفيك ثوبا ، فكيف فصلته قميصا وأنت رجل طويل ؟ فالتفت عمر الى ابنه وقال : أجبه يا عبد الله • فقال عبد الله • لقد ناولته من بردى ما أتم به قميصه • قال الرجل : أما الآن فالسمع والطاعة •

وهكذا كان عمر يسمح للناس بمحاسبته علانية ، وفي جمهرة من الناس ، وكان يرى أن هذا حقهم ، فلم يغضب مرة ، ولم تأخذه العزة بالإثم •

ومن إحساس عمر بالمسؤولية إعلانه أنه مسئول عن أخطاء ولاته ، ولا يعفيه من المسؤولية أنه يحسن اختيارهم ، وقال مرة لمن حوله : رأيتم إذا استعملت عليكم خير من أعلم ثم أمرته بالعدل ، أكنت قضيت ما على ؟ قالوا : نعم • قال : لا ، حتى أنظر في عمله لأرى عملا بما أمرته أم لا •

ومن احساسه بالمسؤولية أنه جعل موسم الحج موسم استطلاع ومحاسبة ، يستقبل فيه ولاته فيسمع منهم ، ويستقبل المسلمين من جميع الجهات ليسألهم عما يشكون منه ، ويستقبل عيونه الذين كان يوفدهم

ليروا أحوال الناس وسلوك الدولة ، ثم يعطى كل ذى حق حقه دون تردد أو إهمال •

على أن إحساسه بالمسئولية وصل الى درجة عالية عندما قرر ألا يبقى في الحجاز ليفد له الشاكون والمظلومون ، وخاف أن يكون بُعد الشقة حائلا دون بعض المسلمين من الحضور للمدينة ، أو إيصال شكواهم اليه ، ورأى من واجبه أن يسعى هو لهم يرى أحوالهم ويسمع منهم • قال عمر : « لئن عشت ان شاء الله لأسيرن » في الرعية حولا كاملا ، فأنى أعلم أن للناس حوائج تقطع دونى ، أما عمالهم فلا يرفعونها إلى ، وأما هم فلا يصلون إلى • فأسير الى الشام فأقيم بها شهرين ، ثم أسير الى الجزيرة فأقيم بها شهرين ، ثم أسير الى مصر فأقيم بها شهرين ، ثم أسير الى البحرين فأقيم بها شهرين ، ثم أسير الى الكوفة فأقيم بها شهرين ، ثم أسير الى البصرة فأقيم بها شهرين ؟ والله لنعم الحول هذا •

المؤمن في ميزان عمر :

ولعمر في تقدير المؤمن ميزان رائع ، نظر فيه الى أن يكون المؤمن عضوا صالحا في المجتمع ، قال : « لا تنظروا الى صيام أحد ، ولا الى صلاته ، ولكن انظروا من اذا حدث صدق ، وإذا ائتمن أدى ، وإذا هم بالمعصية زجر نفسه وكبح جماحها » وقال : « لا يعجبكم من الرجل طنطنته ، ولكن من أدى الأمانة وسلم الناس من لسانه ويده » •

صور من اجتهاد عمر :

وكان عمر في القضاء والاجتهاد موهوبا ملهما ، وقد بدت مواهيه هذه منذ عهد الرسول حتى قال عليه السلام فيه : « قد كان قبلكم رجال من غير أن يكونوا أنبياء ، فان يكن في أمتي أحد فعمر » وقد كان عمر جريئا في اجتهاده ، يعرض رأيه ويدافع عنه ولو كان للرسول رأى سواء وكذلك كان في عهد أبي بكر ، وفي بعض الحالات كان القرآن الكريم

يؤيد رأى عمر كما حدث فى أسرى بدر ، ولنا هنا أن نلاحظ أمرا ذا بال هو أن عمر كان يحترم رأى الآخرين كما يحترم رأى نفسه ، جاءه رجل يمرض عليه قضية فأحاله الى على بن أبى طالب الذى كان يتولى القضاء ، ف قضى على فيها باجتهاده ، فلما رأى عمر الرجل سألته عن قضيت

قال الرجل : قضى على بكذا •

قال عمر : لو كنت أنا لقضيت بكذا •

قال الرجل : فما يمنعك والأمر لك ؟

قال عمر : لو كنت أردك الى كتاب الله أو الى سنة رسوله لفعلت ، ولكنى أردك الى رأى ، والرأى مشترك ولست أدري أى الرايين أحق عند الله •

وقد وصل عمر فى الاجتهاد مرحلة عالية بعيدة الأثر فى حياة الدولة الاسلامية ، فاقترح الخراج وأعاد النظر فى توزيع الغنائم ، وفى عطاء المؤلفات قلوبهم وغير ذلك مما سنشير اليه عند الحديث عن عمر والمجتمع الاسلامى •

وفىما يتطرق بالشورى جعل عمر من كبار المسلمين مجلس مشورة له ، لا يبرهم أمرا ولا ينقضه الا بعد مذاكرتهم والاستئناس بشيختهم وسابق علمهم من ماثورات النبى وأحاديثه •

وارتفع بهم أن يكونوا أتباعا له فجنبهم ولاية الأعمال قائلان راجعه فى ذلك : « أكره أن أذنسهم بالعمل » فسبق الدساتير العصرية بحسن تصرفه وصادق تدبيره ؛ فهم كانوا مجلس الأمة ، وليس لأحد من مجلس الأمة أن يلى عملا من أعمال الحكومة ، فهما فى الدولة وظيفتان لا تجتمعان (١) •

(١) عبقرية عمر للعقاد ص ٢٦٠ — ٢٦١ •

وكان كثيرا ما ياجأ للشورى العامة ، فيدعو الناس الى الاجتماع في المسجد ، ويعرض عليهم الأمر الذى يهمه فيستمع لآرائهم ، ويستفيد باتجاهاتهم وأفكارهم •

وكان يأمر الولاة والقادة بالآلا يستبدثوا بأمر وأن يستشيروا من معهم من الصحابة ، ومما ورد فى كتابه الى أبى عبيد الثقفى قائده فى العراق قوله : « اسمع من أصحاب رسول الله وأشركهم فى الأمر » •

على أن أهم ما نحب إبرازه بصدد الحديث عن الحكم وسياسة الحاكم أن الرسول وخليفته كانت حياتهم كلها لمصلحة الرعية ، حتى ليكن القول إن الحاكم كان خادما للحكومين ، ولم ينل أحد منهم لنفسه شيئا قط ، ولكنه أعطى من ماله ومن جهده عطاء لم ينتظر من الناس له جزاء ، كان كل منهم بذلك أسمى قدوة للحكام جميعا مهما اختلف الزمان والمكان (١) •

عمر والمجتمع الاسلامى :

تحدثنا فيما سبق عن شخصية عمر ، ولكننا قد تخيرنا من أخلاقه ما يتصل بالمجتمع لنظل فى حدود الإطار الموضوع لهذا البحث • ونريد أن نتحدث عن المجتمع الاسلامى نفسه فى هذه الفترة الحاسمة من فترات التاريخ •

بدأ التوسع الاسلامى فى عهد الصديق فى السنة الثانية عشرة للهجرة ، ومات أبو بكر فى العام التالى والحرب لا تزال دائرة بين المسلمين وبين الفرس والروم ، وفى عهد عمر كانت الدولة الاسلامية قد امتدت واستقرت ، وهدأت الحروب ، بعد أن شملت الدولة الاسلامية العراق وفارس والشام ومصر وبرقة •

(١) اقرأ كتاب « السياسة فى الفكر الاسلامى » للمؤلف .

لم تعد الدولة الإسلامية عربية ، وإنما شملت أجناسا مختلفة ،
ارتبطت بحضارات قديمة ، كحضارة الفرس والآشوريين والبابليين
والعبرانيين •

ولم تعد الحياة بسيطة . وإنما تعقدت الأمور وجعلت
مشكلات متعددة الجوانب كثيرة الاتجاهات ، فمثلا لم يكن لدى المسلمين
جيش ثابت منتظم ، وكان الرسول وأبو بكر وعمر — في أول عهده —
يندبون الناس للجهاد فيأتى الناس ، ويحضرون معهم طعامهم وسلاحهم
وما يركبونه ان كانوا من الفرسان ، فمن لم يستطع الحصول على فرس
يركبه انضم الى صفوف الرجالاة ، وبعد الجهاد يعود هؤلاء المجاهدون
إيثاروا أعمالهم العادية في التجارة أو الزراعة أو رعى الغنم • فلما
اتسعت المملكة الإسلامية ، وأصبحت لها حدود تصلها بالروم كان لابد
من تكوين جيش يحرس هذه الحدود ويقف أمام الأعداء المتربصين ،
وهكذا اضطر عمر الى تكوين جيش •

ولم تكن هناك مرتبات منتظمة ، بل كان المجاهدون يقتسمون الغنيمة
إن حصلوا عليها ، فإن لم يحصلوا على غنيمة قنعوا بالثواب من الله •
وعادوا إلى أعمالهم التي يترقبون منها • ولكن الجيش المرابط على الحدود ،
والذى اتخذ الدفاع عن الدولة الإسلامية عملا تفرد به له احتياج الى
مرتبات منتظمة ، تصرف لأعضائه ، دون أن يتركوا هم وأسرة لغنيمة
قد تجيء وقد لا تجيء •

ودخل الاسلام أما غير عربية ، فكان لابد من تقديم الناحية العربية
لهؤلاء بشكل ما •

وهكذا احتاجت الدولة الجديدة الى كثير من المنشآت ، وهكذا تطلع
المجتمع الجديد الى نظم جديدة تحل ما ظهر فيه من مشكلات عديدة ،
وقد نهض عمر بهذا العبء الضخم نهوضا عظيما ، ووفق توفيقا بلغ الغاية
(م ١٠ — المجتمع الاسلامى)

فيما أنشأ وما اقترح ، وكان المذهب به حاسماً موهوباً ، ولم يدع أمراً يضطرب ثم يقترح له الدواء ، وإنما كان في الغالب يحس بالحاجة قبل ظهورها فيقيم بالوقاية حتى لا ينشأ الداء . وسنعيش في هذا المجتمع فترة من الزمن لنرى ركبه يسير في أمن ورخاء .

حاجات المجتمع الجديد :

تحدثنا فيما سبق كيف كوّن عمر الجيش ورتب المرتبات ، وقد سار عمر يستجيب للدواعي الجديدة فرتب الدواوين ، وعين لها الموظفين من الفرس والروم والمصريين ، وقسم الولايات ، وضرب الدراهم ، وأنشأ نظام الحسبة ، وثبت التاريخ الهجري ، ونظم البريد ليصل بين أجزاء المملكة الفسيحة ، وبذلك ضعن عمر للمجتمع الاسلامي حياة منتظمة سلسلة تضمن له السلامة وتحقق له الخير .

والدين الاسلامي يشرع للدنيا ، ينظم صلات الفرد بالفرد ، والفرد بالمجتمع ، ويشرع للآخرة فيعلمنا عبادة الله ووحدانيته والايان بالصراف والميزان والجنة والنار ، من أجل هذا أدرك عمر مسؤوليته ليضع للمجتمع الجديد ما يلائمه من نظم وليغير في بعض الأحوال من النظم التي اتبعت من قبله إذا كانت الأحوال في المجتمع الجديد تستدعي الابتكار أو التغيير ، وكان عمر كما يقول الدكتور هيك (١) يسترشد بروح الاسلام لا بالناحية الحرفية فيما يعرض عليه ، وكان لعظيم ايمانه وشدة امتثاله تعاليم رسول الله ، جريئاً في الاجتهاد ، وان خالف ظاهر النص ، فإذا ورد نص لم يبق في أحوال الجماعة ما يقتضى تطبيقه لم يطبقه ، وإذا اقتضت أحوال الجماعة تأويل النص أوّله ، حريصاً في هذا وفي ذاك على ملازمة الحكم لأحوال المجتمع مع اتفاقه في الوقت نفسه مع روح المبادئ والتعاليم المحمدية .

(١) الفاروق عمر ج ٢ ص ٢٨٢ .

وسنعرض فيما يلي بعضا من المشكلات الاجتماعية التي اجنود مييها
عمر ووضع لها حلولا ناجحة ضمنت لهذا المجتمع حياة ناجحة موفقة •

ولعل أبرز الأدلة على اتباع عمر لروح الاسلام أكثر من اتباعه
للناحية الحرفية ، موقفه من كبار الصحابة ، فقد منعهم من مغادرة المدينة
إلا بأذنه ولأجل محدود ، ولم يسمح لهم بالخروج الى الأقاليم أو امتلاك
الضياع بها ، فمن الواضح أنه ليس في الذين الاسلامي أن يمتنع الرجوع
الذي لا حكم عليه من الخروج من بلد الى بلد ، ومن امتلاك الضياع بالحق
والعدل ، ولكن عمر أدرك أن هذه الطبقة من كبار الصحابة لو خرجت
للأقاليم لالتف حولها الناس ولأخذوا بما سيسمعونه منهم من أحاديث
عن صحبتهم للرسول وموقفهم في نصرته ، وسيخلق هذا لهم مكانة في
نفوس الجماهير من الناشئين الذين يتسقطرون الأحداث المتصلة بالرسول ،
فاذا أضيف الى هذا اباحة تملك الضياع لهؤلاء ، ستكون النتيجة أن كلا
منهم سيكون لنفسه دولة في قلب الدولة ، ولهذا منعهم عمر من مغادرة
المدينة إلا بأذن ولأجل محدد كما قلنا ، وكان عمر في ذلك يعمل بروح
الاسلام •

فلما تولى عثمان أذن لهؤلاء بالسفر والاقامة حيث يشاءون ، فكان
ما يخافه عمر ، وأنشأ هؤلاء لأنفسهم أرستقراطية دينية سداها المال ولحمتها
السبق في الاسلام وصحبة الرسول ، وكثر أشياع كل منهم وأتباعه ، فلما
حضرت وفود البلدان تعمل على خلق عثمان ، كان كل وفد حريضا على أن
تسند الخلافة للصحابي الذي يعيش ببلدتهم ، فأهل البصرة يريدون الزبير ،
وأهل الكوفة يريدون طلحة وهكذا (١) •

عمر والفنائم :

ومن اجتهاد عمر أيضا اقتراحه مسألة الخراج ، وقصة ذلك أن

(١) انظر تاريخ الاسلام السياسي للدكتور حسن ابراهيم ج ١ ص
٣٤٥ — ٣٤٦ •

المسلمين كانوا قد جروا حتى أوائل عهد عمر على أن ما يغنموه في الحروب يقسم أخماسا ، فأربعة أخداسه توزع على الجند المنتصرين ، وأما الخمس الخامس فتؤولى الأمر ليزعجه على من شملتهم الآية الكريمة : « واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول وأذى القريبى واليتامى والمساكين وابن السبيل » (١) . فلما فتح المسلمون أرض السواد بالعراق وأرادوا قسمها على هذا النحو ، خالفهم عمر ، واقتراح أن تبقى الأرض في يد زارعيها وأن يدفعوا عنها خراجا لبيت المال ، وفي ذلك ما يجنب الأهلىن في الاسلام ، إذ سيبقى كل في أرضه ، وسيدفع خراجا عنها أقل مما كان يدفعه عنها قبل الاسلام ، ثم ان ذلك سيضمن دخلا منتظما لبيت المال الذى أصبح مسئولا عن دفع مرتبات منتظمة للجند والمقضاة وغيرهم .

ولا شك أن رأى عمر كان ضدمة للجند ، بل كان مخالفا لكل ما في أذهان الناس ، ولكن عمر كان مؤمنا بهذا الرأى فوقف قويا يشرحه ويدافع عنه . دون أن يستعمل نفوذه أو سلطانه لفرضه على المسلمين ، ومالك المسلمون الى هذا الرأى يوما بعد يوم ، وكان في مقدمة من مال إليه عثمان وعلى وطلحة ، ثم أرسل عمر الى عشرة من أشرف الأنصار فجاءوا إليه فقال لهم : إئنى لم أزعجكم الا لتتشاركوا معى فيما حملت من أموركم ، فانى واحد كأحدكم ، وأنتم اليوم تقرضون بالحق ، خالفنى من خالفنى ووافقنى من وافقنى ، ولست أريد أن تتبعوا هذا الرأى لأنه هو هواى ، فوالله لئن كنت نطق بأمر أريده فإنى ما أريد به الا الحق ، قالوا : نسمع يا أمير المؤمنين . وشرح لهم عمر رأيه على نحو ما أوجزناه آنفا فأجابوا : الرأى رأيك فنعم ما قلت وما رأيت (٢) .

(١) سورة الأنفال : الآية ٤١ .

(٢) اقرأ قصة الخوارج في المراجع الآتية :

١ — الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٣١ .
ب — يحيى بن آدم : الخراج ص ٢٧ ، ٢٨ ، ٤٨ .
ج — أبو يوسف : الخراج ٢٩ — ٣٠ .
د — الاقتصاد في الفكر الاسلامى للمؤلف .

كم كنز، عمر دوفقا في هذا العمل الاجتماعي العظيم ، وكم كان عميق الذكر ، يذخر للمسلم وإخيه المسلم ، وينظر للحاضر والمستقبل ، برأى حصيف وإيمان وطيد ، بل بالهام لم يحظ به إلا القليلون .

عمر والمؤلفة قلوبهم :

وتوزيع الزكاة يجرى تبعاً للآية الكريمة « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل » (١) . وكان من المؤلفة قلوبهم في صدر الاسلام جماعة كان الرسول يعطيهم من الزكاة ليتألفهم وليساعد على تثبيت الايمان في قلوبهم ، ومن هؤلاء أبو سفيان وعيينة بن حصن والأقرع بن حابس ، وهم من أصحاب النفوذ في الجزيرة العربية ، وقد كان الرسول يعطيهم بسخاء وكذلك أعطاهم أبو بكر ، فاما جاء عمر حضر اليه عيينة والأقرع ظانين أنه سيسير على نهج الرسول وأبى بكر في هذا الأمر ، ولكن عمر تدبر الأمر وواجههما بقوله « إن الله أعز الاسلام وأغنى عنكم فان تبشما عليه والا فبيننا وبينكم السيف » .

وهكذا وضع عمر هؤلاء الناس على قدم المساواة مع باقي المسلمين ، فعطيهم أن يعملوا كما يعمل الناس ، لا أن يعيشوا عائلة على سواهم ، ولا أن يأخذوا نصيبا أخرى به أن يدفع للفقراء والمساكين ، ومنذ ذلك الحين اتجه الفقهاء الى إعطاء المؤلفة قلوبهم اذا كانوا حديثي عهد الاسلام ، ليستطيعوا أن ينظموا أمورهم ويرثبوا شئونهم ، وبعد ذلك يقطع عنهم هذا العطاء .

عمر والضرورة :

ومن ابتعاد عمر تطبيقه لبدأ الضرورة في كثير من الأحكام الزامية ، فقد برز عليه تنحية امرأة زنت وأقرت بالزنا ، ولكنها عاتية ، فقام

(١) سورة التوبة : الآية ٦٠ .

عن سبب ذلك أجابت بأن السبب هو حاجتها الشديدة إلى ماء يروى ظمأ كانت تعانيه ، وقد أبى صاحب الماء أن يمنحها شربة حتى تسلم له نفسها ، فرفضت حتى اشتد بها العطش وخافت الهلاك فقبلت ، وقد أسنثسار عمر الصحابة في هذا الأمر ، فقال على " إنها مضطرة ، ويأخذ عمر بهذا الرأي ولم يوقع عليها الحد •

وسرق غلمان **حاطب بن أبي بلتعة** ناقة لرجل من مزيينة ، فأتى بهم إلى عمر فأقروا ، فاستدعى الخليفة عبد الرحمن بن حاطب ، وقال له : إنكم تستعملون هؤلاء الغلمان وتجيعونهم حتى أن أحدهم لو أكل ما حرم الله عليه حل له ، وأيم الله إذا لم أقطع أيديهم لأغرمك غرامة توجعك • ثم قال : يا مزينى بكم أريدت منك ناقتك ؟ •

قال : بأربعمائة •

قال عمر لعبد الرحمن بن حاطب : أعطه ثمانمائة :

وأعفى الغلمان من الحد لأن الضرورة هي التي دفعتهم للسرقة •

مجتمع متعاطف

حدثت في عهد عمر حادثة جسيمة ، أو قل أحداث جسام ، وثيقة الصلة بموضوعنا ، تلك هي المجاعة القاسية ، وما جرت من أوبئة فتاكة ، وموت ذريع ، وقد استمرت هذه الأحداث عدة شهور ، جاوزت العام ، ولكنها كانت وثيقة الدلالة على تعاطف هذا المجتمع ، الذي تكوّن منه جسم إذا شكا منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمل والسهر •

تسعة شهور تبتدىء من أواخر السنة السابعة عشرة للهجرة لم يهطل المطر خلالها في شبه الجزيرة ، ثم تحركت الطبقات البركانية بداخل الأرض فاحترق سطحها وما عليه من نبات ، وكثر الرماد الناعم الذي تحمله الرياح حتى سمي هذا العام عام الرمادة •

والجزيرة العربية تعيش على المطر ، انه يهطل فيشرب الناس ويزرعون ويحصدون ، وترعى ماشيتهم فتربى اللحم والصوف وتدر اللبن • فاذا توقف المطر وطال توقفه جف الزرع والضرع ، وعم الجوع والبلاء ، وحلكت الماشية أو أصبحت عجفاء هزيلة ، وهذا ما حصل في هذا العام ، فان الماء نصب ، ونضب معين الرزق ، وجفت الماشية ، حتى أصبح العربي يذبح الماشية ثم يعافها لقبحها وهزالها •

... وقد شملت هذه البلوى الحضر والبادية في الجزيرة العربية • وهرع أهل البادية الى المدينة حيث يعيش الخليفة يطلبون اليه أن يدبر أمرهم ، وبلتهمسون عند أهل الحضر شيئاً مما تعودوا أن يفترونوه •

وأحس عمر بجوع الناس وحرمانهم فحلف ألا يذوق لحماً ولا سمناً حتى يحيا الناس ، ووضع دستوره العادل « كيف يعنيني شأن الرعية إذا لم يمسنى ما يمسهم » قال عياض : رأيت عمر عام الرمادة ، وهو أسود قد تغير لونه من الحرمان وأكل الزيت • وقال يزيد بن أسلم : لو لم يدفع الله المحل عام الرمادة لظننا عمر يموت هما بأمر المسلمين •

وكتب عمر الى الولاة في الشام وفلسطين والعراق ومصر يستجدهم ويطلب منهم العون وكانت عبارته لهم قصيرة عميقة التأثير : « سلام عليك ، أما بعد ، أفتراني هالكا ومن قبلى • وتعيش أنت ومن قبلك • فياغوثة ! يا غوثاه ! يا غوثاه ! » (١) لم يصدر عمر أوامر • وكل ما فعله هو هذه المقارنة التي تقرر ضرورة التعاون في السراء والضراء ، وأن من العدل أن يقتسم الناس الخير والشر ، وليس من الاسلام أن يجوع ناس ويشبع آخرون أو يتخمون •

وسارع المسلمون في كل مكان يلبيون دعوة اخوانهم في الجزيرة العربية ، وانهال العطاء من كل جانب بكثير من السخاء والكرم وكان أبو

(١) السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٦٨ ، والمقرئى : الخطط ج ٢ ص ١٤١ •

عبدة بن الجراح أسرع الأمراء استجابة لنداء عمر ، فقدم من حمص في أربعة آلاف راحلة محملة طعاما ، وكتب عمرو بن العاص للخليفة يقول : أما بعد ، فيالبيك ثم يالبيك ، قد بعثت اليك بعير أولها عندك وآخرها عندي (١) ، وبعت معاوية ثلاثة آلاف بعير من الشام ، وبعث سعد بن أبي وقاص ألف بعير من العراق تحمل الدقيق ، هذا عدا الأكسية الكثيرة التي أرسلها هؤلاء ، وكان عمر يرسل من يستقبل البعير ويميل بها الى المحتاجين ، وكان حريصا على أن يسد خلقة الناس ويزيل عنهم الجوع ، فكان يقول لكل من مندوبيه : أما ما لقيت من الطعام فمِلْ به الى أهل البادية ، فأما الظروف فاجعلها لحفاً يلبسونها ، وأما الإبل فانحرها لهم يأكلون من احوما ويخزنون من ودكها . ولا ترض أن يقولوا ننتظر بها الحيا ، وأما الدقيق فيصنعون ويحرزون حتى يأتي أمر الله بالفرج .

وكان عمر يعدّ الطعام في بيته ويقدمه للوافدين من البادية وغيرهم ممن ليست لهم بيوت بالمدينة ، وقد بلغ من طعموا على موائده ذات ليلة عددا هائلا ، أما المرضى والضعفاء فكان يرسل لهم طعامهم حيث هم ، هذا بخلاف الأسر بالمدينة التي كانت تأخذ الدقيق والأدم وتتولى الطبخ بنفسها .

وضع عمر دستور التعاون الذي لا نعتقد أن المدينة في أسمى مراحلها تستطيع أن تصل اليه قال : لو لم أجد للناس ما يسعهم إلا أن أدخل على أهل كل بيت عدتهم فيقاسموهم أنصاف بطونهم حتى يأتي الله بالحيا فعلت ، فإنهم لن يهلكوا على أنصاف بطونهم .

وما ان انتهى هذا القحط وهبط المطر حتى روع المسلمين حادث آخر ليس أقل خطراً من المجاعة والجذب ، وذلك هو الوباء الذي انتشر في أرض

(١) المرجعان السابقان .

الشام ، وانتقل منها إلى العراق ، وقد نجد هذا الوباء عددا كبيرا من المسلمين . وكان يصيب الرجل فيسقط سريعا ، وكان أبو عبيدة بن الجراح على جند الشام في ذلك الحين حيث انتشر الوباء واستفحل خطرهم . وأبو عبيدة حبيب إلى نفس عمر ، وهو أمين هذه الأمة كما لقبه الرسول ، وكان عمر يفكر في أن يستخلف أبا عبيدة بعده ، ومن أجل هذا فكر في إبعاده عن الشام وما فيه من وباء وموت .

ولكن عمر كان يدرك أن أبا عبيدة يحرص على أن يبقى مع جنده يناله ما ينالهم أو تحميه عين الله ، ولذلك نجد عمر لا يكتب لأبي عبيدة يعلن له ما يسهو بشأنه ، بل يكتفى بأن يكتب له : « أما بعد فإنني قد عرَضْتُ لى اليك حاجة أريد أن أشافهك فيها ، فعزمت عليك إذا نظرت في كتابي هذا ألا تضعه من يدك حتى تقبل إلى » .

ولكن أبا عبيدة أدرك ما أراده عمر ، وعز عليه أن يخلي جنده في منطقة الخطر ويفير بنفسه ، فكتب إلى عمر يقول : « انى قد عرفت حاجتك الى » ، وانى في جند من المسلمين لا أجد بنفسى رغبة عنهم ، فلست أريد فراقهم حتى يقضى الله فيهم أمره وقضاءه ، فحاللتنى من عزمتك يا أمير المؤمنين ودعنى في جندى » . وقرأ عمر هذا الكتاب فبكى ، فدأله من معه : هل مات أبو عبيدة ؟ فأجاب : لا وكان قد مات أبو عبيدة بعد ذلك في وسط الوباء (١) .

(١) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٢٠١ ، والكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٢٢٥ .

غير المسلمين في المجتمع الاسلامى

في أكثر الأقطار الاسلامية يعيش عدد كبير من غير المسلمين ، فعلى مر التاريخ يوجد مسيحيون ويهود في مصر ، وإندونيسيا . والعراق ، والمغرب ، وغيرها ، كيف عاش هؤلاء في الماضي وكيف يعيشون الآن ؟

وفي مقابل ذلك عاش المسلمون أقلية في بعض البلاد ، أو في بلاد حكوماتها غير اسلامية ، كما عاشوا في الأندلس بعد سقوط الحكومات الاسلامية ، وكما عاشوا في فلسطين وقت انتصار الصليبيين ، وكما عاشوا في الهند حتى عهد قريب ، وكما يعيشون في إسرائيل الآن . كيف عاش المسلمون في تلك المجتمعات غير الاسلامية ، وكيف يعيشون ؟

الاجابة عن هذين السؤالين واضحة ، نراها في الواقع الذى نعيش فيه ، ونقرأها عن الماضي فيما دونته أدق المصادر العربية والأجنبية ، تعال بنا نسجل ما شاهدناه وما نشاهده في عهدنا الحاضر ، ثم نعود فنرى ما دونه المؤرخون عن أحداث الماضي .

ففى العهد الحاضر نرى غير المسلمين في المجتمعات الاسلامية يستمتعون بالحقوق الواسعة التى كفلها لهم الاسلام ، وينعمون بالتعاون والود وطيب العشرة التى اشتهر بها المسلمون . ونطوف العالم الاسلامى فهيهات أن نرى شكاة من مسيحي أو يهودى ضد المواطنين المسلمين ، بل كثيرا ما نرى الثروات الضخمة والمتاجر الكبيرة يملكها يهود أو مسيحيون يعيشون في ظل حكومات إسلامية .

وفي العهد الحاضر أيضا ، رأينا — فيما يقابل ذلك — المسلمين الذين يعيشون تحت سلطات حكومات غير اسلامية يعانون ألوانا من الآلام والقسوة والحرمان والاضطهاد ، انهم هكذا يعانون في إسرائيل . حتى هجروا ديارهم ثم لم يسمح لهم بالعودة اليها ، وهكذا يعيشون في الفلبين

مهندسين بالابادة ، وهم كذلك عانوا في الهند قبل التقسيم حتى اضطروا تحت ضغط الوحشية والبربرية أن يستقلوا بقطعة من أرض الهند أطلقوا عليها الباكستان •

والماضى صورة تطابق الحاضر في الحالتين . فقد لقي المسلمون من الحكومات غير الإسلامية صنوف الاضطهاد والتنكيل ، ويحدثنا غوستاف لوبون (١) عن ضرب من ضروب القسوة والبربرية التي كانت طابع حكم الصليبيين في فلسطين فيقول : لم يكتف قومنا الصليبيون الاتقياء بضروب العسف والتدمير والتنكيل التي اتبعوها ، فعقدوا مؤتمرا أجمعوا فيه على اباداة جميع سكان القدس من المسلمين واليهود الذين كان عددهم ٦٠ ألف ، فأفنؤهم عن آخرهم في ثمانية أيام ، ولم يستثنوا منهم امرأة ولا ولدا ولا شيخا • ويقول غليوم الصورى أن الصايبيين كانوا من السفهاء الفاسدين والملاحدة الفاسقين ، ولو أراد كاتب أن يصف رذائلهم الوحشية لخرج من طور المؤرخ ليدخل في طور القادح الهاجى •

أما نتيجة انتصار المسيحيين بالأندلس على المسلمين فيحدثنا عنها الواقع الذى يرينا أنه ليس في أسبانيا الآن مسلم واحد ، لقد ألقوا بالمسلمين في قاع البحر أو أسالوا دماءهم وأزرقوا أرواحهم ، أو ارغموهم إرغاماً على ترك الاسلام والدخول في دينهم فقد نشر في فبراير سنة ١٥٠٢ أمر بطرد أعداء الله المغاربة (المسلمين) من إشبيلية وما حولها إذا لم يقبلوا التعميد ، وعليهم أن يغادروا أسبانيا قبل شهر أبريل وألا يصحبوا معهم ذهباً ولا فضة ، وألا يذهبوا في طريق يقودهم الى أرض اسلامية والنتيجة التي جاءت أثرا لهذه الشروط موت الجميع ودمار الجميع (٢) •

وهكذا ندرك في يسر وسهولة أن المسلمين لقوا في المجتمعات غير الإسلامية ألوانا من الاضطهاد والابادة ، وكان الهدف الذى سعت اليه

(١) حضارة العرب ص ١٩٤ .

(٢) اقرأ الجزء الرابع من موسوعة « التاريخ الاسلامى والحضارة

الاسلامية » للمؤلف ص ١٠٦ .

هذه المجتمعات هو إقناء الاسلام وإرغام ذويه على الارتداد عنه ، فإذا تمسك بعض المسلمين بدينهم أسلموهم الى الدمار والفناء .

أما غير المسلمين في المجتمعات الإسلامية خلال العهود الماضية فقد شهد التاريخ أنهم نعموا في ظل الاسلام بالرخاء والأمن والسلامة ، فقد رسم القرآن الكريم وأحاديث الرسول الطريق القويم للمسلمين في معاملة غير أتباع ديانتهم ، وسار السلف الصالح في ضوء ذلك ، وانحدر هذا الاتجاه خلال عصور التاريخ حتى أثنى عليه وامتدحه الكتاب المسيحيون أنفسهم ، تعال بنا نقتبس من هذا الضوء بعضا منه دليلا على ما أوردناه هنا .

يحث الله تعالى المسلمين أن يحسنوا معاملة غير المسلمين وأن يكونوا معهم بررة وعدولا ، قال تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين . ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين (١) » .

ويبيح الاسلام للمسلمين أن يؤاكلوا غير المسلمين وأن يصاهروهم ، ولا شك أن المصاهرة تخلق امتزاجا بين هؤلاء وأولئك ، فأخوال الأولاد سيصبحون من أهل الكتاب ، وفي هذا رباط كبير أباحه الله بين المسلمين وأهل الكتاب مما يدل على أن الاسلام دين الانسانية ، وفي ذلك يقول الله تعالى : « وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم ، والحسنات من المؤمنين والمؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم » (٢) .

(١) سورة الممتحنة : الآية الثامنة .

(٢) سورة المائدة الآية الخامسة . ويتساءل بعض المفكرين :

« لماذا لم يصرح القرآن بكون اليهودية والنصرانية دينين ؟ »
والجواب : « لأن القرآن جاء ليبيّن الحق ، وليس ليبيّن الدين . »

« لأن الدين جاء من رب العالمين ، وليس من القرآن . »

==

وقد يدخل الابن الاسلام ويظل الأب على غير الاسلام . وهنا يدعو الاسلام الابن أن يظل طيب المصحة لأبيه مع اختلاف الدين ، قال تعالى : « وإن جاهدك على أن تنسك بى ما ليس لك به علم ، فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا » (١) .

ويوضح القرآن للمسلمين أدب الجدال بينهم وبين أهل الكتاب ، ومن هذا الأدب أن يعلن المسلمون ايمانهم بأديان أهل الكتاب تقربا منهم ، وتضييقا للهوّة بينهم ، قال تعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون » (٢)

ومن تسامح الاسلام مع أهل الكتاب الذين يعيشون في بلاد إسلامية أنه أباح لهم ما أباحته لهم أديانهم وإن حرّمها الاسلام على المسلمين ، فليس هناك من حرج على أهل الكتاب أن يشربوا الخمر أو يأكلوا لحم الخنزير ، وليس للمسلمين أن يمنعوهم من ذلك .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم مثلا أعلى في معاملة أهل الكتاب ، فقد روى أنه كان يحضر ولائمهم ، ويعود مرضاهم ، ويشيع جنازاتهم ، ويזורهم ويكرمهم ، حتى روى أنه لما زاره وفد نصارى نجران فرش

وبحكم سلطان الأب ، أما اولاد الأم المسلمة من الأب الكتابى (لو أمكن الزواج) فيحتل أو يكثر أن برغمهم الأب على اتباع دينه ، ومعنى هذا أن تلد الأم المسلمة اولادا يكونون غير مسلمين ، وهذا ما لا يرضاه الفكر الإسلامى .
ثانيا - يعترف المسلم بنبوة موسى وعيسى ، ويكن لهما الاحترام ، لكن تجد الكتابية في رحابه ما يؤلمها في دينها ، ولكن الكتابى الذى لا يعترف بالاسلام ولا بالقرآن ولا بمحمد يحتل أو يكثر أن يهاجم هذه القيم ، أو بمنع زوجته من أداء واجباتها الدينية ، ولهذا منع هذا الزواج .
على أن كثيرين من المجتهدين يمنعون تزوج المسلم من كتابية اذا خيف على الأطفال أو كان في هذا الزواج ما يقوى شوكة اعداء الاسلام عليه وقد شرحنا ذلك بتفصيل كاف في كتاب « الحياة الاجتماعية في التفكير الإسلامى » .

(١) سورة لقمان الآية ١٥ .

(٢) سورة الحنكوت الآية ٤٦ .

لهم عباة وأجلسهم عليها ، وروى أنه كان يقترض من أهل الكتاب فقودا ويرهن عندهم أمتعتة ، حتى أنه توفي ودرعه مرهون عند بعض يهود المدينة في دين عليه ، وكان يفعل ذلك لا عجزا من أصحابه عن اقراضه إذ كان منهم الموسرون الذين هم مستعدون لأن يضحوا بأنفسهم وأموالهم في مرضاة نبيهم ، بل كان يفعل ذلك تعليما للمسلمين وإرشادا (١) .

ويروى عنه صلى الله عليه وسلم قوله : من آذى ذميا فليس مني . وكان حرص المسلمين على الوفاء لأهل الذمة حقيقة مشهورة معروفة ، حتى أنه يروى أن واصلا بن عطاء زعيم المعتزلة قابل مرة عصابة من الخوارج الذين يستحلون دماء المسلمين الذين يخالفونهم في العقيدة ، ورأى واصل أن الطريق لنجاته هو وصحبه من موت محقق ، أن يدعى هو وأصحابه أنهم ذميون وهكذا فعل وهكذا نجا (٢) .

ومن الطبيعي أن السلف الصالح ساروا في معاملة أهل الكتاب سيرة القرآن وسيرة الرسول ، ولناخذ عمر بن الخطاب نموذجا للسلف الصالح ، ففي عهده اتسع العالم الاسلامي وضم آلافا من غير المسلمين ، وفيما يلي سطور من نور تبين جانبا من أدب الاسلام وخلفاء الاسلام :

تحقق النصر لجيوش المسلمين التي تحارب في إيلياء (بيت المقدس) ولكن عمر كان حريصا على السلم بمقدار حرصه على النصر . ولذلك نجده يرحل بنفسه الى هذه المدينة ، ويكتب بينه وبين المسيحيين بها عهده جاء فيه :

« هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان ، أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم ، سقيمها وبريئها . واثرتلتها : أنه لا تسكن كنائسهم ، ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ولا من

(١) عفيف ، ليلارة : روح الدين الاسلامي ص ١٩٩ .

(٢) المبرد : الكامل في اللغة والأدب ج ٢ ص ٢٥٤ .

خيرها * * ولا من صايبتهم ولا من أموالهم ولا يكرهون على دينهم :
ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود * * * » (١) .

وكان عمر لا يكتفى بهذه اليهود يقطعها لهم عليه وعلى قومه ، بل
كان يشفعها بوصاياهم المتكررة الى ولاته أن يمنعوا المسلمين من ظلم أهـ ،
الذمة ، وأن يوفوا لهم بعهدهم ويخففوا عنهم ، وألا يكلفوهم فوق
طاقاتهم ، وقد سجل ذلك في وصيته قبل موته .

ومن الناحية العملية نجد أن عمر وفي بما وعد بل زاد عليه عطا
وتسامحا وحسن معاملة ، فبينما هو في كنيسة القيامة اذ دخل وقت الصلاة ،
فخرج عمر وصلى خارجها ، وقال للبطريك : لو صليت داخل الكنيسة
لخفت أن يقول المسلمون من بعدى : هذا مُصلّى عمر ، وأن يحاولوا
أن يقيموا في هذا المكان مسجداً .

الزكاة للفقراء من المسلمين وغير المسلمين :

وروى أنه رأى شيخاً يهودياً يبسال الناس ، فسأله عمر : ما الذى
حملك على السؤال ؟ فأجاب الرجل : الحاجة والبس . فأخذ عمر بيده
وذهب الى منزله حيث أعطاه عطاءً يسخياً ، ثم أرسله الى خازن بيت المال
مع رسالة قال فيها : انظر هذا لضرياءه فوالله ما أنصفناه إن أكلنا
شبيبته ثم نخذه عند الهرم ، إنما الصدقات للفقراء والمساكين ، وهذا
من مساكين أهل الكتاب (٢) .

وهو وهو في أرض الشام يقوم مجذومين من النصارى ، فأمر أن
يعطوا من الصدقات وأن يجرى عليهم القوت بانتظام (٣) .

(١) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٢٥٩ .

(٢) أبو يوسف ، الخراج ص ٢٥٠ .

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٣٥ .

وبلغ من حرصه على الرحمة بأهل الكتاب أن عزل واليا أحسن أنه ضاق ذرعا ببعض أهل الكتاب في ولايته ، فخاف عمر أن يجور عليهم ؛ روى أن نصارى تغلب كانوا يناوئون واليهم الوليد بن عقبة ، فنجد صبر الوليد مما كانوا يعملون ، فقال شعرا يتوعدهم ويهددهم ، وسمع عمر بعض هذا الشعر فخشي أن يقسو الوليد عليهم ، وأن يبطش بهم ، فعزله عن ولايته وعين أميرا غيره *

الجزية :

وكان أهل الكتاب يدفعون الجزية للمسلمين ، يدفعها منهم القادر على حمل السلاح ، ولا تدفعها المرأة ولا الصبي ، ولا الشيخ ولا الأعمى ... والجزية مقدار ضئيل من المال يتفاوتت بتفاوت حالة الذمى المالية ، وأقصاه ٤٨ درهما في العام ويدفعها الأغنياء ، وهى حوالى جنيهين ، وهى على المتوسطين ٢٤ درهما ، وعلى العمال والصناع ١٢ درهما *

وتدفع الجزية لأسبابين :

١ — يستمتع أهل الكتاب بالمرافق العامة مع المسلمين ، كالقضاء والشرطة وغيرهما ، والمرافق العامة تحتاج الى نفقات يدفع المسلمون قسطها الأكبر ويسهم أهل الكتاب بالجزية فى تكاليف هذه المرافق *

٢ — لا يكلف القادرون من أهل الكتاب أن يحملوا السلاح ويدافعوا عن البلاد بل يقوم بذلك المسلمون ، ولذلك يدفع أهل الكتاب هذه الضريبة تخيرا عفااتهم من هذا الواجب الكبير . ويسجل التاريخ أن بعض أهل الكتاب قاموا بنصيبيهم فى الدفاع فى بعض الأحوال فسقطت عنهم الجزية وكان ذلك فى عهد عمر أيضا (١) *

(١) اقرأ « الاقتصاد فى الفكر الإسلامى » للمؤلف ، وهناك مسألة واضحة ولكن لا مانع من ذكرها دفعا لأية شبهة عند بعض القراء ، وهى أنه بناء على الدراسة السابقة لا يلزم الإسلام أهل الكتاب فى العصر الحاضر أن يدفعوا الجزية ، لأنهم يدفعون الضرائب التى يدفعها المسلمون ويحملون السلاح فى الجيوش مع المسلمين .

ويروي البلاذري (١) أن المسلمين - عندما دخلوا دمشق - أخذوا الجزية من أهل الكتاب الذين لم يريدوا أن يدفروا الإسلام ، ولم عرف المسلمون أن الروم أعدوا جيشا كبيرا لمهاجمة المسلمين ، فأدرك المسلمون أنهم قد لا يقوون على الدفاع عن أهل حمص ، وقد يضطرون للانسحاب ، فأعادوا إلى أهل حمص ما أخذوه منهم وقالوا لهم : شغلنا عن نصرتكم والدفاع عنكم ، فأنتم على أمركم . فقال أهل حمص : إن ولايتكم وعدلكم أحببنا ، إنما كنا فيه من الظلم والعشيم ، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع جنودكم . ونهضوا بذلك ، فاستلمت الجزية عنهم .

والذي قد يجب أن نلاحظه هنا أننا نرى بساطة هذه الجزية ، ومع سياسة الإدارة الكريمة التي اتبعتها ، ورعاها ، دخل كثير من أهل الكتاب في عهده دين الإسلام أفواجا ، لا ضربا من الجزية ، ولا تحاشيا لسوء معاملة وإنما أعجابا بمبادئ الإسلام وخلفاء المسلمين .

وسار المسلمون في مختلف عصورهم سيرة عمر بن الخطاب ، سار عليها الخلفاء الأمويون عندما انتصروا في الهند والأندلس ، وسار عليها نور الدين زنكي في انتصاراته ضد الصليبيين ، وسار عليها صلاح الدين الأيوبي والظاهر بيبرس والأشرف خليل ، هؤلاء الأبطال الذين قضوا على حكم الصليبيين في فلسطين ولكن هون تنكيل ودون وحشية ، ونختم بهذا البحث بنماذج من أقوال بعض الكتاب المسيحيين يعترفون فيها بما ناله المسيحيون في ظل الإسلام من سلام وعون :

يقول عيشو بابيه أحد البطارقة المسيحيين : إن العرب الذين مكثهم الرب من السيطرة على العالم يهابوننا كما تعرفون ، أنهم ليسوا بأعداء للصراينة ، بل يمتدحون ملكتنا ويرثرون قسيسينا ، ويهتدون يد المعونة إلى كنائسنا وأديرتنا (٢) .

(١) فتوح البلدان ص ١٤٣ .

(٢) Thomas of Marga : Books of Governors Vol. 2, p. 155.

نقلا عن « روح الدين الإسلامي » ص ٢٠١ .

(م ١١ - المجتمع الإسلامي)

ويقول آدم متر (١) إن ما يميز المملكة الإسلامية عن أوروبا النصرانية في القرون الوسطى أن الأولى يسكنها عدد كبير من معتنقى الأديان الأخرى غير الإسلام ، وليست كذلك الثانية ، وإن الكنائس والبيع ظلت في المملكة الإسلامية كأنها خارجة عن سلطان الحكومة ، أو كأنها لا تكون جزءا من المملكة . معتمدة في ذلك على العهود وما أكسبتهم من حقوق ، وقامت الضرورة أن يعيش اليهود والنصارى بجانب المسلمين ، فتسبب عن ذلك خلق جو من التسامح لم تعرفه أوروبا في القرون الوسطى .

ويصدد

هذه هي الأسس التي تكون عليها المجتمع الإسلامي ، والنناظر إليها يدرك أنها شاملة لكل حاجات المجتمع ، فهي تنظم علاقة الإنسان بربه ، وتنظم علاقة الإنسان بالإنسان وعلاقته بالمجتمع ، ومع هذه القوانين الجاسمة التي تنظم هذه العلاقات ، تبرز المؤاخاة ، والقاهرة الحصنة ، ونفقة التطوع لتضيف المندوب إلى الواجب ، ولتوضح أن الإسلام ليس فقط دين قوانين ، ولكن بالاضافة إلى ذلك دين حب وسمحة .

وإنما المجتمع الإسلامي في عهد أبي بكر وعمر ، وجدت بالتوسع العظيم وقيل التوسع مشكلات جديدة ، ولكن روح الإسلام وجهت الخليفين العظيمين ليتكرا في حدود الاطار الإسلامي ما احتججه المجتمع الجديد .

ولو شأرت الأمور على هذه النحو في العصور التالية لظل المجتمع الإسلامي قمة بين المجتمعات في جميع الشؤون ، ولكن أشياء حدثت أحدثت التراجع في مسيرة هذا المجتمع ، وعن هذه الأشياء سيكون بحثنا في الباب التالي

(1) An Introduction to the Islamic civilization, by Khuda Bakhsh.

الباب الرابع

تدهور العالم الإسلامي وأسبابه

ملاحظة: ربما، مستندة على النقيض من الاسلام والمسلمين طيلة قرون طويلة من التاريخ ، وسنتحدث عن هذه العوامل في هذا الفصل ، ولكنى أميل الى أن أبادر إلى تسجيل ملاحظة احس بأنها جديرة بالابراز في هذا المكان .

اشتدت الأزمات على المسلمين نابعة من الداخل أو واردة من الخارج ، وجاءت عهود كثيرة لم يبق في أثنائها بلد اسلامي واحد الا وهو يئن ويعانى قسوة هذه الأزمات ، ولكن الاسلام ظل ينتشر ويمتد ظله من مكان الى مكان ، لقد استطاعت هذه العوامل أن تضعف المسلمين ، ولكنها على رغمها وقفت عاجزة أمام قوة الاسلام وتطوره وانتشاره .

الإسلام غلاب :

وكانت هناك أديان أخرى وحركات دينية متعددة لها دعاة ومبشرون ، وكان هؤلاء الدعاة مؤيدين بالثقافة الواسعة ، وبالسلطان ، والنفوذ ، وبالمال والوعود ، ولكنهم جميعا وهنوا أمام انتشار الاسلام وامتداده على يد تاجر ضحل الثقافة ، أو داعية يدعو الناس للاسلام ، ولا يقدّم لهم المال ولا الأمانى ، بل يأخذ منهم الهدايا ويتقبل العطايا .

أين نتائج الدعاية والتبشير في السودان ؟ وأين نتائجها في إندونيسيا ؟ وفي إفريقية ؟ وغيرها ؟ ثم كيف انتشر الاسلام وتسرب الى القلوب في هذه البقاع وفي غيرها بنجميع الدول والقارات ؟

يقول زويمر رئيس المبشرين المسيحيين : « إن المبشرين المنتشرين على ضفتى النيل ، وشرقى إفريقية وبلاد النيجر والكنغو ، يمسكون مرة الشكوى من سرعة انتشار الاسلام في هذه الأثناء ، وبالرغم من أن انتشاره في الهند الهولندية (إندونيسيا الآن) قد لقي الموانع من جهود جمعيات التبشير الهولندية والألمانية فهو يتوطد ويثبت هناك » .

إننا معشر المؤرخين نتعب أنفسنا في البحث عن أسباب انتشار الاسلام واطمحلال التبشير بالهندوكية والبوذية والمسيحية وغيرها ، ولو أنصفنا معشر المؤرخين لأرحنا أنفسنا من جهد التفكير ، وأبرزنا الجانب الروحي في نفوسنا ، وقلنا بقوة وإيمان : إن الله وحده هو الذى حمى الاسلام وحرسه ، وهو الذى هبأ النفوس لاستقباله واعتناقه ، لأنه الدين الذى ارتضاه ، وقال عنه : « إن الدين عند الله الاسلام » (١) .

الإسلام ينتشر في حالتي النصر والهزيمة :

وتمدعوني هذه الملاحظة الى تدوين ملاحظة أخرى وثيقة الصلة بموضوعنا ، ولست أعرف أحداً من المؤرخين أبرزها أو تحدث عنها ، تلك هى نتائج الغزوات الحربية التى تمت في عهد الرسول . ويقول أكثر المؤرخين أو كلهم إن النصر كان حليف المسلمين في هذه الغزوات إلا في غزوة أحد (٢) والذى أقرره ، نتيجة لدراسة قمت بها في هذا الموضوع ، يعارض ما يميل له هؤلاء المؤرخون ، فانى أستطيع أن أسجل أن الله نصر المسلمين في غزوة بدر وهم أذلة قال تعالى « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة » (٣) وفيما عدا غزوة بدر عرف المسلمون مرارة الهزيمة أحيانا . ولم يحرزوا نصراً ذا نال أحياناً أخرى ، وإليك مقتطفات قصيرة عن أهم هذه الغزوات :

غزوة أحد :

اضطرب المسلمون ، واختل نظامهم حتى تعرضت حياة الرسول للخطر ، وجرح عليه السلام في وجنته ، وكسرت ربايعته ، وشج في رأسه ، واستشهد من المسلمين أكثر من سبعين . فيهم حمزة بن عبد المطلب عم الرسول وكثير من خيرة الصحابة .

(١) سورة آل عمران : الآية ٢٩ .

(٢) انظر تاريخ الاسلام السياسى للدكتور حسن ابراهيم حسن ج ١

١٤٧

(٣) سورة آل عمران : الآية ١٢٣ .

غزوة بدر معونة :

كان المسلمون في هذه الغزوة من خيرة القراء والحفاظ (١) ، وكان الرسول قد اختارهم برياسة المنذر بن عمرو ليدعوا أهل نجد لدخول الاسلام ، وكان أهل نجد قساة غلاظا • فهبوا يحاربون هذا الوفد الذي كان أعضاؤه لا يتجاوزون الأربعين ، ودارت معركة فني فيها هؤلاء المسلمون جميعاً •

غزوة الأحزاب :

لقد صور القرآن هذه المعركة أجمل تصوير يغنيها عن العودة إلى كتب التاريخ ، قال الله تعالى : « إذ جاءكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ، وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا ، وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ، ويستأذن فريق منهم النبي ، يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا » (٢) •

صلح الحديبية :

في العام السادس للهجرة خرج المسلمون يقصدون العمرة ، فمنعتهم قريش من دخول مكة ، وجرت مفاوضات بين الطرفين أسفرت عن اتفاقية هلك بعض ما جاء فيها :

١ — أن يرجع الرسول هذبا العام من غير عمرة ، وتكون عمرته في العام القادم •

٢ — أن يرُدَّ الرسول من يأتيه من قريش مسلما بدون إذن وليه •

٣ — لا تلتزم قريش برد من يأتي إليها من عند محمد •

(١) انظر خبر هذه الغزوة في تهذيب الاسماء للتووي ج ١، ص ٣٦ •

(٢) سورة الأحزاب الآيات ١٠ — ١٣ •

وقد لاحظ كثير من المسلمين ما في هذه الشروط من ذلة ومهانة ،
وظهر الغضب عليهم ، يقول الطبري (١) : وبعد أن قرع الرسول من صلح
الحديبية قال لأصحابه : قوموا فأنصرفوا ثم أحلقوا ، فلم يبق منهم رجل ،
حتى قال ذلك ثلاث مرات ، فلما لم يبق منهم أحد ، قام فدخل على زوجته أم
سلمة فذكر لها ما لقي من الناس ، وما كان من مخالفتهم أمره . فقالت :
يا نبي الله ، أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنثر بدنتك وتدعو
حالك فيحلقك فقام فخرج فنثر بدنته ودعا حلقه فحلقه دون أن يكلم
أحداً منهم ، فلما رأوا ذلك قاموا فنصرفوا ، وجعل بعضهم يحلق بعضاً
حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً .

غزوة مؤتة :

وقعت هذه الغزوة في السنة الثامنة للهجرة ، وهي أول معركة حامية
وقعت بين المسلمين والروم ، وكان جيش المسلمين صغيراً جداً إذا قيس
بجيش الروم ، كان ثلاثة آلاف رجل واجهوا في مؤتة مائة ألف في رواية
ومائتي ألف في رواية أخرى ، فلا عجب إذا أن حلفت الهزيمة بجيش
المسلمين ، وسقط بعضهم قتلى ، وكان من بين القتلى قائد الجيش زيد
ابن حارثة ، فحمل الراية بعده جعفر بن أبي طالب وقتل حتى قتل ، فصارها
بعده عبد الله بن رواحة وقتل حتى قتل ، وتفرقت صفوف المسلمين
وتضعفت قوتهم المعنوية ، وتولى قيادتهم خالد بن الوليد ولكنه لم
يحارب بهم ، وإنما احتال لينسحب بهم يقي من الجيش دون أن يعرض
جيش المسلمين وهو في هذه الحالة إلى صدام لا تؤمن عواقبه ، وقد غضب
المسلمون بالحادثة من انسحاب هذا الجيش وقايلوه هلثين في سخرية
يفترقار . فررتم في سبيل الله .

غزوة حنين :

سجل القرآن حالة المسلمين في مطلع المعركة وصور هزيمتهم تصويراً

(١) تاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ٨٠ .

يعتينا عن العودة الى كتب التاريخ ، قال تعالى : « ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا ، وضائق عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين » (١) .

غزوة تبوك :

تلياً الى القرآن الكريم أيضا ليصور لنا حالة المسلمين في هذه الغزوة قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ، ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله إنكفأتم إلى الأرض ؟ أرضيتكم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل » (٢) وقال : « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأئصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة ، من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم لأنه بهم روف رحيم » (٣) .

هذه نماذج واضحة الدلالة على أن سيوف المسلمين لم تحقق نصراً فيما قاموا به من حروب (٤) ، ومع أن سيوف المسلمين لم يكن لها كبير غناء فقد انتشر الاسلام وعم جزيرة العرب في حياة الرسول ، لقد نعم المسلمون بالنصر المبين في بعض المعارك ، وأيدتهم قوة الله في بعضها فأفلتوا من الهزيمة بعد أن أوشكت أن تقع ، وتمت عليهم الهزيمة أحياناً ولكن الاسلام كان يسير في كل حال ، وكان يتقدم في ساجتي اليسر والعسر . لقد حفظ الله دينه ورعاه ، حفظه يوم كان محمد في مكة مغلوباً على أمره هو والضعفاء من أتباعه ، حفظه يوم كان ياسر يعذب عذاباً قسراً عليه ، ويوم كان خيل بن الأرت يوثق ظهره بالرمضاء ، ويوم كان محمد وأبو بكر يضربان بقسوة عند البيت الحرام ، وفي هذه اللحظات حيث كان

(١) سورة التوبة : الآية ٢٥ .

(٢) سورة التوبة : الآية ٢٨ .

(٣) سورة التوبة : الآية ١١٧ .

(٤) لقراءة تفاصيل كاملة عن الغزوات ونتائجها اقرأ الجزء الأول من موسوعه « التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية » للمؤلف (الطبعة الثانية عشرة) .

المسلمون مستضعفين ، كان الاسلام ينمو ويمتد هنا وهناك ، وحارب المسلمون بعد الهجرة كما ذكرنا ، وانتصروا وانهزموا ولكن الاسلام استمر اقتصاره دون أن توقفه هزيمة أو يدفعه فوز .

وانتصر المسلمون في معاركهم ضد الفرس والروم (١) ، ولكن دخولهم هذه الأرض لم يكن السبب في انتشار الاسلام ، فقد كانت هناك مندوحة مشروعة لأهل البلاد المفتوحة ليقبوا على أديانهم ويدفعوا الجزية ، يتمتعين بالتسامح الواسع الذى ضمنه لهم الاسلام ، والذى عرف به حملة الاسلام في أكثر عهوده ، وشهد به المستشرقون ، ولكن الفرس والسوريين والمصريين وغيرهم دخلوا الاسلام عن طوعية ورغبة ، عن طريق الدعوة التى قام بها العلماء من المسلمين الذين كانوا يبدعون نشاطهم بعد أن تضع الحروب أوزارها ، كما دخله العرب في عهد الرسول يوم ثنات سيوف المسلمين غير ذات غناء .

أيمكن بعد هذا أن يقال إن الاسلام انتشر بالسيف ؟ اللهم لا ، بل إن التاريخ يثبت لنا شيئا عجيبا ؛ يثبت أن كثيرا من الصليبيين الذين جاءوا إلى الشرق لمحو الاسلام دخلوا فيه طائعين ، يقول اليسير توماس الراهب « لقد اجتذبت الدعوة المحمدية الى أحضانها من الصليبيين عددا مذكورا حتى في العهد الأول ، أى في مطلع القرن الثانى عشر ، مما يلتفت نظر من يطلع على سجلات الصليبيين » .

ويقول السير جون ماندفيل : كان بعض المسيحيين يرتدون عن دينهم ويصيرون عربا .

ويقول بعض مؤرخى النصارى : إن ستة من أمراء مملكة القدس

(١) حدثت بين الفرس والروم (أكبر قوتين في العالم قبل الاسلام) حروب ظلت مئات السنين ، ولم تستطع أى منهما أن تحقق نصرا نهائيا على الأخرى وجاء الاسلام ففرض على الدولتين جميعا في حوالى عشر سنوات ، انها روح الاسلام التى غابت للأسف عن المسلمين .

استولى عليهم الشيطان ليلة معركة حطين ، فأسلموا وانضموا الى صفوف الأعداء ، دون أن يقرروا من أحد على ذلك (١) .

وهكذا حدث للمغول المتبربرين الذين دمروا الشرق الإسلامى ، وقتلوا الخليفة العباسى وأسرفوا فى إراقة دماء المسلمين وإزالة جميع معالم الحضارة الإسلامية ، ولكن سرعان ما اعتنقوا الإسلام وشملتهم مبادئه ، يقول الأستاذ أرنولد (٢) لا يعرف الإسلام من بين ما نزل به من الخطوب ، والويلات خطبا أشد هولا من غزوات المغول ، فلقد انسابت جيوش جنكيزخان انسياب الثلوج من قمم الجبال ، واكتسحت فى طريقها العواصم الإسلامية ، وأتت على ما كان لها من مدنية وثقافية ، على أن الإسلام لم يلبث أن نهض من تحت أنقاض عظمته الأولى ، وأطال مجده التالد ، واستطاع أن يجذب أولئك الفاتحين المتبربرين ويحملهم على اعتناقه .

كيف استطاع الإسلام أن ينتشر وأن ينتصر فى تاريخه الطويل ؟

الجواب سهل يسير هو أن الإسلام فاجأ العالم بمبادئ سامية رأى فيها الناس انقاذا للبشرية المعذبة فى الوقت الذى كان فيه الملوك سادة أو آلهة ، وكانت الشعوب عبدا ، ليس فقط بسبب قسوة الحاكم وجبروته ، بل بدافع داخل من نفوس هذه الشعوب جعلهم يقنعون بالعبودية ويرون فى الحاكم الها له دم غير دمائهم ، ويتكون من طينة غير طينتهم ، فى هذا الوقت طلع محمد وأصحابه من بعده على الناس بمبدأ المساواة بين الحاكم والمحكوم والملك والسوقة .

وفى الوقت الذى كان الملوك يتمتعون بالثراء العريض يجمعونه من

(١) عن الحروب الصليبية اقرا الجزء الخامس من موسوعة

« التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية » للمؤلف .

(٢) The Preaching of Islam pp. 218-219.

جهد الشعوب البائسة ، رأى الناس محمداً ورأوا أصحابه من بعده فقراء يرقعون ثيابهم ويخصفون نعالهم •

وفي الوقت الذى كانت أقوال الملوك وأفعالهم هى القانون وهى العدالة ، اذ بالاسلام يأتى بقانونه السماوى فيخضع له العظيم والحقير (١) •

تلك بعض المبادئ أو بعض المفاجآت التى أدهشت العالم وجذبت الناس زرافات ووحدانا لهذا الدين الانسانى العظيم ، وعندما جذب الاسلام الناس اليه لم يدعهم فى حيرة من أمور دينهم ودنياهم بل أمدهم بأرقى نظم الحكم وأرقى نظم الاقتصاد ، ووضع أسمى الأسس لحياة اجتماعية صالحة ، كما أوضحنا ذلك فيما سبق من أحاديث •

فاذا استعرضنا أحوال المسلمين منذ عهد الاسلام الباكر حتى اليوم مارين بالغزوات ، فالحروب فى فارس والروم ، فهجمات الصليبيين والمغول ، فحملات المبشرين ، قادتنا كلها إلى نتيجة واحدة ، هى أن المسلمين كانوا يضعفون ويقعون ، ولكن الاسلام كان قويا على الحالين ، وينهزمون وينتصرون ولكن الاسلام كان ينتصر دائما ، وأساس انتصاره هو أسسه ومبادئه ، فلا نزاع أن الهزائم التى لحقت بالمسلمين أكثر جدا مما أحرزوه من انتصارات ، لقد كثرت أخطاؤهم فتوالت هزائمهم ، أما الاسلام فلا خطأ منه ولا خطأ فيه • ولهذا لا ينى ركبته ، ولا ينال منه •

فاذا قام المصلحون اليوم يطلبون الى المسلمين أن يهبوا من رقبتهم ، فهم ييغون الفوز للمسلمين ويحرصون على إسعادهم • أما الدين فله رب حماه ويحميه ، ورعاه ويرعاه •

(١) اقرأ موضوع « ختام عهد » فى نهاية الجزء الأول من موسوعة « التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية » للمؤلف •

ولنعد بعد هذا التقديم الى الحديث عن الموضوع الذى عقدنا له هذا الفصل ، وهو تدهور العالم الإسلامى وأسبابه •

وعندى أن هذا التدهور يرجع الى عوامل ثلاثة :

١ — أسباب داخلية •

٢ — أسباب خارجية •

٣ — أسباب دينية •

وسنبحث كلا من هذه العوامل على حدة :

أولا : العوامل الداخلية

التي أضعفت المجتمع الاسلامى

إن العوامل الداخلية التي أضعفت المجتمع الاسلامى كثيرة ومتنوعة وأهمها :

- ١ — ضعف الدعوة المسلمين فى القرون المتأخرة .
- ٢ — اختفاء الأخلاق الاسلامية فى القرون المتأخرة .
- ٣ — انكماش الحضارة الاسلامية .
- ٤ — اطماع السلطة .
- ٥ — فساد بعض الحكام المسلمين وفساد أتباعهم من حين الى آخر .
- ٦ — الاتراك المماليك وحكمهم بالعالم الاسلامى .
- ٧ — الامبراطورية العثمانية : ما لها وما عليها .
- ٨ — الفرق والمذاهب والصراع بينهما .
- ٩ — اندية ومؤسسات تكيد للإسلام فى غفلة من المسلمين كالروتارى والليونز

وستتحدث عن هذه العوامل بشئ من التفصيل فيما يلى :

١ — ضعف الدعاة المسلمين في القرون المتأخرة

ربىَّ الرسول صلوات الله عليه مجموعة من الدعاة كانوا قِمَمًا في هذا المجال ، أخذوا عن الرسول اتجااماته وارشاداته ، واندفعوا ينشرون الاسلام بقوة لا تُغْلَب ، وحققوا نجاحا عظيماً دونه كلُّ نجاح ، وكان في قمتهم على بن أبى طالب ومصعب بن عمير وأبو نر وأبو عبيدة بن الجراح وكثيرون من أمثالهم •

وتقهقرت أديان وعقائد أمام نشاط الاسلام ودعائه ، فعُصِمَ الاسلام جزيرة العرب وشمل بلاد الشام ومصر والشمال الافريقي ، كما شمل بلاد الفرس وافغانستان وأجزاء واسعة من الهند •

ولم يكن في هذه البلاد دعاة للاديان والعقائد المتراجعة ، أو كان هناك دعاة ولكنهم لم يستطيعوا أن يواجهوا دعاة العصر الاسلامي الأول ، الذين كانوا يرجحون بكفاءتهم وحماستهم كل قوى تواجههم •

ثم تغيرت الظروف للأسف ، وجاءت غشوةٌ على الدعاة المستسلمون خلالها قلوبى الثقافة والحماسة ، أو قبل كانوا موظفين يتطلعون إلى الاهداف المالية كغيرهم من الموظفين ، وربما أنتقل الواحد منهم من وظيفة الداعية إلى وظيفة أخرى رآها أسهل أو أجلبَ لال أو جاء •

وفي نفس الوقت كان أتباع الديانات والعقائد المنهزمة يعيشون من أسموهم « المبشرين » وقد قلدوا المسلمين الأول في اختيار أحسن الكفاءات وذوى الحماسة لهذا العمل ، وقد رأينا بين هؤلاء المبشرين أساتذة جامعات وبعض كبار المفكرين الغربيين الذين يجيدون عدة لغات ،

(١) اقرأ الجزء الخامس من « المكتبة الاسلامية لكل الأعمار » عن الرسول الداعية ومربى الدعاة •

والذين لهم اطلاع واسع على الفكر الاسلامي ، ورأيانهم وهم يحاولون أن يلتقطوا ما رأوه نقائص في الاسلام ليذيعوها بين الذين يستمعون إليهم .

وكان مع هؤلاء نفوذ ومال وكتب ، وكل ذلك ساعدهم في عملهم ، فاذا وضعنا هؤلاء في كفة ووضعنا دعاة المسلمين الممارسين في الكفة الأخرى فان الكفة الاسلامية ستشيل للأسف وسترجع كفة « المبشرين »

والأسف الشديد لا يواجه المسلمون عناية تذكر لاختيار الدعاة حتى الآن ، وهناك جهود واسعة تبذل للبحث عن الأبحاث الجديدة للأئمة والوجوه الجديدة للتمثيل ، ولكن ليست هناك جهود ذات بال للبحث عن دعاة ينشرون دين الله .

أنها مشكلة ندعو الله أن يهيء من زعماء المسلمين من يمالجهمنا بفرى من جديد دعاة مسلمين لهم القدرة ، وفهم هادئة ، واستعداد جيد للإدلاء :

وقد بلغت فاللهم ! آمين

٢ — الأخلاق الإسلامية بين الظهور والاختفاء

قلنا في الباب الثاني من هذا الكتاب ان الاسلام أعاد تكوين الفرد العربى عندما انتقل الى انسان مسام ، وهذا أحدث في الانسان تغييرا واسعا قوامه الأخلاق الإسلامية ، التى تشمل مجموعة من الفضائل ، التى تحتّم اختفاء الرذائل ، وقلنا كذلك ان الأخلاق الإسلامية جذبت ملايين البشر للإسلام ، فالتاريخ مثلا يحدثنا عن الجندي الفتي الذي عثر على تاج كسرى ، وعن ذاك الذى وقع في يده « حقّ » من الجوهر ، ثم جاء هذا وذاك وقدما ما عثرا عليه لصاحب الخنائم ، ولم يقبل أى منهما أن يذكر اسمه لأنه فعل ذلك لرضا الله ، هذا التصرف جذب الكثيرين للإسلام وأذاع الإعجاب به .

وإننا هنا نتساءل عما اذا كان مثل هذا المسلم لا يزال موجودا في العالم الإسلامى ؟

في الحق إنى لا أميل للتشاؤم ، ولا للتسرّع في الحكم ، ولهذا أقرر أن العالم الإسلامى لا يزال عامرا بمثل هؤلاء الأشخاص ، ولكن للأسف أقرر أن الأنبياء تحمل لنا من حين إلى آخر أقوالا عن سرقات من المال العام ، وعن كسب حرام نراه من حين إلى حين .

لقد كان المسلم نموذجا للطهارة والاستقامة والاخلاص والبعد عن الرشوة والاهمال ، فجذب الناس للإسلام في المشارق والمغرب ، فلما تخلى المسلم عن هذه الصفات وانحدر بعض المسلمين الى الرذائل كان ذلك من أسباب ضعف العالم الإسلامى ، فقوة المجتمع الإسلامى كانت من قوة أفراده فلما انهار بعض الأفراد أو الكثيرون منهم تزلزل بناء المجتمع وأصبح ضعيف الأركان .

(م ١٢ — المجتمع الإسلامى)

٣ — الحضارة الإسلامية بين الازدهار والانكماش

ذكرنا من قبل أن المجتمع الإسلامى فى عصره الأول قد ازدهرت به الحضارة الإسلامية ، فقد أورد القرآن الكريم أسس الشورى وأسس الاقتصاد ، وشرح الرسول هذه الأسس الحضارية ونفذها ، وكان فى تنفيذها قدوة حسنة لا يكتفى بالواجب بل يزيد عن الواجب سماحة وعطاء •

وفى العصور الإسلامية الأولى كذلك سارت التربية والتعليم على النهج الإسلامى ، وتكونت الأسر والمجتمعات وفق الفكر الإسلامى ، وسار القضاء على النحو الذى رسمه الإسلام وعلى العموم كانت الحضارة الإسلامية ليست فقط دراسات ونظما ولكنها كانت أسلوب حياة •

ثم جاءت عهود اختفت فيها الشورى وانتشرت الديكتاتورية ، واختفت العدالة الاجتماعية ، وبرز مكانها الظلم الاجتماعى ، وكثر الأغنياء الذين يبذلون كل الجهد فى جمع المال بوسيلة أو بأخرى ، وبجوارهم الفقراء التمساع ، أما ولادة الأمور فقد برزت الأنانية فى بعضهم ، ولم يعودوا قدوة حسنة لجاهلير المسلمين ، واختفاء الحضارة الإسلامية كان من أسباب ضعف العالم الإسلامى •

فالركيزة المهمة التى قام عليها المجتمع الإسلامى كانت فى سبوه حضارته التى انفرد بها بين المجتمعات ، والتى كانت مقخرة قدمها الإسلام الجنس البشرى ، فإذا اختفت هذه الحضارة من المجتمع الإسلامى فإنه يفقد أعلى ما يمتاز به ، ولا شك أن العصور المتأخرة شهدت ضعف الحضارة الإسلامية أحيانا واختفاءها أحيانا أخرى ، وهذا أو ذاك كان من أسباب ضعف المجتمع الإسلامى •

٤ - أطماع السلطة

مات الرسول صلوات الله عليه دون أن يعيّن خليفة يتولى أمور المسلمين بعده ، وحدث نضال عنيف حول تعيين خليفة للمسلمين ، ولندع جانباً أهل الأنصار ومحاولتهم التي قاموا بها في سقيفة بنى ساعدة ليسندوا الخلافة الى واحد منهم ، ندع هذه الرغبة لأنها كانت قصيرة العمر ، ذلت بعد بضعة ساعات من عنفوانها ، ويتحدث عن حركتين قويتين نشأتا وأحدثتا صراعاً طويلاً لا تزال آثاره وبقاياها تعيش في عالمنا الذي نعيش فيه الآن . وعندى أن الحركتين لم تقوموا على أساس ديني سليم .

وتمثل الحركة الأولى اتجاه بنى هاشم الذين اتخذوا من صلتهم بالرسول سبباً يطلبون به أن تكون الخلافة ذئبهم ، لقد خيل لهم أن النبوة تورث ، وأنهم أولى الناس بشغل مكان الرياسة الذي كان يشغله محمد بن عبد الله ، وكان على بن أبى طالب يتزعم هذا الاتجاه ، وكان رضى الله عنه يتمتع بكثير من المزايا ، ولكن قرابته من الرسول كانت أبرز ما أعتر به بنو هاشم ودافعوا به خصومهم ، استمع الى على وهو يقول حينما طلب منه أن يبايع أباً بكر :

انا احق بهذا الأمر منكم ، لا أبايكم وانتم أولى بالبيعة لى ، اخذتم هذا الأمر من الأنصار ، واحتججتم عليهم بالقراية من النبى صلى الله عليه وسلم ، وتأخذونه منا أهل البيت غصباً ، أستم زعمتم للأنصار أنكم أولى بهذا الأمر منهم لما كان محمد منكم ، فأعطوكم المقادة ، وسأبوا إليكم الإشارة ؟ وأنا أحتج عليكم بمثل ما احتججتم به على الأنصار نحن أولى برسول الله حياً وميتاً ، فانصفونا إن كنتم تؤمنون ، وإلا فبوعوا بالظلم وانتم تعلمون (١) .

واستمع اليه أيضا وهو يقول : الله الله يا معشر المهاجرين •
لا تخرجوا سلطان محمد في العرب عن ذأره وقعر بيته الى درركم وقعور
بيوتكم ، ولا تدفعوا أهله عن مقامه في الناس وحقه ، فوالله يا معشر
المهاجرين لنحن أحق الناس به ، لأننا أهل البيت ونحن أحق بهذا الأمر
منكم (١) •

وأذكرت فاطمة ابنة الرسول رضى الله عنها وزوج على بن أبى طالب
حرمان زوجها الخلافة ، وحينما دخل عليها أبو بكر وعمر عقب تولية أبى
بكر قالت لهما : تركتم رسول الله جنازة بين أيدينا وقطعتم أمركم بينكم ،
فاستأنرتم ولم تردوا لنا حقا (٢) •

أما الحركة الثانية فكانت تمثل اتجاه أكثر البطون والقبائل العربية •
وكانت هذه الحركة ترمى إلى إبعاد الخلافة عن بنى هاشم ، اذ تبين لهم أن
الخلافة لو منحت لعلى أو لغيره من أفراد بنى هاشم باذى ذى بدء لاتخذت
شكل الوراثية ، ولما كان من الممكن أن تتزع بعد ذلك منهم ، وقد عبر عمر
عن هذا الاتجاه فيما قاله لابن عباس : إن الناس كرهوا أن يجمعوا لكم
النبوة والخلافة ، وإن قريشا اختارت نفسها فأصابته •

هل كان من حق بنى هاشم أن يطالبوا بالخلافة لحض قرابتهم من
الرسول ؟ وهل كان من حق قريش أن تجرم منها بنى هاشم لأنهم أهل
محمد ؟

الجواب عندى بالنفى فى الحالتين ، فالقرابة من الرسول لا تصلح
وخدها مبررا لنيل الخلافة ، فليست النبوة ملكا يورث ، ويضطى بنسو
هاشم ويسبيئون لأنفسهم وللإسلام حينما يحاولون جذب محمد أو دفع

(١) المرجع السابق •

(٢) محمد كرد على : الإسلام والحضارة العربية ج ٢ ص ٣٥٣ •

أنفسهم حول، ليظهره فردا في أسرة ، والذي نؤمن به أن محمداً بالرسالة أصبح فردا من مجموعة المسلمين أو في هذه الأسرة الكبيرة ومرشداً لها ، وكان بلال يفضل عنده وعند الله والناس عمه (أبو لهب) مرات ومرات •
لقد انتزع محمد نفسه ، وانتزعه الله من هذه الأسرة الصغيرة ليضعه في هذه الأسرة التي كونها الاسلام ، وفي الحديث الشريف ما يدل على ذلك تمام الدلالة « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة » مما يدل بوضوح على أنه ليست الرسالة فقط هي التي لا تورث ، بل المال أيضا ، وعندما نادى نوح ربه فقال « رب إن ابني من أهلي » تلقى جوابا محمداً واضحاً هو قوله تعالى « إنه ليس من أهلك » (١) فأهل الرسول هم أتباعه ، يتفاوتون بحسب عمق إيمانهم وصدق دفاعهم عن الدين الجديد •

ومن جهة أخرى فإن القرابة من الرسول لا يمكن أن تكون سبباً يُحرّم به هؤلاء الأقارب من حق أبيح لغيرهم من المسلمين ، فما دامت شروط الخلافة قد توافرت في واحد منهم ، فهو أهل لأن ينال هذا المنصب الكبير •

ولكن هاتين الحركتين كانتا من مظاهر العصبية التي حاربها الاسلام . وقد ضعفت العصبية بسبب الفكر الاسلامي ولكنها لم تمت ، فلما أتت لها الفرصة تجددت قوتها وظهر نشاطها •

وانتصرت الحركة الثانية ، وأبعد بنو هاشم بالحق أو باطلاً عن الخلافة مدة مائة وعشرين عاماً تقريباً تولى الخلافة خلالها أبو بكر وعمر وعثمان ، ثم بنو أمية ، بعد مدة قصيرة قضاها على خليفة ، ولنتها كانت مدة متصلة الاضطرابات والحروب ، فلم ينعم رضى الله عنه بالهدوء يوماً واحداً ، ولم يخضع له العالم الاسلامي كله يوماً واحداً ، اذ أعلن معاوية التمرد والعصيان في الشام ، وظل في تمرد حتى أكلت له الأمور •

(١) سورة هود الايتان ٤٥ — ٤٦ •

على أن الحركة الأولى ظلت حية تعمل في الخفاء ، ثم وجدت لها من
الفرس نصيرا عظيما ، فقد كان هؤلاء يدينون بنظرية الحق الإلهي المقدس
التي تحتّم أن يكون السلطان في أسرة لا يتعداها ، واشتدت هذه المعركة
وتطورت ، وانقلبت من دور الدعاية إلى العمل ، وزحفت بجيوشها وأعوانها
فأسقطت الخلافة الأموية وأقامت خلافة هاشمية •

كم خسر المسلمون من ضحايا ومن جهود في هذه الحروب الطويلة ؟
وكم أضاعوا من وقت وأزهقوا من أرواح ؟
علم ذلك عند الله ولكننا ندرك أنها كانت خسارة بالغة •

ولم تكن الخلافة الهاشمية التي قامت عام ١٩٦ هـ ، بل كانت عباسية ،
ولذلك بدأ صراع جديد مرير بين العباسيين والعلويين ، كما كان على
الخلافة العباسية أن تخوض حروبا دامية ضد بقايا الطوائف التي نادت
في العهد الماضي وأهمها الخوارج •

وعاشت أطماع السلطة بعد ذلك عبر القرون في العالم الإسلامي ،
وتجارب ولاية العهود والطامعون ، وكانت هذه الأطماع معزّلا يهدم
البثاء ويلزّل الأركان •

٥ — فساد بعض الحكّام وفساد أعوانهم

تولى السلطة في العالم الإسلامي في كثير من الأحوال رؤساء لم
يتخلّقوا بأخلاق الإسلام وآدابهم فظهرت حقيقتان مهمتان هما :

أولا : أن هؤلاء الحكّام الفاسدين كانوا يستعينون في أمورهم بولاية
ومساعدين فاسدين ، ومن الواضح أنه إذا فسد الرأس فسد الجسم كله ،
وعلى هذا ظهر في العالم الإسلامي ولاية " استحبوا سفك الدماء وسلب
الأموال كسادتهم من الخلفاء والملوك والسيّاطين ، بل يمكن القول إن
عدو هذه الأخلاق قد لحقت بأفراد كثيرين من الشعب بالإضافة إلى
الولاية وأصحاب النفوذ •

وقد رَوَى أن علما قال للخليفة المنصور : انى تعرف رجلا اذا صلح
صلحت الدواة كلها ، فقال المنصور للعالم : من يكون هذا الرجل ؟ فأجاب
العالم : أنت •

وهذا تطبيق لقول الرسول عليه السلام : صنفان من أمتى اذا
صلحا صلح الناس ، واذا فسد فسد الناس ، الأمراء والعلماء •

ثانيا : ان بعض الرؤساء المسلمين نسوا تماما الصلة الاسلامية التى
تربطهم بالرؤساء المسلمين فى الدول المجاورة لهم ، ولم يكن همّ الواحد منهم الا
أن يتوسع على حساب أخيه ، وأن يسطو على ملك جاره ، وطالما شهد
التاريخ معارك طاحنة شبت بين مملكتين اسلاميتين ، وطالما شهد التاريخ
مسلماً يشهر سيفه ليقتل أخاه المسلم ، وجيتا اسلاميا وقف يواجهه
جيشا اسلاميا آخر ، وكان كل واحد يحاول النصر على حساب أرواح اسلامية
تزهق ، ودم اسلامي يراق ، ولم يكن هناك من سبب لهذه الحروب إلا
تحقيق رغبة لرئيس يريد بسط سلطانه ، وافساح رقعة الأرض الخاضعة له •

٦ — الأتراك المماليك يحكمون بالعالم الاسلامى

ومنى العالم الاسلامى بكارثة صنعت هى أن أجزاء مهمة وواسعة به
خضعت لحكم المماليك الذين جروهم بهم للعالم الاسلامى للخدمة والحراسة
الخاصة ، ثم قفزوا الى قيادة الجيوش فالسلطة ، وقد حدث ذاك فى
العراق ومصر والهند وغيرها ، ولم يكن لهمؤلاء ثقافة تؤهلهم للحكم ،
وكانت عهودهم فى الغالب حالكة السواد •

والعجيب أن المعتصم بن هارون الرشيد هو أول من جلبهم وأعطاهم
نوعا من السلطة ، وسرعان ما عانى منهم ، ثم نكلوا بذريته ، ومع
هذا لم يتعظ السلاطين اللاحقون بذلك ، فجاب الملك الصالح نجم الدين
أيوب طائفة جديدة منهم ، وسرعان ما سلبوا الحكم من ابنه توران شاه ،
وتكرر ذلك مرات أخرى ، مما يؤكد قصر نظر الكثيرين من الخلفاء
والسلاطين الذين كانوا يجلبون لأولادهم بذور الشر والدمار •

ولنعد للحديث عن الخليفة المعتصم ثامن الخلفاء العباسيين لنذكر أنه واجه حروبا كثيرة في الداخل والخارج ، فاحتاج الى تقوية جيشه وادخال عناصر جديدة فيه ، ولم يكن كبير الثقة بالعرب خوفا من أن يكون اتجاههم علويا ، ولا بالفرس بعد أن نكل آباؤه وأجداده بأبى سلمة الخلال وأبى مسلم الخراساني والبرامكة وبنى سهل ، فهذه تفكيره الى أن يتخذ جيشا من الترك ، فأكثر منهم وعين عليهم الرؤساء منهم ، ليضمن لنفسه بهم التفوق والنصر ونسى المعتصم أنه بعمله هذا وضع السلاح في يديهم من لا يؤمن على السلاح ، فما أن قوى جانبهم حتى عاشوا في الأرض فسادا ، ونكلوا بالخلفاء والمسلمين ، يقول الأستاذ الامام محمد عبده : فلم تكن إلا عشية أوضاها حتى تغلب رؤساء الجند على الخلفاء ، واستبدوا بالسلطان دونهم ، وصارت الدولة في قبضتهم ، ولم يكن لهم ذلك العقل الذي راضه الاسلام ، والقلب الذي هزبه الدين ، بل جاءوا الى الاسلام بخسونة الجهل يحملون ألوية الظلم ، لبسوا الاسلام على أبدانهم ، ولم ينفذ منه شيء الى وجدانهم وكثير منهم كان يحمل إلهه معه يعبد في خلوته ، ويصلى مع الجماعات لتمكين سلطته (١) .

ذلك تموير رائع لهذه الجماعة التي قدر لها أن تسيطر على عاصمة الخلافة مدة طويلة من التاريخ، انهم كانوا قساة، انتهكوا الحرمات ، واستحلوا الدماء وقتلوا كثيرا من الخلفاء وعذبوا كثيرين ، ووصلت بهم قلوبهم المتحجرة الى أن يسموا عيون بعض الخلفاء ويصلبوه في الشمس .

وقد كان لهذه الحالة البشعة التي سيطرت على بغداد أثر خطير في العالم الاسلامي كله ، فان كثيرا من ولاة الأقاليم أدركوا أن الخليفة فقد سلطانه وأن الأمر أصبح في يد هؤلاء الترك ، فأنف هؤلاء الولاة من السندسوع للأتراك ، وأعلنوا استقلالهم كاملا أو شبه كامل ، وبهذا تصدع العالم الاسلامي وانقسم إلى دويلات وأقطار .

(١) الا الام والنصرانية ص ١٣٣ .

٧ - الامبراطورية العثمانية : مآلها وما عليها

هل تعد الامبراطورية العثمانية سببا من أسباب ضعف العالم الاسلامي ؟

إننا نؤجل الجواب عن هذا السؤال حتى نطوف طوافا سريعا نعدّد فيه محاسن هذه الامبراطورية ومساوئها ، ثم نقرر الجواب في ضوء هذا الحساب .

لقد قامت الدولة العثمانية في آسيا الصغرى على أنقاض دولة السلاجقة في الأناضول ، وكانت الامارة العثمانية احدى ست عشرة امارّة قامت هناك ، وكانت تقع في أقصى الشمال وتطلّ على بحر مرمره ، وكانت تتجاوز ما بقى للدولة البيزنطية من أملاك بالأناضول ، كما كانت تواجه الدولة البيزنطية الفسيحة التي كانت على الجانب الآخر من بحر مرمره ، وكانت الدولة البيزنطية تعاني مشكلات كبرى ، فاستطاعت الإمارة العثمانية أن تحقق انتصارات متتالية على البيزنطيين ، في الأناضول ، فأخذت بروسة سنة ١٣٣٦ وجعلتها عاصمة لها ، ثم أخذت نيقية فأزمير ، وهذا جعل هذه الامارة تسيطر على الساحل الجنوبي لبصر مرمره ، وبالتالي تقف في مواجهة الامبراطورية البيزنطية .

وفي سنة ١٣٤٥ عبر العثمانيون بحر مرمره الى أوروبا واستولوا من عام الى عام على مناطق فسيحة شمال القسطنطينية ، مما جعل هذه المدينة التاريخية المنظمة نقطة تحيط بها الممتلكات العثمانية من كل جانب تقريبا ، وفي ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ م استولى عليها العثمانيون بقيادة محمد الثاني .

وقد كان الاستيلاء على القسطنطينية حدثا كبيرا فقد حاول المسلمون الاستيلاء عليها منذ عهد معاوية حوالى سنة ٦٧٠ م ثم حاولوا الاستيلاء عليها في عهد سليمان بن عبد الملك ولكن هذه المحاولات لم تنجح ، ولذلك

كان استيلاء العثمانيين على هذه العاصمة التي قاومت الاسلام والمسلمين حوالى ثمانية قرون عملا مجيدا ، مما جعل للعثمانيين مكانة ممتازة في نفوس كل المسلمين ، وبخاصة أن الزحف العثمانى امتد فى أوربا حتى دقت الجيوش العثمانية أسوار فيينا •

وكان لاستيلاء العثمانيين على القسطنطينية نتائج خطيرة فى المحيط الاسلامى ، ونتائج خطيرة كذلك فى المحيط المسيحى ، ففىما يتعلق بالمحيط الاسلامى نجد العثمانيين يتطلعون لأن يصبحوا مركز امبراطورية اسلامية متسعة الأرجاء ، وبهذا اتجهت اطماعهم للاستيلاء على البلاد العربية أو على أكثرها ، وقد تحقق لهم ذلك بعد موجة انتصاراتهم فى أوربا ، فدخلوا الشام ومصر والعراق والشمال الافريقى ، وحدود المغرب ، ولم يجدوا مقاومة تذكر من الشعوب العربية التى كانت ترى غالبا أن الانتصاء تحت الحكم العثمانى ليس الا تكوين وحدة اسلامية لمواجهة الحركات الصليبية والتجمعات المسيحية التى كانت تعمل للنيل من الاسلام •

أما أثر سقوط القسطنطينية لدى المسيحيين فقد ظهر فى المعاهدات والتجمعات الكثيرة التى قام بها المسيحيون لضرب الامبراطورية الإسلامية الصاعدة ، وقد شملت هذه التجمعات فرنسا وألمانيا وانجلترا والمجر وبولندا وأسبانيا وإيطاليا وأمراء البلقان ، ثم روسيا القيصرية ، وكان هذا التجمع الحافل ضد الامبراطورية العثمانية شديد الخطر عليها فأسلمها الى ما سُمى « الرجل المريض » •

وفى القرن الثامن عشر انسلخت أجزاء مهمة بأوربا عن الامبراطورية العثمانية نتيجة لجهود أوربا ، ثم اتجه الغرب للاستيلاء على الدول العربية التى كانت تابعة للعثمانيين ، فاحتلت فرنسا الجزائر ثم تونس ، واحتلت انجلترا مصر واحتلت إيطاليا طرابلس الغرب ، ولما خرت تركيا خريشة فى الحرب العالمية الأولى اقتسب المنتصرون بقاى التراث ، ونوزعوا بينهم أسلاب المهزم ، وكان الانجلترا وفرنسا أكثر نصيب من

هذا التراث كما سيتضح عندما نتكلم عن « تركيا والغرب » ضمن الحديث عن العوامل الخارجية التي اضعفت العالم الاسلامى .

ومع أن العثمانيين حاولوا أن يمثلوا العالم الاسلامى وان يجعلوا من عاصمتهم عاصمة الاسلام والحضارة الاسلامية ، فان الواقع يقرر ان المسلمين لم يجنوا أية ثمار من انتصارات العثمانيين ، فلما وقعت الهزائم بالدولة العثمانية عانى المسلمون شدة المرارة من نتائج هذه الهزائم .

ويرجع السبب في انهيار الامبراطورية العثمانية الى حياة الديكتاتورية التى كانت متأصلة فيها، والى نزق كثير من خلفاء العثمانيين، هؤلاء الذين حملوا لقب الخلافة دون أن تتوافر فيهم شروط هذا المنصب ، ويقول الأستاذ محمد كرد على (١) : إن العثمانيين قلما كانوا يهتمون بتطهير المملكة من أهل الفساد ، وقلما كانوا ينفذون من ناموس الادارة ما يخففون به فقر البلاد. ويؤسها ، فتركوا الأهلين يعملون ما يشاءون ما أدوا ما عليهم لخزانتها وقد شاركت البلاد الغزبية في حظ مملكة لا تنطل هروبها وفتتها ، ولاتها لا يعرفون ما يصلحها ، فتراجمت وانحلت أوضاعها .

ويقول في مكان آخر (٢) وكسان بايزيد الثانى على أكبر جانب من السفاهة ، فانتشرت المفسد والمنكرات في أيامه في كل مكان بين العام والخاص ، ونسوا الشرع وعيثوا بأحكام الدين ، وكانت تحمل إلى قصر بايزيد أجمل الفتيات والفتيان من كل أرض ، كما تحمل اليه أطيب المنكرات ، وألطف المغنين والمغنيات ، والموسيقين والموسيقىات ، ولا شأن للكبراء إلا أن يأتوه بما ترغب فيه نفسه من الجوارى والعلمان .

ويحدثنا الجبرتى المؤرخ المصرى عن مصر فيصور صورة بشعة لهذه

(١). الاسلام والحضارة العربية ج٣ : ص ٣١٦ — ٣١٧

(٢) نفس المرجع ج٢ ص ٥٠٠ — ٥٠١ .

البلاد وكيف عمها البؤس وانتشرت بها الرشوة في عهد العثمانيين
الحاكم (١) •

والذى ينظر للعالم الاسلامى طوال عهد العثمانيين يرى أنه مسحور
لرغبة الخلفاء ، ففى الشعب جوع وفقر فى حين يحظى الخليفة وأعوانه
بمتاع الحياة ونعيمها •

وقد أتاحت الهزائم المتلاحقة التى نزلت بتركيا الفرصة للدول
الاسلامية لتطرح هذا العبء الثقيل ، وتتخلص من هذه السلطة العاشمة ،
وتعلن استقلالها كاملا ، ولكن الفهم الخاطى لروح الاسلام السمحة
جعل كثيرا من المسلمين يعدون الخروج على الخليفة خروجاً على الوحدة
الاسلامية ، وقد سبب ذلك الفهم بقاء دول اسلامية كثيرة ترزح تحت
ثقل الطغيان والجهل اللذين كانا شعار الترك (٢) ، وقد أحس الأتراك
أنفسهم بما لأصاibهم من تأخر وتدهور بسبب هذه الخلافة الجائرة
الفاسدة ، فقرر المجلس الوطنى التركى اسقاط الخلافة فى ٢ مارس سنة
١٩٢٤ وطرد جميع آل عثمان من البلاد العثمانية عقاباً لهم على ما جلبوه
للبلاد من تدهور وسقوط •

ولا نزاع أن مصطفى كمالاً وأعوانه أفادوا تركيا بوضعهم حداً
لعبث الذين سموا أنفسهم خلفاء ، غير أن القادة الجدد أساءوا فهم
الأسباب التى هوت بدولتهم ، وظنوا خاطئين أن الاسلام هو السبب ،
فأسقطوا من دستورهم أن الاسلام دين الدولة ، وظنوا أن البعث الجديد
سيجئ فى ركاب اللادينية فأعلنوا ذلك للأسف ، ومرت السنين ولا تزال
تركيا تعاني •

(١) حوادث سنة ١١٩٨ .

(٢) اقرأ تاريخ العثمانيين فى الجزء الخامس من موسوعة التاريخ

الاسلامى للمؤلف •

والاسلام لم يكد نط من دواعي الهزائم والتخلف ، ولكن الانحراف عن الاسلام الذى كان شعار بعض خلفاء العثمانيين وقادتهم هو الذى قاد للهزائم والتدهور ، وقد اتجه مصطفى كمال الى الحياة الغربية ومحاربة الاسلام بطريق مباشر أو غير مباشر ، تم أفلس هذه السياسة ، وعادت الجمهورية التركية إلى رحاب الاسلام ، وأخذت تتعاون على اعلان شأن الاسلام والمسلمين من جديد ، بعد حوالى ستين عاما من الضياع ومن متاهات أتاتورك وخلفائه ، والاسلام غلاب دائما إن شاء الله .

العثمانيون والصفويون :

بقيت نقطة خطيرة عن العثمانيين ، هى أنهم خاضوا حروبا طاحنة قاسية ضد الصفويين فى ايران ، لقد شهد عالم ما قبل الاسلام صراعا مريرا بين الفرس والروم ، حينما كانتا أكبر دواتين فى العالم فى ذلك الزمان ، وجاء الاسلام ، وأصبحت المنطقة كلها اسلامية ، وكان يؤمل أن يحلّ الوفاق محل الخصام ، أو على الأقل تكون العلاقات سلبية دون ودٍ ودون حرب ، ولكن الذى حدث للأسف أن صراعا طويلا وقاسيا قام بين الدولتين ، وكان العراق فى الغالب أرضا للمعارك الفتاكة ، وطالما شهدت هذه الأرض ألوانا من العسف وازاقة الدماء والقسوة البالغة ، وقد اتخذت الدولتان سببا جديدا للصراع هو السنة عند العثمانيين والتشييع لدى الصفويين ، وفى الحق أن التشيع أو السنة لم تكن الا وسيلة للصراع وإزاحة الدماء ، ولم يكن هؤلاء ولا أولئك حريصين على هذا المذهب أو ذاك .

وبعد ، نعود إلى السؤال الذى بدأنا به هذه الدراسة عن الامبراطورية العثمانية وما ارتبط بها من نفع أو ضرر للاسلام ، فنقرر أنها نشرت الاسلام ببعض ربوع أوريسا ، ولا يزال ذلك موجودا حتى الآن ، وأنها حرست فلسطين من اليهود طيلة عهد قوتها . هذا من جانب ، ومن جانب آخر فقد انغمس كثيرا من قادتها فى الضلال ، وسيطرت الديكتاتورية على أكثر

عهودها ، وللاديكتاتورية نتائج خطيرة ، وحرمت العالم العربى من التطور والحرية ابان انتصاراتها ، فلما انهزمت أسلمته للنضياح والانهيال .

وباجمال تعد القرون الاربعة التى حكمت الامبراطورية خلالها العرب قرون اضمحلال وضعف ، وجاءت بعدها فترة استعمار كئيبة .

وعندما سقطت الامبراطورية وقام أتاتورك أعلن عداؤه للإسلام والمسلمين واتخذ جانب الغرب ضد القوى الإسلامية التى كانت تابعة لبلاده عدة قرون .

ونظرة الى هذا الميزان يتضح أن كفة الحسنات تشيل ، وأن مساوىء هذا العهد ترجح رجحانا كبيرا .

وسياأتى فيما بعد حديث عن موقف الغرب من الامبراطورية العثمانية فى حالتى قوتها وضعفها .

٨ — الفرق والمذاهب :

من الأسباب الداخلية التي أضعفت بنيان المجتمع الاسلامى الفرق والمذاهب التي ظهرت في العالم الاسلامى ، ومن أشهر هذه الفرق الشيعة والخوارج ، ثم المعتزلة والمرجئة والجبرية ، ثم القرامطة ، فالزنج ، وقد كانت هذه الفرق معاول تحاول أن تدك المجتمع الاسلامى عن قصد أو بجهل ، فالشيعة اندس بينهم « مدعو التشيع » وهم جماعة ليسوا شيعاء بل ليسوا مسلمين ، وكان هدفهم أن يحدثوا في المجتمع الاسلامى شرخا واضطرابا ، وقد تحدثنا بإفاضة عن مدعى التشيع في الجزء الثانى من موسوعة التاريخ الاسلامى •

وكان الخوارج قوما من الأعرابيون الغارة لسبب أو بدون سبب ، وقد حاربوا مع على ثم حاربوه . فلما قتل حاربوا الأيوبيين ثم حاربوا العباسيين ، وانقسموا إلى فرق شتى وأخذوا يحارب بعضهم بعضا ، وكم أحدثوا من صدع في العالم الاسلامى وكم أسالوا من دماء ، وفي الجزء الثانى والثالث من الموسوعة السابقة أحاديث مفصلة عنهم وعمما أنزلوه بالمجتمع الاسلامى من كوارث ، وبخاصة أن بعض قياداتهم لم تكن عميقة الايمان كأولئك الذى قادوا الشيعة فانحرف هؤلاء القادة بالشيعة وبالخوارج الى مدى بعيد عن الاسلام ، وفي الجزء الأربعين من « المكتبة الاسلامية » دراسات واسعة عن هذه القيادات التي دفعت بالفساد الى هذه الفرق أو دفعت بالفرق الى الفساد •

والمعتزلة كان اتجاههم فكريا ، ولكن نشأ عنه كثير من الاضطرابات والأذى لبعض العلماء كما حدث للإمام ابن حنبل ، وكان المرجئة والجبرية رد فعل لاتجاهات المعتزلة •

أما القرامطة فقد أحدثوا بالعالم الاسلامى صراعا امتد عدة قرون وكم قتلوا من الناس واعتدوا على الحجيج ، وكم قتل الناس منهم ، وهناك حديث مفصل عنهم في الجزء السابع من موسوعة التاريخ الاسلامى •

ونجىء للزنج الذين امتد صراعهم ضد الخلافة العباسية أكثر من أربعة عشر عاما ، ولم ينجح الموفق آخر الخليفة العباسي وقائد جيشه في الانتصار عليهم الا بعد جهد كبير ، وبعد أن بنى مدينة تواجه معسكر الزنج وصمد بها صمودا طويلا . *

ونقرر للأسف أن أكثر هذه الحركات كان نابعا من بلاد فارس التي كانت دائما مركزا ينبت الثورات ضد الاسلام ، فإن زعماء الفرس هالهم أن يضيغ نفوذهم وثوراؤهم على أيدي العرب المسلمين ، وأيقنوا أن مواجهة الاسلام بالسيف شيء لا أمل فيه ، فدبروا المؤامرات والمكائد ضده بخلق هذه الجماعات التي حفلت بها عصور الاسلام ، وساعد اليهود من بقايا سجن بابل على ذلك ، أولئك الذين استوطنوا بلاد فارس ورفضوا العودة لفلسطين عندما سمح لهم بالعودة ، فكان لتعاون بقايا اليهود مع الموثورين من زعماء الفرس وأشياعهم أخطر الأثر على الاسلام والمسلمين ، وأصبحت بلاد فارس منذ ذلك الوقت المبكر مباءة تدفع ضد الاسلام من حين إلى آخر أخطر العناصر وأقسى الثورات . *

٩ — أندية ومؤسسات

تخريب للإسلام في غفلة من المسلمين

في كتابي « اليهودية » (١) عقدت بابا عنوانه « اليهود في العالم » وضحت فيه أن من دكاؤد اليهود أنهم يعمدون في الخفاء أعدالا تعود بالخطر الجسيم على المجتمع البشرى بوجه عام والمجتمع الاسلامى بوجه خاص ، وذلك مثل الاثارة وبث الفتن ، ومثل نفوذهم خلف وسائل الإعلام حيث يذيعون ما يشاءون ويمنعون ما يشاءون ، ومثل التجسس والتستر خلف أديان أخرى للوصول الى أهدافهم ، ومثل القامر والاغتيال .

الماسونية والروتارى والليونز :

على أن من أخطر الأعمال التي يقيم بها اليهود في الظلام إنشاءهم الجمعيات والأندية السرية مثل الماسونية والروتارى ، والليونز واليوجا ، وهذه المؤسسات والأندية تتظاهر بالنشاط الاجتماعى وتتستر خلفها كل خطر للأديان والأوطان ، وقد أعلن المؤتمر الاسلامى الذى عقد بمكة المكرمة في مارس سنة ١٩٧٤ أنه ثبت أن هذه الجمعيات جمعيات هدامة ، وأنها وثيقة الصلة بالصهيونية ، ويجب الابتعاد عنها تماما . كما حذر الرسوم البابوى رقم ٨٦٤ الصادر في ٢٠/٢/١٩٥٠ من الاشتراك في هذه الهيئات بأى وجه من الوجوه ، وذلك دفاعا عن العقيدة وعن الفضيلة .

ومع هذا لا يزال لهذه الجمعيات نشاط ظاهر ونشاط سري ، ولعل المسلمين والمسيحيين ينتبهون .

تلك بياجاز هي العوامل الداخلية التي أضعفت العالم الاسلامى ، فلنتنقل الى الحديث عن العوامل الخارجية :

(١) اليهودية من سلسلة مقارنة الأديان ص ٣٠٩ — ٣٤٨ .

(م ١٣ — المجتمع الاسلامى)

ثانيا : العوامل الخارجية

التي أضعفت المجتمع الاسلامى

مُنَى العالم الاسلامى بكثير من الأعداء الذين تسلطوا عليه من خارجه ، وهاجموه ، وفتكوا بكثير من المسلمين فتكا قاسيا ، وأنزلوا بهذا العالم صنوفا من التتكيل ، وكانوا من أقسى الأسباب التى غرست الضعف والهوان به ، ويمكن تقسيم هؤلاء الأعداء قسمين :

قسم غلبه الاسلام بعد هذا الصراع فاعتنق الاسلام بعنف أو بشكل سطحي وهم المغول .

وقسم بدأ صراعه ضد الاسلام من مطلع الاسلام ، واستمر فى صراعه حتى العهد الحاضر ، وهو الغرب المسيحى باتجاهاته الصليبية ، وقد اتخذ هذا القسم فى مسيرته الطويلة أسماء عديدة ومواقف كثيرة مثل :

١ — الصراع بين المسلمين والبيزنطيين فى صدر الاسلام ، ثم فى عصر عمر بن الخطاب وفى العهد الأموى والعباسى .

٢ — موقعة ملاذكرد (١٠٧١م) التى كانت من الأسباب المباشرة للحروب الصليبية . وكانت بين السلاجقة والامبراطور البيزنطى رومانس الرابع .

٣ — الحروب الصليبية الشهيرة التى امتدقت قرنين من الزمان (١٠٩٧ — ١٢٩٢م) .

٤ — الزحف الصليبي على أسبانيا والمغرب العربى ، وقد بدأ مع بدء الحروب الصليبية فى الشرق تقريبا ، وظل فى حركته وامتداداته حتى القرن العشرين .

٤ — الحركة الصليبية ضد الامبراطورية العثمانية من منتصف القرن الرابع عشر حتى القرن العشرين *

٥ — الحركة الصليبية وراء الحملة الفرنسية على مصر والشام *

٦ — الحركة الصليبية تعاونت لتحقيق لدول الغرب المسيحي أن تستعمر الدول الاسلامية *

٧ — الحركة الصليبية تزرع الصهيونية بين دول العالم الاسلامي وتحمي دولة الصهاينة *

وقد تحدثنا عن المغول وعن كثير من الحركات الصليبية التي أشرنا اليها ، في موسوعة التاريخ الاسلامي ، وسنمر هنا مرورا سريعا على ما يرتبط منها بدراستنا الحالية *

المفصول

هناك أحاديث طويلة مفصلة عن المغول أوردناها في الأجزاء : الخامس والسادس والثامن من موسوعة التاريخ الاسلامي ، وهي تشمل أصل المغول وعقائدهم وأشهر زعمائهم ، كما تشمل الحديث عن زحفهم البهادر الذي ضمّ مناطق واسعة من الصين وأواسط آسيا والذي وضعهم على حافة العالم الاسلامي فاجتاحوا الدولة الخوارزمية ودمروا أشهر مدنها كبخارى وسمرقند ثم هراة وطوس والري ، تلك المدن التي كان لها في التاريخ الاسلامي مكانة سامية وذكرى عاطرة .

واقترح المغول ما يسمى الآن أفغانستان قبلاد ايران ، ثم اتجهوا غربا وحققوا بعض انتصارات في شمال العراق ، فاستولوا على ماردین ونصيبين والموصل ، ثم أخذوا إربل فسامرا . وكان ذلك سنة ٦٣٤ هـ .

ولنصور خطورة المغول نذكر أنهم حوالى نفس التاريخ ، وبالضبط سنة ٦٣٨ هـ اتجهوا للزحف تجاه أوربا ، فاستولوا على شبه جزيرة القرم وأخذوا موسكو وأحرقوها ، ثم استولوا على البلاد الروسية عاما بعد عام حتى وقعت كلها تحت أيديهم ، وقد حكموها قرنين ونصف قرن ، ومن روسيا امتد زحفهم على بولندا والمجر .

أما عن الجهة الإسلامية فقد استأنفوا نشاطهم فيها ، وتحالفوا مع الصليبيين للقضاء على المسلمين ، وزحفوا من شمال العراق تجاه بغداد ، وفي سنة ست وخمسين وستمائة وصل الطاغية هولاكو حفيد جنكيز خان إلى بغداد بجيوشه ، ونزل قائده ياجونوس على بغداد من غربها وهولاكو من شرقها ، ثم خرج له الخليفة المستعصم في أعيان دولته وأكابر رجاله ، فقاتلوه المماتة وقتلوه جميعاً ، وقلعوا الخليفة وداسوه بالخيل ، ودخلت المدينة وانتسبها وبقي السيف يعمل بها أربعة وثلاثين يوماً ، وقلة ما بقي من أهلها ، والذين بقوا منهم ألف وثمانمائة ألف وزيادة (١٨٠٠٠٠٠) .

نهب المغول دار الخلافة حتى لم يبق فيها إلا ما قاله راجا «البل» ، ثم
 حرقوا بغداد بعد أن قتل أكثر أهلها ، ثم عبروا إلى بلاد الهند ورجالها الخرافة
 لمحاصرة حلب ، فلما دخلوها وضعوا السيف يومين في رقاب أهلها حتى
 أبادوا الخلق ، وبعد حلب دخل المغول حماة ودمشق وأنزلوا بالسكان
 ما أنزلوه بسكان بغداد .

وورث الانتار تراث المسلمين ، وخلفوهم في الحكومة ، وناهيك به بؤسا
 وشقاء للمسلمين أن يتولى أمرهم أمة جاهلة وحشية ليس لها علم ولا دين
 ولا حضارة ولا ثقافة ، لا تطبق القانون أو كاد على العالم الاسلامي ،
 جامع فيه المسلمون ، وانما مات وحدته ، وتفككت عراه وذل شأنه بعد عز .

وبلغت مصر من تدهور الانتار بعد أن أبلى بنوها بلادهم في موقعة
 « عين جالوت » التي هزم فيها جيش الانتار في هزيمة وقيل قائدده وعدد
 ضخم من رجاله وكان ذلك في منتصف رمضان سنة ٦٠٨ هـ ثم لاقى
 المصريون بقيادة بيبرس المغول تجاه الشمال فأوقعوا بهم هزيمة أخرى
 في قيسارية وفي عهد السلطان قلاوون هاجم المغول حمص من بغداد ولكن
 الجيش المصري أوقع بهم هزيمة قسيمة ، وفي عهد الناصر أغار المغول على
 دمشق واحتلوا ولكن الناصر أعتق لهم جيشا ضخما وانتهى بهم بالتراب
 من دمشق فقتلت شملهم ووقع جيشهم بين قتيل وأسير ، وكان الأسرى
 عشرة آلاف .

وهناك جولة أخرى مغولية على العالم الاسلامي بقيادة تيمورلنك
 كانت حملة هولاكو دموية ومدمرة .

لقد لاقى العالم الاسلامي الأوبال من المغول الذين دمروا الحضارة
 وسفكوا الدماء ، وامتد نشاطهم فشمع عدة ممالك اسلامية كما امتد مع
 الزمن عدة قرون ، وقد دخل الكثيرون منهم الاسلام عقب ذلك وكونوا
 امبراطورية في الهند ، واكن الاسلام الكثيرين منهم لم يكن عديما ، وقد
 ورد في ذلك في تاريخ الهند في القرنين الرابع والخامس هـ ، وسبغ
 التاريخ الادبي .

الصليبيون

قلنا أننا ان الحروب الصليبية التي استغرقت قرنين من الزمان (٤٩١ — ١٠٩٧ هـ = ١٠٩٧ — ١٢٩٢ م) كانت لها امتدادات في العصر الحديث باسم الاستعمار ثم باسم الصهيونية ، أما أن الاستعمار امتداد للحروب الصليبية فذلك شيء واضح لأن الدول التي استعمرت العالم الاسلامي هي نفسها الدول التي اشتركت في الحروب الصليبية ضد المسلمين ، وأما أن الصهيونية امتداد للحروب الصليبية فذلك شيء لا يخفى على الباحثين ، فالغرب المسيحي مع كراهيته لليهود هو الذي زرع اليهود في فلسطين ليكونوا شوكة في ظهر العالم الاسلامي وليصرفوا المسلمين الى الحرب حتى لا يحقق العالم الاسلامي تقدما يذكر في مجال الحضارة والاستقرار .

ومن أجل هذا فإن حديثنا عن الصليبيين وامتداداتهم لابد أن يطول : وعندما نتحدث عن دور الحروب الصليبية في إضعاف العالم الإسلامي نذكر بإيجاز نقاطاً محددة تحمل أخطر المدلولات ، وقد أتيج لى أن أسجل هذه النقاط في الفيلم الانجليزي One God and Three God

فالحروب الصليبية شملت الأخطار التالية :

١ — اشتركت فيها كل دول أوروبا ضد العالم الاسلامي .

٢ — استمرت قرنين من الزمان .

٣ — أعلنها البابا « أوربان الثاني » وقادها القسيس ، وقال البابا في إعلانها كلمات لا يليق أن تصدر من رجل دين هي :

Let the truce of God observed at Home, and let the arms of the Christians be directed to Conquering the Infidels.

وهو يأمر أن تتوقف الحروب في أوروبا ، وأن تتجه أسلحة المسيحيين الى القسساء على الكفرة (يقصد المسلمين) وأنه لمن المار أن يصرخ

قائد ديني عظيم هذه الصرخة ، وأن يحث الناس على اراقة الدماء
وأحداث المجازر .

٤ — اشترك فيها ملوك أوروبا الذين عاصروها كلهم تقريباً ،
وكانت الحروب الصليبية الثالثة بقيادة فريدريك ملك ألمانيا وريتشارد
قلب الأسد ملك إنجلترا وفيليب أوغسطس ملك فرنسا ، وكانت الحرب
الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ، وقد أسرى هذا في
موقعة المنصورة وسجن بدار ابن لقمان .

٥ — دارت هذه الحروب الطويلة في أرضنا ودمرت الكثير من مدنها
التي كانت مزدهرة وبخاصة أنطاكية وطرابلس وعكا والمنصورة ويقرر
الباحثون المسلمون أن هذه الحروب كانت شديدة الأثر على الاسلام
والمسلمين ، التهمت البشر والموارد ، ودمرت الزرع والضرع والمنازل
والطرق (١) .

٦ — وعندما تقرّب للمؤلفين الغربيين المنصفين مثل غوستاف
لويون وكيرك وهيرنشو وأمرتون نجد اعترافاً واضحاً ومفصلاً يقرّر أن
الحروب الصليبية كانت ذات نتائج عظيمة بالنسبة للغرب ، وكانت نواة
لعصر النهضة ، وبالعكس كانت الأحوال بالنسبة للشرق فقد هانى من
نتائجها شر المعاناة (٢) .

٧ — وبعد هزيمة أوروبا وطردها من الشرق واصلت أوروبا حملاتها
عن طريق التبشير الديني فأنشأت مدارس الرهبان مثل الفرنسيسكان
والدومينيكان ، كما دفعت للشرق ألواناً من الثقافة لا تناسب الاسلام

(١) سنتحدث بعد قليل عن ملامح أخرى للصليبيين .

(٢) اقرأ ذلك في الجزء الأول من موسوعة النظم والحضارة الاسلامية
وهو بعنوان « تاريخ المناهج الاسلامية » .

رغبة في التأثير على المسلمين ، واتخذت كذلك الاقتصاد وسيلة من وسائل
السياسة الدبلوماسية ، والتدخل عليهم •

الحرب ضد الامبراطورية العثمانية :

ولم يتوقف حقد الغرب للمسيحي على الشرق الاسلامي بانتهاء
الحرب الصليبية ، فقد اتجهت أوروبا لمحاربة الامبراطورية العثمانية التي
كانت طيلة عدة قرون بعد الحروب الصليبية ممثلة للسالم الاسلامي كله
كما ذكرنا من قبل •

الحملة الفرنسية على مصر :

وما ان انتهت أوروبا من الامبراطورية العثمانية حتى اندفع نابليون
بالحملة الفرنسية على مصر ليستأنف الحروب الصليبية التي باتزل
المؤرخون عنها انها كانت في أغلب مظاهرها مشروعاً فرنسياً ، وأن البابا
عندما أراد أن يعلنها ترك مقر رياسته وذهب ليعلنها من كليز مونت بفرنسا •

وقد فشلت الحملة الفرنسية فشلاً ذريعاً ، وأسهمت إنجلترا في
القضاء عليها عندما دمرت الاسطول الفرنسي في موقعة أبي قير البحرية ،
ومع هذا اشتركت إنجلترا وفرنسا وغيرها من دول أوروبا في الدعاية
لخرافة تذكر أن الحملة الفرنسية تركت بمصر أو خلقت بمصر نتائج
حضرية ، وهو ادعاء متهاافت فتدناه بالتفصيل في الجزء الخامس من
موسوعة التاريخ الاسلامي ، فالحملة الفرنسية كانت ضد الحضارة المصرية
القديمة عندما سلطت مدافعها الى رأس أبي الهول ، وكانت ضد الحضارة
الاسلامية عندما اقتحمت بالخيول الجامع الأزهر واستحلت حريمات
المسلمين ، هذا بالإضافة الى ما أراقته من دماء وما غصبتة من أموال ،
وبالإضافة كذلك الى ما قدمته من اغراء ليعقوب شام ليؤلف « اللواء
الاقباط » ، ومعدة الحملة على الرغم من إرادة زعماء الأقباط الذين
استمروا في سائر التصرف الأدهق •

وما ان امتدت الحملة الفرنسية ، بدأ الاوروبيون الغربيون أنكل
الندوة الاسلامية بدءا من المغرب وامتدادا إلى اندونيسيا ، وكان هذا
العدوان الغربي بصورة واحدة ، قسوة وفك وتدمير ، فتن وقتل ، دمارية
الطم ، وتشجيع الخرافات .

وقد تعاونت الدول الغربية تعاوننا كاملا لإخضاع المسلمين فاذا عجزت
هولندا الفقيرة عن إخضاع اندونيسيا ساعدتها إنجلترا ، وإذا ضعفت
إسرائيل عن مقاومة الدول العربية المحطبة بها ، خرج التصريح الثلاثي
(أمريكي بريطاني فرنسي) لحماية الحدود الحالية لدول الشرق الأوسط ،
وقد أثبتت الحوادث أن المقصود بهذا التصريح هو حماية حدود إسرائيل
فاذا اعتدت إسرائيل وحاولت تغيير الحدود فالتصريح حبر على ورق ،
وإذا أحست إسرائيل بأى تهديد صاح أصحاب التصريح بأنهم سينفذون
التبعات التى ألقيت عليهم ، وسيقفون فى وجه المعتدى .

وقبل أن نسرد السلسلة التاريخية لهذا العداء الذى بدأ بالحروب
الصليبية واستمر إلى اليوم نريد أن نضع عنوانا كبيرا هو :

هل هذا العدوان يجرى باسم الدين أم باسم السياسة ؟

وفى الإجابة عن هذا السؤال نذكر أنه كان هناك بعض الناس يعتقدون
أن هذا العداء يجرى باسم السياسة ، ويرون أن التكتلات العالمية ، والمراكز
(الاستراتيجية) ، ثم المحافظة على الأسواق التجارية ، وغير ذلك من
العوامل السياسية والاقتصادية هى التى دعت إلى ما عاناه الشرق من
الغرب من عداء متصل وحملات غادرة متتالية .

ولكن هذه النظرية لا تتنرى على الوقوف أمام البحث العلمى التاريخى ،
ولم يكن يعتنقها إلا من عرفوا بمسألة النية ، أو من كانوا يولون لحساب

الغرب ، وفي كل يوم تقوى الأدلة ، ويزداد الأمر وضوحا بأن العداء هو أولا ديني لا سياسى ثم هو ثانيا عداء الغرب للشرق •

وسأسرد فيما يلى نصوصا عربية وشرقية تؤيد هذا الاتجاه ، ثم أتبع ذلك بتدوين بعض ملاحظات لى عن هذا الموضوع •

جاء فى التشيد الإيطالى ما يلى :

أماء ، لا تبكى ، بل اضحكى وتأملى ، ألا تعلمين أن إيطاليا تدعونى ، أنا ذاهب إلى طرابلس فرحا مسرورا لأبذل دمي فى سحق الأمة الملعونة ، ولأحارب الديانة الإسلامية ، سأقاتل بكل قوتى لمحو القرآن ... إن سألك أحد عن عدم حداثك على فأجيبه : إنه مات فى محاربة الاسلام ، الطبل يقرع يا أماء ، ألا تسمعين هرج الحرب ؟ دعيني أعانك وأذهب •

وقال مستر جلادستون من مشاهير الإنجليز :

يجب إعدام القرآن •

وكتب صاحب مجلة العالم الإسلامى ما يلى :

« العالم النصرانى على اختلاف أممه وشعوبه عرقا وجنسية هو عدو قاسٍ مناهض للشرق على العموم وللإسلام على الخصوص ، فجميع الدول النصرانية متحدة معا على دك الممالك الإسلامية ما استطاعت إلى ذلك سبيلا •

« والروح الصليبية كامنة فى صدور النصرانى كمن فى الرماد ، وروح التعصب لم تنفك حية معتلجة فى قلوبهم حتى اليوم • كما كانت فى تلب بطرس الناسك من قبل ، فالنصرانية لم يزل التعصب مستقرا فى نورها ، متغللا فى أحشائها متمشيا فى كل عرق من عروقها ، وهى أبداً قائمة إلى الاسلام نظرة العداء والحقد والتعصب الدينى المقوت •

« وجميع هذه الشعوب النصرانية مجمعة ومتفقة على عداء الإسلام ، وسحق المسلمين (١) » .

والآن أضيف الى هذه الأقوال المقتبسة الملاحظات الآتية :

أولاً — كانت روح القسوة والتشفيء واضحة في انتصارات الغربيين ، فلم يكن ما أحرزوه من نصر على المسلمين في بعض المعارك نهاية للمطاف ، وإنما كان بدءاً لمجازر شنيعة ، وإزهاق أرواح ، وسكب فيض من الدماء ، وطالما شملت القسوة الأطفال والنساء والعجائز ، وطالما جرت هذه المجازر ، والسافكون يحثسون الخمر ويرقصون طرباً ، لا للنصر وإنما لما يحدثونه بالمسلمين من إبادة وتدمير ، ولم تكن المسألة مجرد قتل وإنما كان يصحب ذلك تعذيب وتنكيل وقد كتب الجنرال نيكلسون يقول : يجب علينا أن نسن قانوناً يبيع لنا أر. نحرق أو نسلخ جلود هؤلاء وهم أحياء ، لأن نار الانتقام التي تتأجج في صدورنا لا تخمد بالشنق وحده ، وقد كان الجنرال نيكلسون حسن النية لأنه فكر في سن قانون بذلك ، ولكن غيره فعل هذا وأفظع منه دون أن يحتاج الى سن القوانين ، وقد كتب المؤرخون الأفرنج أنفسهم هذا التاريخ المرير ، وانتقدوا الأعمال البربرية التي قام بها الأوروبيون ضد المسلمين انتقاداً قاسياً . فهل يمكن أن نقول بعد هذا إن العداء سياسى أو اقتصاوى ؟ الجواب لا شك بالنفى ، إذ لو كان الغرض هو كسب النفوذ أو الأسواق لا كتفى الأوروبيون بالنصر ، ولما أنزلوا بالمسلمين هذه الألوان من الوحشية والتنكيل .

ثانياً — هل هو من محض المصادفة أن جميع الدول الإسلامية دون استثناء تقريباً من المغرب إلى إندونيسيا كانت مستعمرة للدول الغربية حتى سنة ١٩٤٥ ؟ وأنه لم تكن هناك دولة مسيحية واحدة مستعمرة ؟ الجواب القوى الواضح أن ذلك لا يمكن أن يكون من محض المصادفة ، وإنما كانت السيطرة على الدول الإسلامية واستغلالها هدفاً

(١) انظر يوم الإسلام للاستاذ أحمد أمين ص ١٠٩ — ١١١ .

«نرسوما أعده الغربيون ونفذوه ، كما كان ضمان حرية الدول المستبعدة
وابيما مقررًا آمن به الغربيون وأتبعوه »

ثالثًا — هل يمكن أن يتصور الانسان أن فرنسا كان يمكن أن توجه
قواتها المبيدة وأسلحة الغرب المدمرة التي الجزائر ، عدة سنين تفتك فيها
وتدمر لو كان سكان الجزائر شعبا مسيحيا ؟

رابعا — هل يمكن أن يتصور الانسان أن هولندا الصغيرة الفقيرة
تستطيع وحدها أن تأتي من أقصى الشمال لتسيطر على أكثر من مائة مليون
مسلم يسكنون آلاف الجزر التي تتكون منها الآن إندونيسيا ؟ وهل كانت
هولندا تستطيع وحدها ذلك لو تخلت عنها سائر بريطانيا وأسلحة أمريكا؟ والاذ
اشتراط الحلفاء على اليابان عقب استسلامها ألا تسلم إندونيسيا للوطنيين ؟
وهل كانت هولندا تستطيع بعد الحرب العالمية الثانية أن تحلم حلمها أن تسلم
باستعادة السيطرة على إندونيسيا لو لم تؤيدها بريطانيا بقوة الحديد
والنار كما سيأتى بيان ذلك عند الكلام عن هولندا وإندونيسيا ؟

خامسا — هناك دعوى واضحة البطلان يقولها المستعمرون ، وهى أن
احتلالهم هذه البلاد كان يقصد إلى رفع مستواها * * * والاجابة على
ذلك سهلة يسيرة توضحها الحقائق الآتية :

كيف تركت انجلترا الهند والباكستان بعد احتلال دام حوالى ثلاثة
قرون ؟

وكيف تركت السودان بعد أن احتلته حوالى ثمانين عاما ؟

وكيف تركت هولندا إندونيسيا بعد أكثر من ثلاثة قرون ؟

وما هو حال ليبيا بعد الاحتلال الايطالى ؟

والا انجلترا أن تجعل من فلسطين وألندا قومية لليهود ، ولم

تفعل الا بعد أن ، لامتها لعصابة الصهيونية ؟

سادسا — يقولون إن السبب في احتلال هذه البلاد هو نخلفها في ميادين العام والسياسة والاقتصاد * * * ونحن نتساءل : هل مصر أكثر تخلفا من الحبشة ؟

سابعا — تحدث حروب بين الدول المسيحية بعضها والبعض الآخر لأسباب مختلفة كالحرب التي حصلت بين ألمانيا وإيطاليا من جهة وبين دول الحلفاء من جهة أخرى ، ولكن الملاحظ أنه على الرغم مما أنزله المحور بالحلفاء من خسائر فإن دول الحلفاء سرعان ما أنيت عداها لدولتي المحور وأدخلت محل هذا العدا صداقة ومساعدات شاملة .

ثامنا — كانت تركيا موطن الخلافة الإسلامية ، وقد جعلها ذلك هدفا لعداء الغرب المتصل القاسي ، وخلق منها « الرجل المريض » بل عملوا على أن يهوت ذلك المريض ، فلما خلعت تركيا من دستورها كلمة الاسلام أمنت شر الغرب وأصبحت له من الأصدقاء ، وبنيت مزيدا أيضا لهذه النقطة عند الكلام عن « تركيا والغرب » .

تاسعا — وفي الشرق الأوسط تقوم الدولة العربية « لبنان » ويكثر سكانها المسيحيون ، وقد اتجهت الصهيونية إلى محاولة خلق جفوة بين لبنان والدول العربية الأخرى ، وقد عبّر موسى شرتوك الذي كان وزيرا لخارجية إسرائيل عن هذه المحاولة حين قال : إن إحساسنا تجاه لبنان إحساس طيب ، ولا نضمز لها أي عدا .

وكان موسى شرتوك بذلك متأثرا بحماته من المسيحيين الغربيين ، ولكن التجمع الإسلامي في لبنان دفع إسرائيل لتهاجم لبنان بقسوة في الثمانينات ، بيد أن اللبنانيين أغرقوا الضهانية في الدماء فأجبروهم على الجلاء عن أرض لبنان .

عاشراً — وأثبت التاريخ الحديث مهزلة من المهازل اتصلت بالهجوم الغادر الذى قامت به إنجلترا وفرنسا ضد مصر فى أكتوبر سنة ١٩٥٦ • وقد تشعبت هذه المهزلة إلى عدة اتجاهات •

١ — هجوم غادر فيه قتل وتدمير بدون سبب •

٢ — هجوم عنيف من إنجلترا وأمريكا ضد اندونيسيا لأنها وقفت تؤيد شقيقتها مصر وتشد أزرها فى محنتها •

٣ — يخوّل الكونجرس الأمريكى أيزنهاور أن يستعمل الجنود الأمريكين لحماية استقلال دول الشرق الأوسط إذا تعرضت لخطر شيوعى ، أما إذا هُدد استقلال هذه الدول بالقوات الغربية فان إيزنهاور ليس له أن يستعمل القوات الأمريكية لحماية استقلال هذه الدول ! ! ! بل ربما يبارك هذا التهديد وأيده •

مرة أخرى : ما طبيعة هذا العداء ؟

الجواب : إنه عداء دينى ما فى ذلك شك ، وقد كان من الممكن أن يعلن الغربيون ذلك لولا أنهم خشوا أن تحس الدول الاسلامية بالخطر يتهددها جميعاً فتتحد وتتعاون لمقاومة هذا العدوان ، والغرب حريص على أن يثير الخلاف بين هذه الدول وأن يبذر بينها بذور الشقاق بايهاهما أن هذا العداء لا صلة له بالناحية الدينية ، وبذلك يتخطفها ويستذلها واحدة بعد واحدة ، على أن كثيرين من الغربيين لم يستطيعوا إخفاء السبب الرئيسى فراحوا يعلنونه ويجهرون به ، كما تحدثت بذلك النمذاج التى نقلناها عن بعضهم فيها سبق •

بقى علينا أن نقرر حقيقة كبيرة الخطر ، وهى أن عداء المسيحيين الغربيين للمسلمين ليس الا انحرافاً عن مبادئ المسيحية الصحيحة ، فالمسيحية كما علمها السيد المسيح تفيض رحمة وتسامحاً ، ولكن ما لاقاه

اليسوع وأتباعه من جفوة اليهود وقسوتهم وتكليفهم ، أشار حفيظة
المسيحيين فاذا بهم يستعذبون أن يعذبوا الآخرين ، ويحبون إراقة الدماء ،
ثم إذا بهم يتعاونون مع اليهود أعدائهم الأول في محاربة الاسلام والقضاء
عليه ، لا لشيء إلا لأن الاسلام سهل الانتشار ، رأوا فيه منافسا خطيرا
اجتاح أرض المسيحية ، وتسرب إلى قلوب كثير من المسيحيين •

أما الاسلام فكما قلنا من قبل يدعو أتباع الديانات السماوية المختلفة
إلى التعاون لخير الانسانية ، ويرى أن الايمان بالله والاعتقاد بوحدانيته
أساس قوى يمكن أن يتعاون في ظله أتباع هذه الديانات ، وقد كان الرسول
خير من مثل لذلك وتبع أصحابه سيرته وبخاصة عمر بن الخطاب الذى
تقدم من بيت مال المسلمين مرتبا منظما للعجزة والشيوخ من اليهود
والنصارى ، والذى رفض أن يصلى فى كنيسة القيامة حين دخل وقت
الصلاة وهو بها ، خوف أن يحاول المسلمون أن يتخذوها مسجدا كما سبق •

وقد سار أمراء المسلمين على هذا النحو ، فعند ما فتح الصليبيون
بيت المقدس أسالوا الدماء أنهارا ، وعندما استرده المسلمون شملوا بالنفوس
والتسامح سكانه المسيحيين ، وقد كان تسامح المسلمين بعيد الأثر حتى
فى نفوس الصليبيين الذين بدأ الكثيرون منهم يقتبسون هذه الروح التى
عُرِفَ بها المسلمون ، ويقول توماس أرنولد : إن الصليبيين الذين كانوا
يفدون حديثا إلى الشرق كانوا يعجبون من روح التسامح التى يرونها فى
الصليبيين الذين ظال مقامهم فى فلسطين ، وكانت الكنيسة تكرر احتجاجها
لتفشى روح التسامح بين أتباعها •

ويقول الراهب ميشو (١) : ومن المؤسف أن تقتبس الشعوب المسيحية
من المسلمين التسامح ، واحترام عقائد الآخرين ، وعدم فرض أى معتقد
عليهم بالقوة •

(١) رحلة دينية فى الشرق ص ١٧ •

تلك هي روح الأغلبية الساحقة من المسلمين ، فإذا كان بعض الولاة الأتراك أو غيرهم عرّفوا بالقسوة والتعصب فذلك شيء بعيد عن الاسلام ، وقد لاقى المسلمون أنفسهم كثيرا من العنت من خشونة هؤلاء الأتراك وقسوتهم •

وقد آن لنا أن نذكر موجزا سريعا لعدوان الغرب على الشرق أو لعدوان المسيحيين واليهود الغربيين على المسلمين •

صور العدوان المسيحي على الشرق الاسلامي

ملاح أخرى للحروب الصليبية :

في الشرق الأوسط مجموعة من الدول الاسلامية ، كانت أسبق من غيرها إلى اعتناق اسلام ، وكانت بالتالي أسبق من غيرها في تلقي عدوان الغرب ، وقد بدأ هذا العدوان بما يعرف بالحروب الصليبية ، ولا يزال مستمرا حتى الآن • وسنعطي موجزا سريعا لهذه السلسلة من الاعتداءات ، وسنقتبس من الكاتب الغربي الدكتور غوستاف لوبون بعض سطور مهاذونه عن الحروب الصليبية ليكون شاهدا على بني جنسه (١) . قال :

« كانت أوروبا ولا سيما فرنسا في القرن الحادي عشر الذي جُرِّدت فيه الصليبية الأولى في أشد أدوار التاريخ ظلما ، وكان النظام الاقطاعي يأكل فرنسا التي كانت مملوءة بالحصون التي كان أصحابها — وهم من أنصاف البرابرة — يقتتلون على الدوام ، ولا يملكون سوى أناس من العبيد الجبال ، ولم يكن في ذلك الحين لسوى البابا نفوذ شامل ، وكان الناس يخشون البابا أكثر مما يجترمونه •

« وكانت دولة الروم في الشرق قائمة ، وكانت القسطنطينية مع سلطانها عاصمة دولة كبيرة لا تنتهي فيها المشاحنات والمنازعات •

(١) (١) لوبون ، الثاني من « حضارة العرب » ص ٣٤٥ — ٣٦٧ •

« وكانت الدول الإسلامية في ذللك وقتها ، لا تزال حاضرة ، وكانت ذلك محافظة على سلطانها القديم » .

« فالحروب الصليبية التي شبت في ذلك الحين لم تكن سوى نزاع عظيم بين قوم من الهمج الأوربيين ، وبين حضارة المسلمين التي كانت تعد من أرقى الحضارات التي عرفها التاريخ .

« وكانت أكثر قوافل الحجاج الأوربيين إلى بيت المقدس تكون فيالق عسكرية أكثر منها جماعات للحجيج . فكان بها بارونات وفرسان ، طالما هاجمت الأعراب والتركمان ، فاضطرو هؤلاء إلى الدفاع عن أنفسهم ، وبخاصة أن التركمان الذين قاموا مقام العرب في سوريا ، كانوا أقل تسامحا من العرب ، فالتزموا حجيج النصارى دخول القدس بخشوع ، ولم يسمحوا لهم بالدخول في شكل عسكري ، وعلى ضوء المشاعل ، كما كان العرب يسمحون بذلك .

« وزار بيت المقدس الراهب بطرس الناسك ، فاعتاظ لما رأى من معاملة المسلمين للنصارى ، وخيل إليه أنه مبعوث الرب لانقاذ الأراضي المقدسة من الكفار (المسلمين) ، واستعان بالبابا أوربان الثانى فأيده البابا ، ثم أیده الأمراء الاقطاعيون ، وبخاصة أن المسلمين كانوا يهددون القسطنطينية ويحاولون الاستيلاء عليها ، وقد لعبت أطماع التجار والأمراء دورا كبيرا في تنشيط هذه الحركة » .

وفي ربيع سنة ١٠٩٦ بدأت الجيوش الأوربية ترحف ولكنها تعرضت إلى مجاعات وأمراض فتاكة ، ومن نجا منها عمل في السلب والنهب والتدمير ، وقد روت آن كرومنين بفت قيصر الروم أنه كان من أحب ضروب اللهو عند الصليبيين قتل الأطفال وتقطيعهم إربا إربا وشيئهم ، ولكن هذه الجيوش الهمجية العاطفية لم يكن لها غناء ، وإنما قنى أفرادها بالأوبئة والمجاعات والفقر الداخلية ثم بدفعا العرب .

(م ١٤ - الجزء الاسلامى)

وتلا ذلك زحف ضخّم قوامه مليون أرربي يقودهم الأمراء والملوك ، وقد استولى ذاك الجيش على القدس في يولية سنة ١٠٩٩ ، ويقول غوستاف لوبون : « لم يكتف قومنا الصليبيون الأتقياء بضروب العسف والتدمير والتتكيل التي اتبعوها ، فعقدوا مؤتمرا أجمعوا فيه على إبادة جميع سكان القدس من المسلمين واليهود والنصارى الارثوذكس الذين كان عددهم ٦٠ ألفا فأفنؤهم عن آخرهم في ثمانية أيام ولم يستثنوا منهم امرأة ولا ولدا ولا شيخا » .

ويقول غليوم الصورى : « إن الصليبيين كانوا من السفهاء الفاسدين والملاحدة الفاسقين ، ولو أراد كاتب أن يصف رذائلهم الوحشية لخرج من طور المؤرخ ليدخل في طور القادح الهاجى » .

وتوالت بعد ذلك الحروب بين المسلمين والصليبيين ، وقد تم طرد الصليبيين من القدس على يد صلاح الدين الأيوبي ، ودخل صلاح الدين القدس وأسر ملكها سنة ١١٨٧م وأنهى سلطان الصليبيين عليها ، ولكنه — كما يقول غوستاف لوبون — « لم يشأ أن يفعل في الصليبيين مثل ما فعله الصليبيون الأولون في المسلمين ، وقد وجد هؤلاء في حماه أمنا وسلاما » .

وانزعج ملوك أوربا لاسترداد المسلمين للقدس ، وتأنفت حملة ضخمة سنة ١١٨٩ يقودها أقوى ملوك أوربا وهم فيليب أوغسطس ملك فرنسا وفردريك بارباروس قيصر ألمانيا ، وبريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا ولم يكن لهذه الحملة من أثر إلا القتل والتدمير في أثناء الانتصارات الصغيرة التي كان يحرزها المهاجمون .

ومن الحملات التي قادها ملوك أوربا أيضا الحملة التي قامت من فرنسا بقيادة ملكها سانت لويس سنة ١٢٤٨ ، وقد اتجهت هذه الحملة الى

الاستيلاء على مصر ، ولكن الجيش المصرى هزمها وأسر الملك وسجنه فى دار ابن لقمان بالمنصورة •

وبعد مائتى سنة من الصراع المرير والاضحايا التى لا تعد ولا تحصى ، استطاع المسلمون أن يستردوا بلادهم من الصليبيين السفاكين ، وقد بدأت انتصارات المسلمين تتضح على يد نور الدين زنكى (١١٤٩ - ١١٧٤ م) وجاء بعده صلاح الدين الأيوبي فحقق أعظم انتصارات المسلمين وبخاصة بمعركة حطين (١١٨٧) التى أدت للاستيلاء على عكا ونابلس والرملة ويافا وبيت المقدس التى سقط ماكها أسيرا فى أيدي المسلمين كما سبق ، وفى عهد السلطان بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٧٧ م) تهاوت المستعمرات الصغيرة التى بقيت للصليبيين على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، وفى سنة ١٢٩٢ م سقطت آخر مدينة لاتينية فى يد ملك مصر السلطان الأشرف خليل ، وانتهى بذلك هذا الصراع الذى شنته أوروبا المسيحية على مسلمى الشرق (١) •

وبعد ، هل كان المقصود بهذه الحروب الإستيلاء على القدس لأنها كعبة المسيحيين ؟

فلماذا إذاً كان الذبح والتقتيل والإبادة ؟

ولماذا استولى المسيحيون على غير القدس من أملاك إسلامية وأسسوا إمارات أربعة فى الشام ؟

ولماذا وجهت بعض الحملات الصليبية للاستيلاء على مصر ؟ وعلى تونس ؟

لا ، لم يكن الغرض الاستيلاء على القدس ، وإنما كان الغرض تدمير الاسلام والقضاء على المسلمين •

(١) اقرا عن الحروب الصليبية فى الجزء الخامس من موسوعة « التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية » للمؤلف .

أوروبا والتتار والمسلمون :

تصوّد المؤرخون بعد الحديث عن الحروب الصليبية أن يتساءلوا :
لماذا فشلت أوروبا في هذه الحروب ؟ ولماذا توقف ملوك أوروبا عن مد
يد العون إلى الأمراء الصليبيين وهم يهرون تحت أقدام المسلمين الواحد
بعد الآخر ؟ ويجيب المؤرخون بأجوبة مختلفة حسب اتجاهات هؤلاء
المؤرخين وظروفهم ، ولكن خطرت لى فكرة لم أر أحيدا من المؤرخين
تكرها ، وقد أؤخت لى بهذه الفكرة تلك التواريخ المتسلسلة المتكرار
الأحداث التي وقعت في العالم الاسلامى في هذه الأثناء ، فندمنا في ذات
هذه التواريخ أمامى ظهر أن النشاط الصليبي بدأ سنة ١٠٩٧ وامتد بداية
القرن الثانى عشر والثالث عشر ، وأن زحف التتار للمغرب بدأ فى نفس
الاسلامى في مطلع القرن الثالث عشر ، وأن هؤلاء قد استولى على بلاد
سنة ١٢٥٨م وأسلم السيف فى رقاب المسلمين ، وبعد الحصار الامانى
في عاصمة الخلافة ، وفي نفس ذلك الوقت كانت تسقط الامارات الصليبية
في أيدي المجاهدين المسلمين كما سبق القول .

الا يمكن أن نفكر أن عناية الصليبيين الأولى كانت متجهة إلى
القضاء على الاسلام وسحق المسلمين كما ظهر ذلك من أقوال الكثيرين
منهم ، فإذا رأوا أن زحف التتار على العالم الاسلامى يحقق لهم هذه
الغاية بنفس القوة وبروح التدمير التي يريدها ، أغناهم ذلك عن
مواصلت هذا الجهد من جانبهم ، وقفنوا بهذا السيف الهاد الذي تسلط
على رقاب أعدائهم المسلمين . وأسأل دعاءهم أنهارا ، وأعمل نقل نسوب
التفريب والتهم في جميع نواحي الحصار الامانى ؟

قد يوافق المؤرخون على أن يعدوا هذا سببا من الأسباب المؤثرة التي
جعلت ملوك أوروبا يتوانون عن مساعدة ذويهم ، وقد لا يوافقون ،
ولكننى أشاء إلى أن أعتبر هذا سببا ذا بال من الأسباب الرئيسية التي
أدت إلى فشل الصليبيين في الشرق الأوسط ، فإنا نرى التتار الذين

وأصبحوا بعض أتباعه ، عادت أوروبا تتحفز من جديد ، وتعد العدة لاستئناف نشاطها الحربى على العالم الإسلامى ، واتجهت فى هذه المرة إلى المهجر على تركيا زعيمة العالم الإسلامى وموطن الخلافة الإسلامية آنذاك ، والهجوم كذلك على ما تتبع تركيا من ممالك إسلامية أخرى (١)

تركيا والغرب :

شهد القرن السادس عشر الميلادى دولة إسلامية كبرى هى تركيا ، تقيم إمبراطورية إسلامية من أكبر الامبراطوريات التى عرفها التاريخ ، ويأخذ سلطانها لقب الخليفة ومنصب الخلافة ، ويضم إليه الجزيرة العربية ومصر والشام والعراق وشمال إفريقيا أو أكثره ، وشهد هذا القرن تلك الامبراطورية الإسلامية القوية المتحدة تهدد أوروبا ، وتحتل منها ما يصرف الآن بروسيا وبلغاريا واليونان ويوغسلافيا وألبانيا والمجر ، وتجعل كلا من البحر الأسود والبحر الأبيض بحيرة إسلامية ، وشهد

(١) الأبحاث التى وردت فى صلب الكتاب هى نص ما احتوته الطبعة الأولى ، وقد اطلعت بعد ذلك على كتاب :

Kirk : A Short History of the Middle East.

وفى (ص ٧٦) منه ما ينفذ أن الصليبيين حاولوا أن يتصلحوا بالتتار ويقتدوا بهم حلفا ضد المسلمين للغرض المشترك ، يقول Kirk : وعندما اكتسح التتار البلاد الإسلامية كان الصليبيون قد وصلوا إلى حالة من الضعف قربت نهايتهم . وقد حدث عند ذلك ما تمثل فى عقلية الخطأ السياسية الملتوية للتعبير ، فقد تراءى لدبرى السياسة : بحيثية فى ذلك الوقت أن يبرموا مع أولئك القوم الوحشيين تحالفا ضد المسلمين ، فأوفد البابا أنوسنت الرابع من قبله جون ديبانو John de Piano فى مهمة سياسية إلى منغوليا سنة ١٢٤٥ ، وبعد ذلك بثلاث سنوات أوفد لويس التاسع المعروف بالناسك وليم روبرد كوى William of Rubruquis إلى بلادهم ولكن البعثتين باعتا بالفشل .

ونعود إلى كلامنا فنقرر أنه عندما فشل مشروع التعاون بين الصليبيين والتتار ، رأى الصليبيون أن التتار وحدهم يوفون بالغرض ، فتركوا المبدآن . وتوقف عون أوروبا لجماعات الصليبيين .

القرن السادس عشر اسم الخلافة العثمانية وهو مصدر رعب لدى الدول الأوروبية ومبعث خوف وذعر للمسيحيين الغربيين ، وقد ذكرنا عنها لمحة من قبل •

فماذا فعل الغرب أمام هذه الامبراطورية الاسلامية الكبرى ؟

يقول الأستاذ محمد حبيب أحمد (١) : تألّبت الدول الأوروبية على الخلافة الاسلامية ، واجتمعت كلمة المسيحيين على الوقوف في وجه التيار الاسلامي الجارف ، وعقدت المعاهدات وتضافرت القوى لهذا الغرض ، وكان من سوء حظ الخلافة الاسلامية أن ظهرت هذه الحركة الأوروبية في وقت كان سلاطين آل عثمان قد انغمسوا في الترف ، واستسلموا للذعة والنعيم •

وقد اتخذ الصراع ضد تركيا شكلا دينيا واضحا ، إذ تكوّن ضدها « حلف » مقدس من النمسا ومن بولندة والبنذقية ، وكان لهذا الحلف أثر كبير في التغلب على تركيا وضعضة قوتها ، ثم دخلت روسيا باسم الدين هذه الحرب تؤيدها جميع الدول المسيحية ، وأنزلت بالخلافة الاسلامية ضربات قاصمة وخسائر فادحة ، وكانت نتيجة هذه الأحداث أن هوت تركيا من شأق وهان أمرها ، حتى أصبحت تعرف « بالرجل المريض » ، وكان من الممكن القضاء على « الرجل المريض » بسرعة لولا اختلاف دول أوروبا على تركته ، فمن الذي يرث بوزغازي الادرنيل والبسفور ؟ إن ورثتهما روسيا امتد نفوذها إلى البحر المتوسط وهددت مصالح إنجلترا وفرنسا ، وإن ورثتهما إنجلترا خنقت روسيا في البحر الأسود ، وحالة لهذه المسألة اتفقت الدول على ألا تتجهز على « الرجل المريض » وأن تبقى على قيد الحياة لا حرصا عليه ، ولكن كراهة لما سينجم من خلاف حبل ميراثه (٢) •

(١) فريسة الشعوب الاسلامية ص ١٦ •

(٢) انظر ما كتبناه عن « المسألة الشرقية » في الجزء الخامس من موسوعة : التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية •

الاستعمار للدول العربية :

على أنه إذا كان التنافس بين الدول المسيحية أبقى البوسفور والعثمان في يد تركيا ، فإن هذه الدول تخلفت كثيرا عن ممتلكات « الرجل المريض » بعد أن جعلته في حالة يعجز فيها عن الدفاع عن هذه الممتلكات ، وهكذا حطم الغرب المسيحي الخلافة العثمانية • واستولى على الأقطار العربية ، التي كانت تكون أبرز جزء في جسم الخلافة •

وهكذا احتلت فرنسا الجزائر سنة ١٨٣٠ ، وتونس سنة ١٨٨١ ومراكش سنة ١٩١١ ، وأدنت الدول لفرنسا فاحتلت لبنان سنة ١٨٦٠ ثم احتلت سوريا سنة ١٩١٨ •

واحتلت إنجلترا مصر سنة ١٨٨٢ •

واحتلت إيطاليا طرابلس سنة ١٩١١ • •

واحتلت إنجلترا العراق سنة ١٩١٧ ثم فلسطين عقب ذلك •

وامتد نفوذ بريطانيا كاملا إلى الحجاز حيث حالف الشريف حسين العرب ضد تركيا •

وقبل ذلك كانت بريطانيا قد سيطرت على أكثر المدن الساحلية في الجزيرة العربية وأخضعت لنفوذها وحمايتها مستعمرة عدن وسلطنة مسقط وعمان ، ومشيفات الكويت وقطر والبحرين ، وعن طريق هذا الساحل بدأت بريطانيا ، تهجد اليمن والمملكة العربية السعودية ، وقد اتخذ هذا التهديد شكلا أقوى عندما ظهر البترول في المملكة السعودية فاحتلت بريطانيا واحة البريمي ، إذ كرهت أن تجاورها دولة تهدد نفوذها في هذه البقاع •

ولم يكن سقوط أكثر الدول العربية في أيدي بريطانيا وفرنسا مصاحفة ، ولا كان بسبب الحرب العالمية الأولى التي هزمت فيها تركيا مع ألمانيا ، وإنما كان ذلك خطة مرسومة ، وسياسة موضوعة ، اتفقت عليها

الدولتان ، ففي سنة ١٩٠٤ عقدت الدولتان اتفاقا سريا يطلق يد فرنسا في الشمال الأفريقي وفي سورية ولبنان ، مقابل إطلاق يد إنجلترا في مصر وفلسطين .

ولكن هذا كله لم يضع حدا لعدوان الغرب على تركيا ، ويرى كثير من الباحثين أن من الأسباب الهامة التي دفعت مصطفى كمال إلى إلغاء الخلافة ، أن أوروبا المسيحية واصلت هجومها على تركيا وكانت ترى في لقب الخلافة رابطة يمكن أن تجدد قوة الشعوب الإسلامية وتعاونها ، فأرهقت تركيا هجوما وإيذا ، ولم تكف عن تركيا حتى ألغت الخلافة ، وألغت المدارس والمؤسسات الدينية ، ثم رفعت من دستورها النص على أن « دين الدولة هو الإسلام » وعندئذ فقط بدأت تركيا تأمن شر العدوان المسيحي .

أما البلاد الإسلامية التي وقعت تحت سلطان المسيحيين الأوروبيين فقد عانت ضروبا من الهوان ، مزق هؤلاء شملها وأنزلوا بها البذل والاستعباد ، ونشروا الجهل والخرافات وسلبوا مواردها ، وتركوا الشعوب فقيرة جائعة ، ولقى الأحرار والمفكرون أسوأ المصائر في هذا الظلام القائم ، لقوا الحتف والسجن والنفي والتشرد ، وأنفقت ثروات هذه البلاد على المبشرين الذين يحاربون الإسلام ويحسنون للناس اعتناق المسيحية .

الحركة الصليبية تزرع الصهيونية بفلسطين :

ولاقى فلسطين أسوأ المصائر ، فقد أصدر الإنجليز وعد بلفور وشجعوا هجرة اليهود ، ولم يخرجوا منها إلا بعد أن أسلموها لليهود لقمة سائغة ، وقد أوضحنا في كتابنا « اليهودية » والجزء الخامس من موسوعة « التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية » ظروف المؤامرة التي شاكها الإنجليز باسم اليهود للقضاء على عروبة فلسطين ، وسلبها حقها في الحياة ، لتكون مركزا استعماريا في الحزام الاستراتيجي الذي يفرضه الغرب على الكرة الأرضية .

تحرر العرب يفرز الغرب :

واستطاعت الدول الإسلامية أن تحصل على استقلالها بعد كفاح مرير ، ولكن عدوان المسيحيين الغربيين لا يزال قائماً على أشده يتلمس السبيل للفتك بالمسلمين الوادعين ، وقد تعرضت مصر سنة ١٩٥٦ إلى حملة جديدة قوامها الحديد والنار صبها الغرب ، لا لشيء إلا لأن مصر أرادت أن يكون استقلالها كاملاً لا تشوبه شائبة (١) وتعرضت مصر كذلك لقوة الولايات المتحدة وأسلحتها عندما استطاعت أن تحقق نصراً على إسرائيل سنة ١٩٧٣ .

بريطانيا والهند :

عندما نتحدث عن اضطهاد أوربا المسيحية للمسلمين ، يعترض بعض الناس بقولهم إن الهند عانت اضطهاداً طويلاً من بريطانيا مع أن الأغلبية الساحقة من سكانها غير مسلمين .

نعم عانت الهند اضطهاداً مريراً من بريطانيا امتد بضعة قرون ، ولكن الباحث المدقق يدرك أن العداء كان موجهاً إلى الهند لأنها كانت مركزاً إسلامياً ، لقد كانت الهند دولة أو دولا إسلامية قبل الاحتلال البريطاني ، فاتبع البريطانيون نفس السياسة المسيحية الرسومة وهي القضاء على القوى الإسلامية أياً كان مقرها ، وهكذا اجتاحت القوى البريطانية شبه القارة الهندية .

ولما استقرت القوات البريطانية في الهند ظهرت الجماعة الهندوكية التي لم تعتنق الاسلام ، وحينئذ اتجه التدمير الاستعماري إلى مسلمي الهند أكثر من غيرهم ، وهنا نترك الكلمة إلى كاتب (إنجليزى) هو السير وليم هانتر Sir William Hunter الذي كتب يحذر الإنجليز نتائج السياسة الحمقاء التي اتبعوها ضد مسلمي الهند ، قال :

(١) كتبت هذه السطور في أثناء أزمة قناة السويس وحملة انجلترا وفرنسا وإسرائيل على بورسعيد في نوفمبر سنة ١٩٥٦ .

« ولقد عاش ملايين المسلمين في الهند بعد سقوط دولة المغول في
تعاسة وشقاء بعد أن فقدوا كبرياءهم وأملهم وقوتهم ، وكالتوا يجمعون
عن الإدارة والنائب اللهم إلا المراكز العاقبة . »

« وإنه لن يجدينا نفعا أن نصم آذاننا عن هذه الحقيقة الماثلة من
أن المسلمين الهنود لهم الحق في مقاضاتهم عن الأمور الخطيرة التي
ارتكبناها ضدّهم ، والتي لم ترتكبها حكومة من الحكومات ، إنهم يقاضوننا
عن إغلاق كل حياة كريمة في وجوه الأعلام منهم . ويقاضوننا كذلك عن
نظام التعليم الذي يجعل معظم مجتمعهم في حضيض الثقافة واليقوس ،
ويقاضوننا أخيرا عن عدم المساهمة الفعالة في مناسبة التعليم الخاصّ بهم . »

« وكان الهنود كلما مسهم شيء من جور المستعمر وعسفه يزداد
سخطا على المسلمين ، مقررين الحقيقة الهامة وهي أن الاستعمار لم ينزل
ببلادهم إلا متبعا للإسلام والمسلمين ، وأنه لولا وجود المسلمين في الهند
لاقت الهند من بريطانيا ما قاسته من عنف وإرهاب . »

ويقول الأستاذ محمد حبيب أحمد (١) : واستطاعت السياسة
البريطانية أن تستغل الظروف المحلية فتوسع الهيوة بين قسمة الهند
الرئيسيين : الهنود والمسلمين ، وقد استغل البريطانيون سياستهم في
الهند باضطهاد المسلمين ، إذ أنهم كانوا سادة البلاد ، الذين نظموا
المقاومة التي انتهت بثورة سنة ١٨٥٧ وهم الذين نشروا الدعاية الحادة
ضد الاحتلال البريطاني لبلادهم .

وقد تمكنت في الهند نفس السياسة التي تمكنت في دول الشرق
الأوسط : تمزيق البلاد إلى إمارات وأقاليم ، ونشر الجهل والخرافات ،
وكانت الهند كما يقول المؤرخون حرة التاج البريطاني ، ولكن سكان هذه

المرّة كانوا يعانون الجوع والحرمان لنتهيّا للتاج البريطاني ألوان الزخاء
والترف .

يقول الدكتور عمر فروخ تحت عنوان تراث الاستعمار (١) :

المستعمر لا يريد أن يعلم أبناء البلاد الخاضعة له ، وإذا اضطروا
إلى أن يعلمهم علمهم ما يضرهم أكثر مما ينفعهم ، من أجل ذلك لا نستغرب
إذا علمنا أن الإنجليز لما غادروا الهند كان عدد الأميين ٨٨٪ من مجموع
أربعمائة مليون نفس ، أما ماعدا الأميين وهم ١٢٪ من السكان فكان
منهم ٢٪ تعلموا شيئاً من اللغة الانجليزية ، وأما العشرة في المائة فلم تكن
ثقافتهم تتعدى قراءة شيء في لغاتهم المحلية ، أما تعليم البنات فلم تتجاوز
اثنين في الألف ، وحتى هؤلاء كان نصيبهن من التعليم ضئيلاً .

هولندا وإندونيسيا :

كان الأستاذ إحسان عبد القدوس أحد الصحفيين المصريين الذين
رافقوا جمال عبد الناصر في رحلته لمؤتمر باندونج سنة ١٩٥٥ .
وقد كتب الأستاذ إحسان في المجلة التي يرأس تحريرها مقالا عنوانه
« جنة المساكين » والعنوان قوي الدلالة على ما يحويه المقال ، ثم أتيح
لي أن أعيش في إندونيسيا أستاذاً للدراسات الاسلامية واللغة العربية
بالجامعة الاسلامية الحكومية ، ومديراً للمركز الثقافي العربي بجاكرتا .
وهكذا عشت بنفسى في الجنة . وعشت بنفسى مع المساكين ، وأنا أكتب
هذه السطور في أحضان هذه الجنة الورافة وبين أكناف هؤلاء المساكين .

أما الجنة أو إندونيسيا فقد منحها الله وأضفت عليها الطبيعة جمالا
شاملا يعجز البلغاء والفنانون عن تصويره ، وكنت في الحقيقة أحسب قلماً
يستجيب لى ، ولكنه عند وصف الطبيعة في إندونيسيا لا يستجيب أو

(١) باكستان : دولة ستميش ص ٧٠ .

لا يوفى بما يلزم أن يقوم به : جلست مرة مع بعض رفاقي في أحد الجبال الشامخة بين المناظر الرائعة ، وأصوات الطيور المفردة ، وأمامنا مرتفع خلاب تتبع من بين صخوره المياه ، ثم تنحدر من أعلى فتكون شلالا بديع المنظر ، وتتساب هذه المياه الباردة النقية بين الحشائش والزهور والأشجار محدثة صرقات أعذب من الموسيقى ، قال لى أحد الرفاق : هل تستطيع أن تصف هذا المنظر ؟ وأجيبته بسؤال آخر يحمل جواب من أعياء الجواب ، قلت متطلعا الى السماء : يارب ، كيف تكون جنة الخلد ؟

وليس مثل هذا المكان نادرا في إندونيسيا ، بل إنه ليس قليلا ، إنه حولك أنى تعيش في هذه البلاد ، فالجبال الخضراء منتشرة في طول البلاد وعرضها ، بحيث تتمتع كل مدينة بجبل يهرع إليه سكانها من حين إلى آخر كما يلجأ المصريون الى احضان البحر في شهور الصيف ، لا ، إن الشارع الذى نعيش فيه ليس بعيد الشبه عن الجبال ، وحديقة المنزل تحفة خلقتها الطبيعة ، والقرية الصغيرة الوداعة لا تعرفها بمنازلها ومبانيها ، وإنما تعرفها بالأشجار الباسقة التى اختبأت بينها الدور وتوارت خلفها البيوت .

وليس في إندونيسيا صيف ولا شتاء ، ولكنه ربيع دائم طول العام ، ربيع بنسيمه وأزهاره وجوه الذى لا تشكو فيه حرا ولا تحتاج فيه إلى دفء ، وكنت مرة في بلدة صولو واشتدت الحرارة قليلا ، فدعاني مضيفى إلى الذهاب الى بيته في الجبل (توانج مانجو) فلبيت الدعوة ، وركبنا السيارة الى الجبل ، وبدأت الحرارة تقل رويدا رويدا والسيارة تتسلق هذا الجبل الشامخ ، وبعد رحلة لم تتجاوز ساعة واحدة ألفيتنى أقشعر من البرد ، وتوشك أسناني أن تصطلك ، فأشعل مضيفى لنا النار .

قلت لمضيفى : تنقلنى من الصيف الى الشتاء في ساعة واحدة .

قال مضيفى : هل تحب أن تعود للصيف ؟

قلت : لا ، ولكنى أرجوك أن تشترى لى منزلا في منتصف الطريق بين الجبل والبلدة ، منزلا يمشى فيه الربيع .

وتنتشر الفواكه في اندونيسيا كثيرا نسامله ، وتوجد جودة نادرة ، أما
سكانها فممنخفضة بحيث أنها في تناول الفقير والفنى ، وفي اندونيسيا أنواع
من الفاكهة لم أرها في غيرها من البلدان على كثرة ما زرت من أقطار ،
وهناك فاكهة يمكن أن يقال أنها مشاع بين الراغبين أيا كان مالكا الحقيقى
ففى حديقة منزلة بجوكجا شجرة جوافة ، وطالما تسلقها أبناء جيراننا على
مرأى ومسمع منا ، لياخذوا من ثمارها ، وكانت هذه سياسة متبعة مع
كثير من الأشجار المماثلة فى حدائق البيوت المجاورة ؟

لست أحسب أن استأثر به الأمريكان عن هذه اللجنة فللحديث عنها
بالأخرى ، الجزء الثانى من « التاريخ الإسلامى والحضارة
الإسلامية » ، حيث تتأثر من اندونيسيا بعض الدول الإسلامية غير
الدربية ، فالأرجح القلم الآن من التعديت عن اللجنة ، لأنكم كلمة قصيرة
عن المساكين .

يرى الرأى ملايين البشر فى بعض الصحارى القاحلة والبلدان
الفقيرة ، مستخدمى الثقافة وأنفسهم البكر ، فلا يجب إلا أن لمرأهم ،
ذلك لأن الطبيعة حولهم قارية قارية أو شديدة ، ولكن الدهشة تملأ
الإنسان حين يرى اندونيسيا التى هم بالمسكين بين هذه الأثيرات التى
تنتشر من البلاد ، والمعادن التى تنبعث فى جوف الأرض ، والزرع والثمار
الذى تنطى سطحا ، واللاى ، والأشجار التى تنبت فى البساتين المحيطة بها .
لو كان فى اندونيسيا ذلك البرد القارس الذى تشهده أغلب دول العالم فى
الشتاء لهلك من هذا البرد آلاف الأبرياء الذين لا يستطيعون الحصول
على لباس يقيهم وطأة البرد أو فسادهم دفء يلجئون إليه من زمهرير
الشتاء . ولكنه الاحتلال فى كل زمان ومكان ، يضمن للمفصل العيش الهنىء
ويفرض على أصحاب البلاد البؤس والحرمان .

وقصة شاطئ اندونيسيا توثق ارتباطا واضحا بينه وبين انتشار
الدين فى بلادها ، فمن الواضح فى هذا أن الدين الإسلامى

في اندونيسيا وبين انتشاره فيها ، وعلى الرغم من أن هذا الموضوع كان غامضا حتى عهد قريب فان الدراسات الحديثة التي قمت بها وقام بها غيرى من الباحثين قد وضعت أمامنا ضوءا كافيا أنار لى السبيل عندما تحدثت عن اندونيسيا في المرجع الذى أشرت اليه آنفا ، وليس هنا مجال تفصيل موضوع دخول الاسلام اندونيسيا وتطوره بها وانتشاره فيها ، لكنى أكتفى بأن أقرر أنه عندما بدأ الاسلام يطبع إندونيسيا بطابعه ، وعند ما أصبح من الممكن أن نعد إندونيسيا دولة اسلامية سارع الاستعمار المسيحى الغربى فامتد لها ، وكان ذلك فى أخريات القرن السادس عشر ، ومطلع القرن السابع عشر .

وكانت هناك منافسة بين هولندا وبريطانيا على احتلال هذه البقاع التى تشمل جزر اندونيسيا وتشمل كذلك شبه جزيرة الملايو التى لا تختلف عن اندونيسيا فى طبيعتها ولا فى ظروف انتشار الاسلام بها ، ولكن الخلاف بين هولندا وبريطانيا حُسمَ على النحو الذى حُسمَ به الخلاف بين بريطانيا وفرنسا فيما يتعلق بالتنافس فى السيطرة على دول الشرق الأوسط ، وفى سنة ١٨١٦ اتفقت الحكومتان على حسم النزاع بينهما بتحديد الاختصاص وتوزيع مناطق النفوذ ، فأخذت بريطانيا شبه جزيرة الملايو ، وأخذت هولندا الجزر الإندونيسية ، وكان ذلك غنما للدولتين ، فإن هولندا سعدت بتفردا بحكم هذه الجزر الغنية كما سعدت انجلترا بتفردا بحكم شبه جزيرة الملايو حيث أتاح لها ذلك أن تسيطر على مضيق « ملقا » مفتاح الشرق الأقصى .

واستمر بعد ذلك تعاون الدول المسيحية ضد اندونيسيا ، فكلما قامت فيها حركة استقلالية تجمعت قوى الدول الأوروبية وبخاصة انجلترا وفرنسا لإخمادها ، ومن أهم حركات التحرير التى اشتعلت فى اندونيسيا حركة التى هبت سنة ١٩٢٦ يؤيدها إضراب واسع واضطرابات شديدة زلزلت أقدام المستعمر ، ولكن النجدة سرعان ما جاءت من انجلترا وفرنسا فأحبطت محاولة المواطنين لنيل حريتهم .

وفي الحرب العالمية الثانية زحفت اليابان على إندونيسيا ففترت من وجهها القوات الهولندية ، وبخاصة أن دول أوربا كانت مشغولة في صراعها مع ألمانيا فلم تستطع أن تقدم لهولندا أى عون ، وبالتالي لم تستطع هولندا أن تقف وحدها .

وهزمت اليابان واستسلمت ، ولكن الدول المسيحية فرضت عليها ألا تسلم إندونيسيا للوطنيين ، ولم ينتظر الوطنيون أن تسلمهم اليابانيون بلادهم ، بل عمدوا إلى أن يأخذوها بجهادهم ودمائهم ، وأعلن زعيم إندونيسيا « سوكارنو » و « حتى » استقلال بلادهم في ١٧ أغسطس سنة ١٩٤٥ ، وهنا نترك الكلمة للأستاذ المؤرخ محمد حبيب أحمد الذى يقول : ولكن دولة الاستعمار الأولى في العالم — زهى بريطانيا — لم تقبل الأمر الواقع ، ونصبت نفسها ، وجندت جهودها للوقوف في وجه الحركة الاستقلالية في البلاد . . . وفي ٢٦ سبتمبر تحركت قطع من الأسطول البريطاني من سنغافورة وقصدت إندونيسيا بحجة تجريد اليابانيين من السلاح ، ولكن سرعان ما ظهر الغرض الحقيقي من الحملة وهو تمكين القوات الهولندية من دخول البلاد ، ولما هاج الإندونيسيون لذلك هددت بريطانيا بضرب مدينة سورابايا ثانية المدن الإندونيسية بقنابل الأسطول إذا لم يسلم الإندونيسيون أسلحتهم ويتركوا للهولنديين حرية النزول ، ولما لم يقبل الوطنيون الإنذار تحولت سورابايا إلى جحيم ملتهب (١) .

وكتب للوطنيين النصر بعد صراع مرير وفيض من الدماء ، أسهت فيه جزيرة كليمنتان وحدها بأربعين ألف قتيل في مجزاة واحدة من المجازر التي قام بها المستعمرون سنة ١٩٤٨ ، ولكن هذه الآلاف ماتت لتحيي الملايين ، إذ أدركت الدول الأوربية ألا مناص لها من الاستسلام أمام بسالة الشعب الإندونيسى ، وتأييد الدول الإسلامية وشعوبها ، غير أن الدول المسيحية حين خضعت وسلمت الدار لأصحابها ، عمدت إلى

(١) نهضة الشعوب العربية ص ٤١٩ — ٤٢١ .

مفتاح فأبقتة في يدها ، أو قل عمدت إلى زاوية من البيت واستقرت فيها
ألمة أملا فرجو أن يتلاشى ، وتلك الزاوية هي إيرين الغربية التي لا تزال
في يد هولندا ، وشمال كليمنتان وتحتله بريطانيا (١) .

وقد قامت بريطانيا بنفس هذا التصرف في الملايو ، فعندما اضطرت
إلى منحها الاستقلال اقتطعت ميناء سنغافورة ، وأبقت لنفسها السيطرة
عليه ، وقد انضمت سنغافورة بعد ذلك إلى اتحاد (ماليزيا) ثم استقلت
عنه (١٩٦٦) وكونت جمهورية سنغافورة .

أما سيرة هولندا في سياسة إندونيسيا فيلخصها الأستاذ حبيب بقوله :

ولجأت هولندا في سياسة إندونيسيا إلى الضغط والإرهاب والكتب
واتخذت من التعليم ، وفي ركابه التبشير ، وسيلة لمفتنة البلاد ، وظلت أن
الأمر قد يستتب لها بتخريج جيل أو أجيال من الشباب المفتون عن دينه ،
المبعد عن فهم قوميته ، ولكن حساب الاستعمار قد أخطأ (٢) .

فارس وأفغانستان بين روسيا وبريطانيا :

هناك ظروف متشابهة أحاطت بكل من فارس وأفغانستان ، وجعلت
الحديث عنهما يمكن أن يجري تحت عنوان واحد ، وقد نشأت هذه
الظروف المتشابهة بسبب موقع البلدين ، فأيران تتصل من ناحية الشمال
بروسيا وتتصل من ناحية الشرق بالهند (الباكستان الغربية الآن) وكانت
بريطانيا إلى عهد قريب تحتل الهند ، فكانت روسيا تخشى أن يمتد سلطان
بريطانيا من الهند إلى إيران ، فتتف بريطانيا وجها لوجه أمام روسيا
تهدد مصالحها وحدودها ، ومن جهة أخرى كانت بريطانيا تخشى أن يمتد

(١) انتهت مشكلة إيران الغربية وتسلمتها إندونيسيا في أبريل سنة
١٩٦٢ ، وتحرر شمال كليمنتان من النفوذ البريطاني ، واندمج في اتحاد الملايو
الكبير (ماليزيا) ثم تحرر الجزء الذي بقي مع بريطانيا ، وأعلن استقلاله في
الثمانينات باسم « دولة بروناي » .
(٢) هذه الشعوب الإسلامية ص ٤١٤ .

الخطر روسى عبر إيران إلى الهند ، تلك التى كانت ألمع درة فى التاج البريطانى .

وقبل أن تزول هذه الدرة من التاج البريطانى ، ومُجِدَّ فى يد أن نفسها مطمع انجليزى جعل حرص بريطانيا عليها مستمرا على الرغم من استقلال الهند ، وذلك المطمع هو حقول البترول التى تديرها الشركات الانجليزية .

ولأفغانستان موقع مماثل إن لم يكن أشد قسوة ، وذلك لطول الحدود الشمالية بين أفغانستان وروسيا وطول الحدود الشرقية بينها وبين الهند . ولعل فزع بريطانيا من أفغانستان كان أشد من فزعها من إيران ، ذلك لأن هناك بعض القبائل الاسلامية تسكن فى الشمال الغربى من الهند ، وتربطها بالأفغان روابط قوية ، وكانت انجلترا تخشى أن تتحالف هذه العناصر الاسلامية على غزو الهند ، وبخاصة أن لأفغانستان سابقة فى السيطرة على الهند أيام السلطان محمود الغزنوى .

هل كان خيرا أو شرا أن وقعت فارس وأفغانستان بين روسيا وبريطانيا ؟

الاجابة حاسمة فتوقع دولة صغيرة مسلمة بين دولتين كبيرتين مسيحييتين (روسيا القيصرية وبريطانيا) وكل منهما عكوسة للدول الاسلامية وشديدة العزيم على مصالحها الخاصة ، كل هذا يبين لنا عدم الاستقرار وروح الفزع والخوف التى سيطرت على الدولتين الإسلاميتين ، ولم تقف المسألة عند روح الفزع ، بل تعدتها فى ظروف كثيرة إلى استباكات حربية واقتحام حدود الدولتين الإسلاميتين مما يبين أن وقوع هاتين الدولتين بين عدوتين قويتين كان الى جانب الشر أقرب ، على أن روسيا وبريطانيا كانتا أحيانا تجدان حلا يرضى الروح الاستعمارية فيهما ويحول فى الوقت نفسه دون حدة العداء بينهما ، فهما تارة تقتسمان النفوذ فى

ايران على النحو الذى سقناه عند الحديث عن الشرق الأوسط وعن
إندونيسيا والملايو ، وتارة تقتسمان رقعة إيران •

ومن اقتسام النفوذ تلك المعاهدة السرية التى أبرمت سنة ١٩٠٧ بين
روسيا وبريطانيا ، وفيها وافقت الدولتان على أن يكون النفوذ فى شمالى
إيران للروس وفى الجنوب لبريطانيا ، ومن صور الاحتلال ما حدث فى
الحربين العالميتين الأولى والثانية من نزوات القوات البريطانية فى جنوب
إيران والروسية فى شمالها ، وهذا يؤكد المتاعب التى عانتها كل من
الدولتين الاسلاميتين وبخاصة ايران بسبب موقعهما الجغرافى •

اللا دينية الروسية وأثرها :

وقد اتجه الاتحاد السوفيتى الى اللادينية منذ سنة ١٩١٧ ولكن
ذلك لم يخفف صراع هذه البلاد للإسلام ، بل ربما ضاعفه ، لأن الإسلام
هو القوة الوحيدة التى تهز أركان اللادينية •

ومع اللادينية اقتحم الاتحاد السوفيتى بلادا غالية على المسلمين
جميعا هى « أفغانستان » فى ديسمبر سنة ١٩٧٩ ، وكان الاتحاد السوفيتى
قد أقام بأفغانستان حكومات موالية له ، أراق بواسطتها دماء الآلاف من
المسلمين الأبرياء ، ولم يقنع الاتحاد السوفيتى بالحكومات الموالية له ، بل
اقتحم البلاد وسيطر عليها فأتار ثائرة المسلمين فى كل مكان ، وقامت حركات
مقاومة نرجو لها كل توفيق ، وقد شرحنا ذلك بإفاضة فى الجزء الثامن من
موسوعة التاريخ الإسلامى •

الصهيونية (إسرائيل)

وأقصى الطعنات التي قلم بها الغرب المسيحي ضد المسلمين هو زرع إسرائيل في قلب العالم العربي والإسلامي فقد عاش الغرب مَدَدًا طويلة أو قصيرة محتلا لبعض المناطق بالشرق ، ولم يكن الشرق مكانا هادئا للغرب ، فلم يجد الأوروبيون راحة في المناطق الإسلامية على الإطلاق ، ومن أجل هذا ، وبسبب المقاومة المستمرة ، وبسبب الضغط العالمي كان الغرب يطمح دائما أنه سيجلو عن البلاد ، جلا فعلا بعد الحرب العالمية الثانية ، أي بعد أن ظهر في أفق السياسة العالمية الدولتان العظيمتان : الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ، فما كان لآنجلترا وفرنسا وهولندا والبرتغال أن تستمر العالم أمام هذين العملاقين ، فالخائب لا تفرح في الغاية اذا وجدت الآساد .

ولا كان الغرب يوقن أن يوم جلالة سيحيء ، فقد فكر في بديل للاستعمار ، رأى أن يكون البديل مقيما بالمنطقة إقامة دائمة ، واهتدى تفكير الغرب إلى خلق إسرائيل بهذه المنطقة متفخفا من أكاذيب التاريخ وسهولة لتفكيره (١) .

وقد كانت الخلافات حادة ولا تزال كذلك بين الشرق ممثلا في الاتحاد السوفيتي وأوروبا الشرقية ، وبين الغرب ممثلا في الولايات المتحدة وأوروبا الغربية ، وترداد الخلافات أحيانا حتى تهدد السلام العالمي .

ولكن هناك نقطة التقى فيها الشرق والغرب وتعاوننا أعمق التعاون ليكيدا للإسلام والمسلمين ، تلك هي زرع إسرائيل في منطقة الشرق الأوسط ، وانتشار مكان عظيم لهما كترتبط حدودهما مع مصر وسوريا ولبنان والمملكة الأردنية الهاشمية والمملكة العربية السعودية ، واهتمام

(١) انظر تفاصيل ذلك في كتاب اليهودية للؤلؤة دس ١١٠ وما بعدها من الطبعة السادسة .

الشرق والغرب بسلامة اسرائيل يبلغ أقصى المدى ، وتتجه الولايات المتحدة في ذلك الى درجة المبالغة ، كأن العالم كله في كفة واسرائيل وحدها في كفة ، ورجحان كفة اسرائيل في الاقتصاد والمعدات الحربية والتعاون الثقافي والعسكري يعد سياسة عامة للولايات المتحدة حتى اذا كان ذلك سيعود بالضرر على مصالح الولايات المتحدة نفسها •

وقد كان من الممكن اختيار مكان آخر لليهود ليعيشوا فيه ويحكموه ، ويكون ذلك مثلاً في أستراليا أو نيوزيلاندا أو بعض مناطق افريقية ، ولا شك أن ذلك كان مصلحة اليهود كالدول التي تعيش الآن بهذه المناطق بعيداً عن الصراع والحرب ، ولكن الغرب لم يكن يربى مصالح اليهود إنما كان يهجمه ضرب الشرق الاسلامى بوضع هذا البلاء في قلبه ، واعتقادي أن ذلك نكاية بالمسلمين واليهود جميعاً •

ومن الواضح أن اسرائيل تلعب دورها في خدمة الغرب بكل إخلاص فهي مصدر قلق وارهاق للمال والشعور والانسان ، وبسببها تتجه الجهود في المنطقة للاستعدادات الحربية ربما أكثر من الاتجاه لترقية الانسان ولكن الحق أن اليهود أيضاً ضحية وأن لم يدركوا الآن هذه الحقيقة ، ولا شك أن اسرائيل ليست أقوى من الصليبيين ، وسيجيء يوم تختفى فيه اسرائيل من هذه المنطقة كما اختفت امارات الصليبيين •



وهكذا كانت الشعوب الاسلامية جميعاً ، ولا يزال بعضها حتى الآن هدفا لهجمات قاسية من أوروبا المسيحية ، هجمات بربرية كانت ترمى الى التشفى والتكيل والتدمير ، هجمات أسرفت في إسالة الدم ، ونهش اللحم وتهشيم العظام •

ثالثاً : عوامل ينسبها بعض الناس للدين

والدين منها براء

نسبت بعض عوامل التخلف للدين والدين منها براء ، ان صلتها بالدين ترجع الى ارتباطها بالمسلمين أو بمن يعدون أنفسهم أو يعدهم بعض الناس أنهم رجال الدين ، وليس هؤلاء صورة سليمة للإسلام الدنيء .

إن الإسلام اشتراكاً بين البشرية ، ومطلع خسر الجنس البشرى ، دين يدعو لمعتقيه بين الدنيا والآخرة ، ولا يمكن لدين كهذا إلا أن يكون عاملاً قوياً من عوامل التطور والرقى ، وقد كان الإسلام كذلك في العهود الإسلامية الزاهرة ، كان غذاءً روحيًا ، وكان دائماً قوياً للعمل والانتاج ، وفي ظله قامت دولة إسلامية فسيحة كانت بها من مقومات المدنية ما لم تعرفه دويل من قبل .

كيف إذن نسب لهذا الدين أن يكون عاملاً من عوامل الضعف الذى أصاب العالم الإسلامى ؟

نعم تخلف بعض الذين ينتسبون اليه ، وفي عصور الظلام كثر عددهم ، فأخطأ كثير من الناس وظنوا أن التخلف مصدره الدين نفسه ، وكان هذا الظن انحرافاً ظالماً وبُعْداً نائياً عن الحقيقة ، وهذا يقودنا ان نورد بعض نماذج من الاختلاف بين الدين ومن يدعون أنهم أتباعه .

بين الشورى والديكتاتورية :

ذكرنا من قبل أن الإسلام قدم الشورى منحة للمجتمع البشرى ، ولم يكن للبشرية عهد بالشورى من قبل ، وانطلقت الشورى لتكون أسلوب حياة عند دول مختلفة اقتبستها من الإسلام ، وبينما كان الناس يقتبسوا الشورى من الفكر الإسلامى ويمتسكون بها كان العالم الإسلامى يتخلى

عنها ، وظهر في العالم الاسلامي رؤساء وقادة يدينون بالديكتاتورية العنيفة التي تقتل المواهب والآمال ، وعندما غمر هذا النوع من السياسة أكثر دول العالم الاسلامي ظن الناس أن الاسلام هو مصدر هذا الاتجاه ، والاسلام برىء من الديكتاتورية والاستبداد .

العدالة الاجتماعية والفروق الاقتصادية الجادة :

وضع الاسلام نظاما اقتصاديا رائعا واجه به المشكلة الاقتصادية وقد أوجزناه من قبل (١) وهو يحمي ثراء الغنى ويحدد مصادره ، ويمنع حرمان الفقراء ، وتلك مواجهة عظيمة لهذه المشكلة التي حيرت الناس عبر القرون ، ولكن سرعان ما تخلى المسلمون عن هذا الاتجاه ، فحصل الكثيرون على المال من طرق مشبوهة أو محرمة ، وعانى الفقراء الجوع والحاجة ، ومرة أخرى ظن بعض الناس أن هذه الحالة ناشئة عن الاسلام ، وهي في الحق ناشئة عن اهمال تعاليم الاسلام .

رسول زاهد ورؤساء جشعون :

وكان الرسول عليه السلام مثالا في الزهد واحتقار الدنيا ، وهذا جذب له الناس لتأكدتهم أنه لا يعمل لنفسه ، وقد وصل زهده الى غاية بعيدة تقررهما زوجته السيدة عائشة عندما تقول : « إن الرسول لم يشبع قط ، وكان طعامنا التمر والماء ، وتمر الشهور أحيانا ولا نوقد ببيت الرسول نار لطهو الطعام » وكان زهده في المسكن كزهده في الطعام ، وعندما مات لم يترك عقارا ولا ثراء .

اين هذا مما فعله كثير من الرؤساء المسلمين على مر التاريخ ؟ أن أكثرهم اتجه للمال بِنَهَمٍ شديد ، وكثيرون منهم دخلوا الحكم وهم فقراء ، ولم تَمْضِ الا سنوات قلائل حتى تكدست الثروات في أيديهم .

(١) انظر تفصيلا عنه في كتاب « الاقتصاد في الفكر الاسلامي »

التطور والجهود :

روى سلمة بن الأكوع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في عام من الأعوام عن الأضحية : من ضحكى منكم فلا يصبرن بعد ثالثاً ، في بيته من الأضحية شيء . قال سلمة : فاكلنا وثمة دقنا حتى ننفذ أمر النبي .

فلما كان العام الثاني سألنا الرسول : أنفعل بالأضاحي كما فعلنا في العام الماضي فأجاب : لا ، كلوا وتصدقوا وادخروا ، فإن العام الفائت كان بالناس جهد فأردت أن تعينوا على الجهد .

ذلك تطور محمود واستجابة لحاجات العصر وظروف الناس ، وقد سار الخلفاء الراشدون والسلف الصالح على هذا النهج .

وجاء عصر توقف أكثر العلماء عن التفكير في مصالح الناس ، لا عن عجز فقط ولكن عن ملق أحياناً ليتظاهروا بالورع ، أو عن محاولة لنيل وظيفة أو مركز يخشى ألا يتحقق إن ببعد ويجهد ، ومن أمثلة ما جدد في العصر الحديث عن معاملات البنوك والإيداع بها وما يسمى شهادات الاستثمار ، فقد توقف أكثر العلماء عن التفكير ، واستسهلوا المقول بأنها ربا محرمة ، مع أن مجموعة من علماء المسلمين قالوا بحلها .

للاجتهاد حرمة :

في الحديث الشريف : إذا اجتهد القاضي وأصاب فله أجران وإن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد . وعلى هذا فالاجتهاد على أسس سليمة يضمن دائماً الثواب من الله كفاء جهده ومحاولته للوصول الى الحقيقة .

ويذكر التاريخ مثلاً ذكرناه من قبل هو أن رجلاً جاء يشكو إلى عمر من أمر خلال خلافة عمر ، فأحالاه عمر إلى علي بن أبي طالب ، وقضى على في المسألة برأيه إذ لم يكن هناك نص من قرآن أو حديث يعتمد عليه ، وبعد

فترة التقى الرجل بعمر ، فسأله عمر : بماذا قضى على ؟ فأجابه الرجل ، فقال عمر : لو كنت أنا الذى قضيت ، لقضيت بكذا •

وكان رأى عمر فى صالح الرجل ، فصاح الرجل به : وما يمنعك والأمر لك ؟ فقال عمر : وكيف أعرف أن رأى أفضل من رأى على ، لو كنت أردك الى كتاب الله أو سنة رسوله لفعلت ، ولكنى أردك للرأى والرأى مشترك •

ولم يغير عمر من الحكم الذى قضى به على وقد ذكرنا هذه القصة من قبل •

وفى ضوء هذا ومجذبت المذاهب الفقهية لاختلاف الاجتهاد ، ولكن فى العصور المتأخرة كان كل شخص تقريبا يرى أن رأيه هو الصواب وما سواه خطأ ، وربما هاجم سواه كأنما كان العلم عنده وحده •

وسنعطى مزيدا من التفصيل لما أوجزناه آنفا فى الدراسات التالية :

الاسلام دين كل زمان ومكان :

من القواعد المقررة أن الاسلام دين كل زمان ومكان ، ولكن من القواعد المقررة عقلا أن الاسلام لا يمكن أن يكون كذلك الا اذا تطور وعالج مشكلات الناس لتتناسب حياتهم فى كل زمان ومكان فى حدود تعاليمه التى رسمها القرآن الكريم ، وفى حدود الإطار الذى يصور خلق المسلم ومبادئ الاسلام ، وليس هذا الاطار مجهولا ولا هذه الحدود مبهمه ، وقد بينها العلماء بيانا شافيا كافيا ، انها التوحيد المطلق وحسن الخلق ، والاستجابة لنصوص الشرع وللعقل السليم ، ثم تحقيق مصالح العباد •

والدين الاسلامى يحترم العقل ويدعو للانتفاع به وقد صور القرآن الكريم ذلك أجمل تصوير ، قال تعالى :

— أفلا يعقلون (١) •

— كذلك فصل الآيات لقوم يعقلون (٢) •

— إن في ذلك آيات لقوم يعقلون (٣) •

— إن في ذلك آيات لقوم يتفكرون (٤) •

— لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل (٥) •

والدين الاسلامي دين الدنيا والآخرة كما سبق القول ، إنه رسالة روحانية ، ورسالة مدنية دنيوية ، شمل الحديث عن الإله ، والجنة والنار ، والبعث والصراف والميزان • كما شمل البيوع والإجازة والرهن والزواج والطلاق والميراث وغيرها ، فإذا ضعف العقل عن إدراك بعض النسميات لقصور فيه ، أو لبعد هذه الأشياء عن دائرته ، فإنه لن يضعف عن إدراك حاجاته الحيوية الدنيوية ، ومعرفة ما ينفع منها وما يضر •

ومن المقرر أن حاجات الناس تختلف باختلاف ظروف الزمان والمكان فوجب أن تتلون المعاملات والنظم لتناسب هذه الظروف المختلفة ، فإن لم تتناسب النظم مع حاجات الناس هجرها الناس وهرعوا إلى سواها • وقد سأل أبو حيان التريحيدي مسكويه قائلا : هل الأحكام الشرعية متفقة مع مصالح العباد لا تخرج عنها ؟ فأجاب مسكويه : « نعم وبخاصة في المعاملات ، فإذا تبين أن نوعا من المعاملات لا يحقق مصلحة العباد في وقت من الأوقات أجاز الاجتهاد تغيير الحكم » ومصالح العباد كلمة تشمل المحافظة على النفس والدين والمال كما نص على ذلك الشاطبي

(١) سورة يس الآية ٦٨ •

(٢) سورة الروم الآية ٢٨ •

(٣) سورة النحل الآية ١٢ ، ١٠ •

(٤) سورة الرعد الآية الثالثة •

(٥) سورة الاعراف الآية ١٢٩ •

في الموافقات ، وهذا واضح كل الوضوح في المعاملات المدنية ، أما في العبادات فوجب أن نفعل ما أمر الله به إذا لم نفهم عقله • أما إذا نص على الطاعة فيها فإن الحكم يدور معها وجوداً وعدمها (١) :

ذلك هو الإطار الذي رسمه الإسلام لتعاليمه ومبادئه انه — مرة أخرى — التوحيد المطلق ، وحسن الخلق ، والاستجابة لنصوص الشرع والعقل السليم ، ثم تحقيق مصالح العباد •

وسنورد فيما بعد عرضاً تاريخياً نبين فيه كيف استجاب الإسلام لمطالب الناس ، حتى قفل العلماء على أنفسهم وعلى الناس الباب الذي فتحه لهم الإسلام ليحصلوا خلاله على البسطة وحل المشكلات • ولكن هنا أحب أن أبدي رأياً لي يتعلق بالعقل والنقل قبل أن نستمر في حديثنا عن استجابة الإسلام لحاجات الناس •

اختلاف العقل والنقل :

سألني بعض علماء إندونيسيا المحافظين مرة سؤالاً هاماً ، قال : ماذا ار اختلاف العقل والنقل ؟ فأيهما نتبع ، وبعد برهة وجيزة أجبت : أى عقل وأى نقل يا سيدى ؟ وخضت في شرح هذا الجواب فوضحت تفاوت العقول ، هناك عقول قاصرة وعقول موهوبة ، وما لا يفهمه هذا العقل كثيراً ما يفهمه عقل آخر ، ثم هناك أشياء لا تعتبر مخالفة للعقل . إنما وراء حدود العقل الإنساني ، فيبدو للناس أنها تخالف العقل ولكنها في الحقيقة لا تخالفه وإنما تفوق حدوده ، أرأيت لو حاولنا أن نشرح لطفك جهاز المذياع الذى يعيش معه في البيت ويأمن به ، لا شك أن الطفل لن يستطيع فهم الشرح ، لا لأن عمل المذياع بعيد عن العقل بل لأن أسرارهم أعماق من أن يصل لها عقل صغير • ويحصل مثل ذلك مع عقل الرجل العاقل بالتسمية الى شيء معقد ، فيه كثير أو قليل من الغموض كالطائرة

(١) انظر يوم الاسلام للاستاذ احمد امين ص ٢٠٥ - ٢٠٦ •

والرأدار ، بك حصل مثل هذا الى موسى عليه السلام عند ما خفيت عنه أسباب الأعمال التي قام بها الخضر ، إذ كان الخضر قد منحه الله علما ورشدا لم يمنعهما موسى ، قال تعالى « فوجدنا عبدا من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا وعلفناه من لدنا علما » قال له موسى : هل أتيتك على أن تعلمني مما علمت رشيدا ؟ قال : إنك لن تستطيع معي صبرا ، وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا ؟ قال ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا ، قال : فان اتبعنتي فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا ، فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها ، قال : أخرقتها لتغرق أهلها ؟ لقد جئت شيئا إمرا . قال : ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا . قال : لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا . فانطلقا ، حتى إذا لقيا غلاما فقتله ، قال : أقتلت نفسا زكية بغير نفس ؟ لقد جئت شيئا نكرا ، قال : ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا . قال : إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني ، قد بلغت من لدني عذرا . فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها ، فأبوا أن يضيّفوهما ، فوجدنا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه . قال : لو شئت لا اتخذت عليه أجرا . قال : هذا فراق بيني وبينك ، سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا ، أما السفينة (١) .

فموسى عليه السلام يتكلم بعقله العادي ، والخضر انكشفت عن عقله محجب لم تنكشف عن موسى ، وهو يتصرف في مجال « هذا الضوء الذي تغطي الجودود المادية » .

ونحن في حياتنا الخاصة تحدث لنا أشياء لا ندرك كثيرها وربما نسخط عليها ، ثم بعد فترة طويلة أو قصيرة ندرك أنها كانت الخير لنا كلّ الخير .

وتوضع قضية بطروفها أمام قاض فيحكم فيها بحكم ، وترفع

نفس القضية بنفس الظروف الى قاض آخر يتبع نفس القوانين فيحكم فيها
بحكم مخالف •

هذه جوانب من قصور العقول أو من اختلاف العقول فيما يحيط
بنا من أحداث ، فاذا ذهبنا نستوحى هدى العقل وإرشاده في أمور
أعمق ، في وجود الله مثلا ، وفي الحكمة في بعض الابداعات وصورها ،
وجدنا العقول أكثر اختلافا وأشد تباينا ، فهناك عقول اتجه تفكيرها
اتجاها ماديا واستطاعت أن تحقق في هذا الاتجاه تقدمها كبيرا ، ولكنها
تخلت في جانب التفكير الروحي ، إذ أن الناحية الروحية عندها ذبلت
أو هُنت ، وفي أوروبا رأينا نماذج من هؤلاء في دور بالآلاف أو الملايين ،
طغت عليهم المادة ، فاذا سألتهم عن الله سجدوا وإذا دعوتهم الى الله
والى المثل العليا التي شرعها كالعبداء مع العصور والصدى والمساواة
اختلاف العنصر واللون لم تنل منهم إلا السخرية والاستهزاء •

وهناك صنف آخر من العقول قَوِي الجانب المادى في تفكيره ،
ولكن ظلت به بقيّة من الجانب الروحي • وهذه البقية الروحية مغلوبة
على أمرها إلا إذا كثرت العوامل التي تسبب رجائها وتفوقها ،
ولعل من هؤلاء أبا سفيان بن حرب بن أمية ، فقد روى أنه جىء به الى
الرسول وجيش المسلمين الزاحف من المدينة يدق أبواب مكة فقال له
الرسول : ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟

فقال أبو سفيان : بأبى أنت وأمى ! ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ،
والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أعنى عنى شيئا (١) ••

وهكذا عبد أبو سفيان الأصنام ، وحرمها ، وحارب من
أجلها ، ولكنها لم تحم نفسها ، وانتهز الله من ذلك ، وانهزمت آلهة
قريش ، فأنكر أبو سفيان من هذا العرض أن ليس مع الله إله آخر •

وهناك صنف ثالث من العقول تغلب الجانب الروحي فيها على الجانب المادى ، وأصحاب هذه العقول يفيضون صفاء ونقاء ، يتحدث الواحد منهم عن الله كأنه يراه ، ويقول لك بقوة وإصرار : اعتقد فى الله أو أجده ، أو أبحت عن براهين تدلك عليه أو تنكره ، أما أنا طاعت فى حاجة الى براهين ، إنى أخافه كأنى أراه ، وإنى أؤمن به . لا بالأوراشة ولا بدليل منطقي كالذى كان بقوله العربى : البصرة تدل على البصرة . أما أن تدرك معنى ما على الذى التقدير لا ، إنى أؤمن بالله ، أرى وأسمع وأحس ، ومع ذلك فإن الجانب المادى فى الإنسان لا يمكنه أن يتغلب أحياناً على القوة الروحية فيها ، فيجبر أصحابها على إدراك أسرار بعض المشكلات الروحية .

وربما كان من ذلك الصنف الذى لى ، عاشقته وخالطته ، نفسه فيها صفاء ، وقلبه مملوء بالخير ، يخاف الله كأنه يراه ، ويناجيه مناجاة المؤمن عميق الإيمان ولا يفتأ يذكره فى السراء والضراء ، يؤدى عمله على خير وجه ، ولا يعرف المال الحرام طريقه إليه ، يحب الناس ولا يننى عن مساعدتهم ، وماله ملك لمن احتاجه لا فرق بين عدو وصديق ، ندرك نحن مجموعة رفاهه أنه يجد لذة فى عمل الخير ومساعدة المحتاجين ، يقسم صادقاً — فيما اعتقد — أنه لا يكره أحداً ولا أياً من الذين يكرهونه ، ثم هو مثقف واسع الثقافة ، ذكى مرهف الذكاء ، يلمس أصدقائه فيه قوة الجانب الروحي فى صلته بالله وصلاته بالناس .

تلك جوانب مشرقة من جوانب ذلك الصديق ، ولكن تلك جانب آخر . هو — فى اعتقادى — قائم ، أنه يريد أن يستعمل عقله فى كل شئ : ويريد مثلاً أن يفهم كل شئ فيما يتعلق بالعبادات ، وقد سبق أن قلنا إن الرأى فى العبادات أن نعملها كما أمرنا بها ما خفيت علينا، علها .

حل رمضان وصام أناس وأفطر آخرون ، وكان صديقى من المفطرين .

سألته : كيف جاز لك أن تفطر ولك هذا الإيمان العميق بالله
بوقرآنه ورسوله ؟

أجاب : لأنني لا أفهم ضرورة الصوم •

قلت : هل تريدني أن أعلمك الرياضة الروحية ، وترجيح النفس في
صراعها مع الجسم ، والإخاء الإنساني وغير ذلك من فوائد الصوم
وأنت به عليم ؟

قال : فكرت في هذا كله ، وفي أكثر منه ، ولكني لم أقتنع بهـ هذه
الأسباب ، إن كان الصوم شرع ليعلمني الإسلام أن أجوع الفقير ، فأنا
مستعد أن أعطى الفقير كل مالي ، وإن تأنى للرياضة الروحية ومناجاة
النفس في صراعها مع الجسم فأعتقد أن عندي من ذلك حظا لا بأس به •

قلت : الدين دين الناس جميعا ، فعلى فرض أنك تخلقت مكل ما
يدعو له الصوم ، فاني أذكرك بأن التشريع الإسلامي جاء للمسلمين
جميعا وأنت واحد من المسلمين ، بل نلعلك من خيارهم فليجرب عليك ما
يجري عليهم ، إذ لا يمكن أن يكون هناك تشريع لكل فرد على حدة •
أتريد أن يفنى من الصوم من اجتمعت له أهداف الصوم ؟ ويعفى من
الصلاة من اجتمعت له أهداف الصلاة ؟ لا يا صديقي هناك الجانب العام
في التكليف ، وهو خلق وحدة بين المسلمين ، فتصومهم معا وصلاتهم
معا ••• لها منزى سام ، وليس ذلك ولا سواه بخاف عليك : ثم إنك
يا صديقي تريد أن تستعمل عقلك في كل شيء إلا يمكنك أن يكون للصوم
سر يصعب على عقلك الوصول إليه •••• ؟

فأجاب : أنت تسرف أكثر من سؤالك خضوعي لله وإجلالي له وخوفي
منه ، ولكني لا أستطيع أن أصوم ثلاثين يوما متتاليا فيها ما أنتبه ،
وتمنع من نفسي ، أصعب إلى اضطراب دون أن أذوم بسببها معقولا ولا
لذلك ••• إن الله به أن يظهر علي ، وكأنما هذا الذي أفطر آية

عدم تقدير ، فثار وأقسم أنه لو آمن واعتقد أن هذه رغبة الله ولا محيص
عنها لكان مستعدا أن يصوم العام كله .

قلت : دَعْنَا من هذا الحديث فليس مثلك ديننا وعقلا من يحتاج الى
مرشد ومعلم * ودارت الأيام واستقر صديقي على فطره ، ولكنه —
والحق يقال — كان مهذبا في فطره ، لا يجاهر به ولا يعرفه عنه إلا عدد
محدود جدا من الإهل والأصدقاء ، وطالما بقي اليوم كله لا يأكل لأنه
يدعى الصيام ، وإذا أكل أكل في خلوة ، بل أكثر من ذلك كان له أصدقاء
مفطرون وكانوا يأكلون أمامه وهو لتظاهره بالصوم لا يشاركهم الطعام .
أشهد أنه كان مهذبا في طاعته وعصيانه إذا جاز لنا أن نصف العاصي
بالخلق المهذب .

ومر عام وعام وصديقي في هذا الموضوع ضال لا يجد الهداية ،
ثم بدأت العقدة تتحل * هبت على صديقي عواصف وأعاصير ، وتراخمت
عليه أحداث جسام ، وخطوب شتى ، والأحداث والخطوب تضعف المقاومة
وترقق النفس ، وتهذب الوجدان ، كيف السبيل الى النجاة ؟ لا سبيل
إلا عون الله ، وبدأ هلال رمضان وصديقي غارق في آلامه ، مثقل بالأشجان
والمصائب ، أراد أن يتجه الى الله يدعوه أن يكشف عنه الضر ، فخرج
أن يتجه الى الله مفطرا والناس صائمون ، وصام صديقي أول يوم من
رمضان ونظر الله يستلهم عونه فأمدّه الله بالعون ، ونجى زورقه من غرق
أوشك أن يكون محققا ، واستمر صديقي في الصوم ، بل في صوم الأطهار
الورعين .

قلت لصديقي : أتحب أن ينتفع الناس بتجربتك .

قال بقوة وإيمان : نعم ، يجب أن ينتفعوا بها .

قلت : ولماذا لم تنتفع أنت بتجارب الآخرين ؟ وهل يطول العمر
لإجراء تجارب للصوم عدة سنين ، وعدة سنين أخرى للصلاة وهكذا ؟

وطوبينا هذا الموضوع بعد أن آمن صديقي بأن العقل مهما
كانت حدته وذكاءه فهو يجهل كنه كثير من الأشياء •

ويقول الأستاذ محمد أسد المستشرق الذي أسلم : إننا اليوم
لا نحتاج الى فيلسوف مثل « كُنْت » ليبرهن لنا على أن الفهم الإنساني
محدود تماما بما ينطوي عليه من وجوه الإمكان ، إن عقلنا لا يستطيع •
بما رمَّك في طبيعته • أن يحيط بفكرة الكلية ، إننا نستطيع أن نفهم
من كل شيء تفاصيله فقط • إننا لا ندري ما اللانهاية ، ولا ما الأزل ،
حتى إننا لا نعلم ما الحياة (١) •

ذلك هو العقل ، في مدى إشعاعاته وفي محيط تفكيره ، فما هو

النقل ؟

المعروف أن القرآن الكريم هو المصدر الأول للتشريع الإسلامي ،
وهو الذي حرسه الله وحفظه ، ولكن المعروف أيضا كما أوضحنا فيما
سبق أن القرآن في الغالب يدل على الأحكام التشريعية الفقهية بشكل
كلى لا جزئي ، فالقرآن يأمر بالصلاة بالآية الكريمة : « وأقيموا
الصلاة » (٢) • دون أن يبين كمها أو كيفها ، فوضح الرسول ذلك ،
غير أن الزمّ لم يفسر إلا ما دعت له الحاجة ، وترك ما لم تدع
الحاجة الى تفسيره ليفسره العلماء في الصور والبلدان المختلفة عند ما
توجد الحاجة الى تفسيره ، كما سبق القول ثم إن دلالة النصوص القرآنية
على الأحكام ليست قطعية دائما فبعض النصوص دلالتها ظنية لاحتمال
النص القرآني أكثر من تفسير واحد كقوله تعالى : « حرمت عليكم
الميتة » (٣)

(١) الاسلام على مفترق الطرق ص ٩٩ — ١٠٠ •

(٢) سورة المزمل الآية ٣٠ •

(٣) سورة البقرة الآية الثالثة •

في حدود ذلك نستطيع أن نقول : إن العقل لا يختلف مع النقل ، ويقرر ابن القيم أن العقل الصحيح دائر مع أخبار الشريعة وجودا وعدما فلم يخبر الله بما يناقض صحيح النقل ، ولم يشرح ما يناقض الميزان والعدل (١) فإذا بدا خلاف بينهما فمرجه قصور العقل أو سوء تفسير النقل ، على أنه إذا كان هناك نقل قطعي للدلالة كحق الزوج في ميراث زوجته أو الزوجة في ميراث زوجها ، ووجد هناك عقل يتجه غير هذا الاتجاه ، فالنقل هو الذي يتبع ، مرة أخرى لقصور العقل وعدم استطاعته إدراك الحكمة التي وجهت التشريع الاسلامي .

وقد أوردنا من قبل صورا بينت لنا تأويل بعض النصوص لتلائم ما جد من أحداث ، وقد كان ذلك دستور عمر بن الخطاب على ما سبق إيضاحه ، وما سيأتى له مزيد إيضاح .

ليس هناك مجال فيما أعتقد للكلام عن اختلاف العقل والنقل في الاسلام ، وبخاصة إذا دخل عنصر الإيمان قلوبنا فأدركنا أن خالق العقل وموجهه هو الذي شرع وأوحى بالنقل . فالمصدر واحد وهو العزيز الحكيم ، واهب الحكمة الذي « يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا » (٢) .

الاسلام وحاجات الناس :

ولنعد بعد هذا لنعرض كيف استجاب الاسلام في عصوره الأولى لظروف كل زمان ومكان ، ثم كيف اتجه بعض الفقهاء بالاسلام اتجاها جعل الدين كما فهموه سببا من أسباب التدهور الذي أصاب العالم الاسلامي .

اجتهاد الرسول :

وأبرز مثال لذلك هو عمله صلى الله عليه وسلم ، فقد ورد أن

(١) اعلام الموقعين ج٢ ص ٥٢ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٦٩ .

معاملته لسكان البدو كانت غير معاملته لسكان الحضر ، ومعاهداته للبدويين كانت غير معاهداته للحضرين لاختلاف الثقافة واختلاف المكان .

وكان العرب في أول الاسلام قريبي عهد بالوثنية فنهاهم الرسول عن زيارة القبور . خوف أن يتخذوا من بعضها آلهة يلجئون إليها ويناجونها ، كما فعل المسلمون مع بعض الأضرحة في عصور الانحطاط ، فلما أحس الرسول بابتعاد المسلمين عن الوثنية أباح لهم زيارة القبور ، وقد جاء في الحديث « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، فالآن فزوروها » .

اجتهاد أبي بكر :

وأدرك الخلفاء الأول هذه الحقيقة فاجتهدوا في المشكلات التي عرضت لهم واقترحوا لها الحلول ، وواصلوا دائما بين الدين وبين حاجات الناس والصالح العام ، أمر أبو بكر بجمع القرآن مع أن الرسول لم يأمر بجمعه ، وعندما أدرك أن الصالح العام يقضى بمحاربة الفرس والروم لما بدا منهم من تجمع وتحرش بالمسلمين عندما أدرك ذلك شنة عليهم الحرب ، واجتهد أبو بكر في مسألة ما نعى الزكاة والمرتدين ومدعى النبوة فقاده اجتهاده الى ضرورة محاربتهم جميعا ففعل .

وتلك كما يبدو صور ضخمة واجتهاد في أمور خطيرة ، فما بالك بالأمور الاخرى الاقل شأنا ، والتي كانت تقابل الناس في حياتهم وشئونهم .

اجتهاد عمر :

على أن عمر صادف ما لم يصادفه أبو بكر إذ كانت الجزيرة العربية في عهد أبي بكر تسيطر على النمط الذي سارت عليه في عهد الرسول ، ولم تكن التفرع قد استقرت بعد ، ولكن عمر رأى التفرع وقد استقرت ، وشاهد حاجة الناس الى نظم جديدة تناسب هذه الدولة التي اتسعت

أطرافها وجددت بها ظروف وأحوال لم يكن للمسلمين بها عهد في زمن الرسول وزمن أبى بكر ، واجتهد عمر ، ووضع لاجتهاده دستورا سبق أن أوردناه اقتباسا من الدكتور هيكل ، وإليك موجز هذا الدستور •

كان عمر يفرق بين الثابت على الزمان من سنة الرسول صلى الله عليه وسلم وبين ما قضت به أحداث الوقت ، فهذا كان من المستطاع مراجعته وإعادة النظر فيه لو تغيرت الظروف ، اقتناعا بأن رسوله الله لو امتد به الأجل لراجعه وأعاد النظر فيه ، كما أعاد النظر في مسألة زيارة القبور •

وكان عمر لعظيم إيمانه وشدة امتثاله تعاليم رسول الله جريئا في الاجتهاد ، وإن خالف ظاهر النص ، فإذا ورد نص لم يبق في أحوال الجماعة ما يقتضى تطبيقه لم يطبقه • وإذا اقتضت أحوال الجماعة تأويل النص أو إله حريصا في هذا وفي ذاك على ملاءمة الحكم لأحوال المجتمع مع اتفاقه في الوقت نفسه مع روح التعاليم المحمدية السليمة (١) •

وقد أوردنا نماذج من اجتهاد عمر ، عند الكلام على المجتمع الاسلامي في عهده •

وسار هو كبح الاجتهاد على هذا النحو يقولاه الخلفاء العلماء المعاصرون ، فلما تولى الخلافة أفراد قل حظهم من العلم تراثروا الاجتهاد الى العلماء ، وبرهنت العصور الاولى للاسلام على مديونة الاسلام للحياة ، واستجابته لكل شئونها ، وقد مر بنا كيف أوقف عمر بعض الحدود لأسباب رآها ، وكيف اقترح نظام الخراج ومنع تقسيم الأرض على الفاتحين •

(١) انظر الفاروق عمر ج ٢ : ص ٢٠٤ ، ٢٨٢ •

ولكن العصر الاسلامى الأول كان فى الاجتهاد يمتاز بشئ هام هو محاولة إيجاد حل لمشكلات ظهرت فعلا ، دون أن يلجأ علماء هذا العصر الى الفروض أو اقتراح الأسئلة ليضعوا لها أجوبة ، وقد اشتهر عنهم هذا الأثر : لعن الله من سأل عما لم يكن •

الاجتهاد فى عصر الأئمة يصل للافتراضات :

فلما جاء عصر الأئمة فى القرن الثانى الهجرى ، سار الأئمة وتلاميذهم الأقربون على سياسة جديدة ، فقد أطلقوا لخيالهم العنان ، وبدأوا يقترحون الأسئلة ويفترضون الفروض ويضعون لها الأجوبة ، حتى افترضوا آلاف المسائل ، منها ما يمكن عقلا حدوثه • وكثير منها لا يحتل العقل تصوره ، واتسعت هذه الفروض والاحتمالات حتى شملت أبواب الفقه جميعا ، وعلى هذا فقد ترك علماء هذا الزمان ذخيرة واسعة كأنما كانوا يقصدون أن يعفوا من سيجىء بعدهم من "خذ" الذهن فيما قد يعرض لهم من مشكلات •

وعلى هذا كان اجتهاد هذا الجيل بالغا الغاية فى النشاط فهو لم يقف عند إيجاد حل لمشكلة وقعت ، ولكنه تجاوز ذلك الى افتراض مشكلات وإيجاد حلول لها •

جيل لم يجتهد اذ لم توجد حاجة للاجتهاد :

وجاء أبناء الجيل التالى فوجدوا كل شئ مدونا ، ووجدوا السابقين قد ذللوا لهم الطريق ، ففنعوا بما وجدوا ، ولم يجتهدوا ، لا كرهاً للاجتهاد بل لعدم الحاجة إليه •

الادعاء بتفقد باب الاجتهاد :

وجاء جيل بعد ذلك قلاد سابقه فى عدم الاجتهاد ، غير أن هذا الجيل ، أو الى الاجتهاد نظرة مخالفة لنظرة الجيل الذى سبقه ، فالجيل الذى سبق لم يجتهد لعدم الحاجة الى الاجتهاد ، أما هذا الجيل

فقد أساء فهم موقف السابقين ، وظن أنهم لم يجتهدوا لأن باب الاجتهاد قد قُفِلَ ، ولم يَصُدَّ جائزا للفقهاء أن يسلكوا غير سبيل التقليد .

وقُفِلَ باب الاجتهاد منذ ذلك الحين ، وقنع الفقهاء بقتال الأئمة ، واشتهرت المذاهب الأربعة (مذهب أبى حنيفة ومالك والنسائي وابن حنبل) وتبعها الفقهاء وتعصبوا لها ، ونسوا صور الاجتهاد التي قام بها الصحابة ، ونسوا ما قاله أصحاب المذاهب أنفسهم ينصون الناس على الاجتهاد والتفكير نسوا قول أبى حنيفة : إني آخذ بكتاب الله ، فسنة رسوله ، فإذا لم أجدهما نظرت في قول الصحابة فأخذت قول من شئت وتركت قول من شئت ، فإذا انتهى الأمر الى ابراهيم الشعبي والحسن وابن سيرين فلي أن أجتهد كما اجتهدوا .

ونسوا قول مالك : ليس من أحد إلا يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ونسوا أن الشافعي بعد أن أتمى مذهبه ببغداد ، وسار الى مصر وجد أن المكان الجديد وظروفه تستدعي تغييرا فيما دونه ببغداد ، فأتمى مذهبه الجديد بمصر مع أن المدة بين الذهبين كانت حوالي خمس سنوات .

ونسوا ما قاله أحمد بن حنبل وقد سئل عن رأيه ورأى الأوزاعي في مسألة ما : لا تأخذوا بقولي ولا قول الأوزاعي ، ولكن خذوا من المعين الذي أخذنا منه ، واجتهدوا كما اجتهدنا .

ويصور أستاذنا الخضرى سريان روح التقليد بين الناس بقوله : لا شك أنه كان في كل دور من الأدوار السابقة مجتهدون ومقلدون ، فالمجتهدون هم الفقهاء الذين يدرسون الكتاب والسنة ، ويكون عندهم من المقدرة ما يستنبطون به الأحكام من ظواهر النصوص أو من استقولها ، والمقلدون هم العامة الذين لم يشتغلوا بدراسة الكتاب والسنة دراسة

تؤهلهم الى الاستنباط فهؤلاء كانوا اذا نزلت بهم نازلة يفرعون الى فقيه من فقهاء بلدهم يستفتونه فيما نزل بهم فيفتيهم . أما في هذا الدور فان روح التقليد سرت سريانا عاما واشترك فيها العلماء وغيرهم من الجمهور ، فبعد أن كان مريد الفقه يشتغل أولا بدراسة الكتاب والسنة اللذين هما أساس الاستنباط ، صار في هذا الدور يتلقى كتب إمام معين ، ويدرس طريقته التي استنبط بها ما دونه من الأحكام ، فإذا تم ذلك صار من العلماء الفقهاء ، ومنهم من تعلق به همته فيؤلف كتابا في أحكام إمامه ، إما اختصارا لمؤلف سابق ، أو شرحا له ، أو جمعا لما تفرق في كتب شتى ، ولا يستجيز الواحد منهم لنفسه أن يقول في مسألة من المسائل قولاً يخالف ما أفتى به إمامه كأن الحق كله نزل على لسان إمامه وقلبه (١) .

أصبح الأصل فرعا والفرع أصلا :

بل بلغ بهم الأمر الى أن يجعلوا الأصل فرعا والفرع أصلا ، فأصبحوا يتخذون رأى الإمام أصلا ، فإذا خالفته آية أو حديث فهما مؤولان أو منسوخان ، وفي ذلك يقول أبو الحسن عبد الله الكرخي : كل آية تخالف ما عليه أصحابنا فهي مؤولة أو منسوخة ، وكل حديث كذلك فهو مؤول أو منسوخ ، وقول الكرخي هذا يختلف تماما مع ما كان عليه الفقهاء الأول ؛ فقد كان الواحد منهم يبدي رأيا ثم يظهر له حديث يقضى بغير ما قضى به فيعود الى الحديث ويكفى رأيه ، وفي ذلك يقول غير واحد من الأئمة : اذا صح الحديث فهو مذهبي ، واضربوا بقولني عرض الحوائط .

ولعل الضعف السياسي الذي منيت به الأمة الاسلامية ، وتسلاط الأتراك والبويهيين وغيرهم من الجهلاء على هذه الأمة ، كان من الأسباب التي هيأت لضعف فكري ، وقللت ثقة العلماء بأنفسهم ، فلم يستطيعوا أن يكونوا أحرار الفكر ، في جو من العبودية والكبت .

(١) تاريخ التشريع الاسلامي ص ٣٣٣ .

مشكلات بلا حلول :

ومر الزمن وزادت الحال سوءا عندما ظهرت مشكلات تتطلب الحل ، وليس لها حل فيما افترضه السابقون من فروض ، وما خطر ببالهم من احتمالات ، ووقفت هذه المشكلات الجديدة تتطلب حلا ولا من مجيب ، فقد كان جمهور الفقهاء قد وقف يهاجم الاجتهاد ويدافع عن التقليد ، وحظى التقليد بكبار الشيوخ يدينون به ويتبعونه ويتحمسون له ، ويرمون من حاول الاجتهاد أو من أقدم عليه بالكفر والزندقة على ما سيأتى .

صراع فى المجتمع باسم الاسلام :

وتخطى هؤلاء الفقهاء حدودهم ، وأسرفوا فى تقديرهم للتقليد واعجابهم به ودفاعهم عنه . فتراهم فى عهد من العهود يعدون تعليم الجغرافية والحساب بدعة ، ولبس الزى الأوربى تشبها بالنصارى ومن تشبه بالنصارى فهو منهم ، وغير ذلك مما سيأتى بيانه فى حينه ، والمهم هنا أن نذكر أن هؤلاء الفقهاء لم يستطيعوا أن يوجهوا الفقه الإسلامى وجهة حية ، ثم لم يستطيعوا أن يسيطروا على الناس حتى يبقى هؤلاء يتبعون الحدود التى يريدها الفقهاء ولا يتعدونها ، بل تمرد الناس على آراء الفقهاء وساروا فى الطريق الذى دلفتهم له الحياة تاركين الفقهاء يعيشون فى عالمهم الضيق المحدود .

وهكذا بَعُدَ الفقه الإسلامى عن الحياة ، وبعُدَ الفقهاء عن الناس ، وأصبحنا نرى الفقهاء وأفكارهم فى جانب ، وغالبية المسلمين فى جانب آخر ، واتسعت هوة الخلاف بين الجانبين اتساعا كبيرا ، هؤلاء يستعملون زيا وأولئك يستعملون زيا آخر ، ولهمؤلاء ثقافة ولأولئك ثقافة غيرها ، لهمؤلاء معاهدهم ولأولئك مدارسهم ، ولهمؤلاء خطتهم فى الحياة ولأولئك خطة أخرى .

وجاء جيل جديد أصبح ينظر للفقهاء ولآرائهم واتجاهاتهم باشمئزاز قليل أو كثير ، وكأنما أحسن هؤلاء الفقهاء بشذوذهم وسط المجتمع ، فلم

يريدوا لأولادهم أن يسيروا سيرتهم ، بل اتجهوا بأولادهم اتجاهات أخرى ، ولم يوجد فيهم أحد تقريبا سلك بأولاده طريق ثقافته وتعليمه . وجاءت النتيجة سيئة لهذه الخطوات ؛ فبين أبناء الجيل الجديد ظنوا أن جهود الفقهاء ناشئة عن جمود في الدين ، وحسبوا أن الدين عاجز عن مسايرة الظروف المتطورة والأحوال المتجددة ، ففقدوا ثقتهم في الدين ، وقل احترامهم للمتدينين .

نهضة إسلامية شاملة :

أريد هنا أن أقطع هذا الحديث الذي يهمل الشؤون بين أعطافه ، فمن الحق أن نذكر أن جيلنا اقتنع بالشأن الذي تخلقت عنه الديار . الماضي وأعمل الفكر فيها ، وأنزلنا التاريخ من الأساطير والأخبار القديمة ، ونعكس الفكر الإسلامي ، وألم نترك قضية أو موضوعا إلا درسناه ، فافهموا المفكرون المسلمون ففتشوا الدراسات الإسلامية من جديد ؛ فكتب الشيخ محمد الغزالي والشيخ سيد سابق الفقه الإسلامي بكثير من النضج ، وكتب الأستاذ سيد قطب ومجمع البحوث الإسلامية تفسيرا جديدا للقرآن الكريم ، ويشرفني أنني أسهمت في هذه الحركة فكتبت التاريخ الإسلامي من مطلع الإسلام حتى الآن لجميع الطامع الإسلامي في عشرة مجلدات كما كتبت الحضارة الإسلامية في عشرة مجلدات كذلك ، وكتبت مقارنة الأديان في أربعة مجلدات ، وكتبت عن « الإسلام » بأكثر من لغة .

وهناك ألوان من الدراسات الإسلامية هُجرت كالزهور اليانعة أو النجوم المألقة كتبها الدكتور حسين شيكل والمفتي وسليمان وفريد وجدي والدكتور عبد الحليم محمود ، وغيرهم من الباحثين والدارسين ، وفي هذه البحوث اجابات عن كل ما يحتاجه الناس من إرشاد وتوجيه وتوضيح .

وانتقل إلى الحديث عن الماضي لتري صورة التيارات التي كانت من أبواب الإسلام ، والتمتع بفتحها ، والتمتع بالتمتع .

دراسة المادة لا الروح :

تحدثنا من قبل عن روح الاسلام ، وصورناها ، وبيّنا كيف نعم في ظلها المجتمع الاسلامي الأول ، وكيف أن الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبيه أبرزوا روح الاسلام في سموها ، وفيما تفيضه من حب ويسر ، وما تخلقه من تعاطف وتعاون ومشاركة وجدانية عميقة نافعة ، ولم يخل من روح الاسلام عمل قاموا به ، أو قول قالوه ، أو فتوى أصدروها •

ويجب هنا أن نبين أن المصور المتأخرة بعدت بعدا كبيرا عن روح الاسلام واهتمت بالجسم والمادة ، حتى أصبحت الدراسات الاسلامية دراسة لا حياة فيها ولا روح ، ويجرت عدوى هذه الدراسات الى جميع أبواب الفقه حتى الأبواب التي كان يجب أن تكون دراسة الروح أهم عنصر فيها ، تعال بنا نسجل جولة قصيرة فيما كتبه هؤلاء الفقهاء وما تدارسوه •

الزكاة وتصويرها :

ولنبدأ بباب الزكاة ، أهم أبواب الفقه صلة بالناحية الاجتماعية ، كيف يدرس الفقهاء هذا الباب ؟

إن الباحث يتوقع من الفقهاء حين يعرضون الى الحديث عن الزكاة أن يتحدثوا ولو قليلا عن هذه الفريضة الاجتماعية ، ويشرحوا بإيجاز أو بإفاضة نظرية الاسلام الاقتصادية ، ووجوب التعاون بين المسلمين حتى لا يكون فيهم متخلم الشجّع وشاك من البروع ، ويبيّنوا ما بينت الباشة من المحدثون من أن المال ، والعرض عليه الاستكثار منه ، واقتناؤه وسيلة لاستعلاء الانسان على الانسان ، كانهما قول قرآن لا يفتاد الاسلام ، ومصدرا للثورات والحروب ، وأن عبادة المال كانت ولا تزال سبب التدهور الخلقي الذي أصاب العالم ، والذي لا يزال العالم يروّج تحت أعبائه ، وأن الاستكثار من المال والاعتماد عليه هو الذي قضى على الإنسانية وربّس الناس بعضهم لبعض سلاسل ، وأرأى أنهم كانوا يفسحون لها وأنتى

تفكيراً لرأوا الإخاء أدعى للسعادة من المال ؛ ولرأوا بذل المال للمحتاج أكبر جاهاً من إذلال الناس لهذا المال (١) •

ولكن مئات الفقهاء لم يفكروا في ذلك ، بل راحوا يتكلمون عن المادة والجسم دون أية عناية توجه للروح ، إنهم يبدعون كلامهم بقولهم تجب الزكاة في خمسة أشياء : المواشي والأثمان والزروع والثمار وعروض التجارة ، ثم يتحدثون عن شروط وجوبها والمقادير الواجبة فيها ، والعجيب أنهم حتى المحدثون منهم يكثرون الكلام عن الإبل والبقر والغنم ، تلك التي كانت أهم مصادر الثروة والغنى في الجزيرة العربية ، وينسون أنبا الآن لا تكاد توجد في أكثر العالم الإسلامي ، ولم يهتم إلا أفراد قلائل بمصادر الثروة التي جدت في العصور الحديثة ، وبضرورة الزكاة فيها ، وذلك كالعمارات والحوانيت المؤجرة والمصانع والمهن الحرة ، مع ما تقدمه لأصحابها من ثراء •

وقد قلنا إن أغلب الفقهاء أهملوا روح الإسلام ، ونريد أن نقرر هذا شيئاً يبلغ النغاية في الغرابة والدهشة ، هو أن من الفقهاء من حارب روح الإسلام ، فرسم لقرائه الحيل والسبل التي يتخلصون بها من الزكاة ، كأمر برسم للمالك أن يهب ماله لابنائه أو أزواجه قبيل أن يهول الحول ثم يستوهبه إياه وبذلك يبدأ حول جديد ، ولا تجب زكاة عن الحول الماضي لأنه لم يكمل • وهكذا يكرر ذلك قبيل انتهاء كل حول فلا تجب عليه زكاة قط (٢) •

الصوم في كتب الفقه :

فإذا تركنا الزكاة إلى الصوم نجد أن الفقهاء اتبعوا نفس الطريق سيس فيهم من أورد الأفكار التي سبق أن سقناها عن الصوم عند الحديث عن اختلاف العقل والنقل ، ليس فيهم من تكلم عن الصوم على أنه رياضة روحية سامية ، وأنه ترجيح لجانب الروح في صراعها مع الجسم ، وأنه

(١) هيكل : حياة محمد ص ٥٣٢ •

(٢) الحاذق : الفقه على المذاهب الأربعة •

عن طريق الصوم يتحرر الانسان من العادات التي خضع لها كتناول الطعام في وقت معين ، وكالتدخين والمرح ، تلك العادات التي يمكن أن يقال إن الشخص أصبح عبدا لها لا يستطيع أن يتخلف عنها •

كم استاء زوج لأن زوجته تأخرت في إعداد الطعام عن مواعده ، وكم اضطرب رجل لأن لفافات الدخان نفدت منه في وقت لا يستطيع أن يشتري بدلها ، كأن يكون في الليل أو في رحلة ، وفي كثير من الأوقات يصبح الغنى معدما ، على أن الغنى وهو في أوج اغناه تأتي عليه ظروف لا يجد كوب الماء أو كسرة الخبز ، فكم من الأغنياء يحتاجون الى كوب ماء وهم في جلسة عامة ليس له الى الماء من سبيل ، وكم اضطربت الأعمال ذوى الأعمال أن يتأخروا عن مواعيد طعامهم وقتا طويلا أو قصيرا ، وليس الصوم إلا مدبرا يعمد الشخص للتغلب على العادة التي اعتادها ، ويساعده على عودة السيطرة على جسمه ويهيئه لما قد يلزم به من مشكلات وأزمات •

ماذا كتب الفقهاء عن الصوم ؟ إن الجمة العظمى لهؤلاء الفقهاء تصوّر الصوم جوعا وحرمانا ، تضع له الشروط • وتسرف في بحث ما يفطر به الصائم ، وتعالج ما شابه ذلك من المسائل المادية ، دون أن تغطي أي اهتمام للجانب الروحي في هذه الفريضة السامية ، وأسوق لك مسألة أوردها النووي وقال عنها : انها مسألة نفسية ، وقد طلبتها سنين حتى وجدتها والله الحمد ، ما هي هذه المسألة ؟

أصبح شخص ولم ينو صوما ، فتمضمض ولم يبالغ ، فسبق الماء الى جوفه ثم نوى صوم تطوع ، صح على الأصح •

تلك هي المسألة النفسية التي تطلبها النووي رحمه الله حتى وجدها ، وهناك في الكتب الفقهية مسائل من هذا النحو تعد بالمئات ، ليس لها من دلالة الا جفاف الدراسات وبعدها عن الحياة ، واليك بعضها :

لو غرز الصائم سكيناً في لحم ساقه لم يفطر !! بخلاف لو غرزها في جوفه فإنه يفطر !!

لو أدخل بعض خيط في جوفه قبل الامساك وبقي البعض الآخر خارج الجوف ، فإنه يفطر اذا شد الخيط وأخرجه من جوفه ، ويفطر كذلك اذا ابتلع الباقي •

لو بل خيطاً بريقه ثم أخرجه ثم أدخله في فمه وهو رطب واختلط بل الخيط بريقه وابتلعه أفطر •

هذا وأمثاله ما اهتم به كثير من الفقهاء في موضوع الصوم ، أما هُجْر القول وفحشه ، أما الحكمة الحقيقية للصوم والانتفاع به ، أما اهمال الاعمال بسبب الصوم ، أما جشع الصائمين عند الفطر ، أما بخل الصائم وشحه ، أما ضيق صدره وثورته لسبب أو لغير سبب ، فهذا مالم يهتم به الفقهاء أو ما منحوه عناية ضئيلة •

وقد سبق عند الكلام عن الزكاة أن تحدثنا عن أولئك الذين حاربوا روح الاسلام بذكرهم الحيل التي يتغلص بها المسلم من دفع الزكاة ، وقد حدث في الصوم مثل ما حدث في الزكاة ، فإن الفقهاء تحدثوا عن السفر الذي يبيح الفطر من حيث طوله دون أن يتكلموا كلمة واحدة عن أهدافه وضرورته للصائم ، ولذلك نجد أعرايياً يعتمد على أقوال الفقهاء ويهتف عندما استقبل رمضان في فصل الصيف قائلاً : والله لأستغفرك بالسفر •

الصلاة في كتب الفقه القديمة :

وفي باب الصلاة وما تستلزمه من طهارة يجد الباحث أشعثاً من الاحتمالات قدرها الفقهاء وتكلموا فيها ، ولكنهم كالعهد بهم لم يذكروا كلمة واحدة تبين أن الصلاة انفلات من ضجيج الحياة ليفرغ المسلم إلى انصاف لحظات من اليوم ، وكثير من الفقهاء كانوا على صلة بالخلفاء ، ومنهم من انتقل إلى الخليفة ، والاشغال بين يديه ، والحديث في

حضرته ، وقد حصر بعضهم هذه الأدب أروع تصوير ، وسار عليها الفقهاء والعلماء الذين عرفوا طريقهم الى مجالس الخلفاء ، وقد أوضحت ذلك في كتابي « تاريخ التربية الإسلامية » ومما جاء في ذلك ما يلي : فالداخل إلى حضرة الخليفة أو إلى مجلس سره يجب أن يكون نظيفا في بزته وهيئته ، وقورا في خطوه ومشيته متبخرا بالبخور الذي تفوح رائحته ، وأن يتجنب منه ما يعلم أن السلطان يكرهه (١) ، وعلى الجالس أن يقلل الالتفات الى جانبيه وورائه ، والتحريك ليد أو شيء من أعضائه ، وأن يغض طرفه عن كل مرئى إلا شخص الخليفة وحده وأن يتمتع من الضحك وإن جرى ما يريجه ويعلم أن أجل ما يكون الانسان في عين صاحبه اذا كان شخصا صمتا وجسما صلدا ، لا يخرج منه شيء كالنبصاق والمخاط ولا يدخل اليه شيء كالطعام والشراب (٢)

ويوصى كشاجم (٣) جليس الخليفة أن يقبل عليه بالوجه والنظر والوعى ، فلا يشغل الجليس طرفه عن الخليفة بنظر ، ولا أطرافه بعمل ، ولا قلبه بفكر .

وهكذا عرف العلماء والفقهاء هذا الأدب واتبعوه وأوصوا به ليكون سلوك من يجلس في حضرة الخليفة ، انه أدب شمل نظافة البدن ، وجمال الملبس ، وعطر البخور ، ثم تعدى ذلك الى ضبط الحركة ، وضبط الشعور ، وشدة الاهتمام ، ثم تجاوز ذلك الى الاتجاه للخليفة بالفكر والوعى ، عرف الفقهاء والعلماء هذا ودونوه ، فماذا دونوا لمن يكون في حضرة الإله ؟

الحقيقة المؤلمة أنهم لم يدونوا شيئا من هذا القبيل ، وكان كل اهتمامهم أو جله متجها اتجاهها ماديا جافا ، جيل من الصلاة عملية أوتوماتيكية كأنما تقوم بها ماكينة لا قلب لها ولا إحساس ، وجعل من الوضوء أو التيمم

(١) الصابى : رسوم دار الخلافة ٤٦ — ٤٧ مخطوط .

(٢) رسوم دار الخلافة ص ٥٠ — ٥١ .

(٣) ادب التذيم ص ٢٢ — ٢٣ .

وسيلة لدخول الصلاة ، أما ما في الصلاة من تفرغ الى الله لحظات ، وما فيها من آداب اجتماعية رائعة ، وما في الوضوء واللبس من إعداد الشخص للمثول في حضرة العلى العظيم ، فلم ينل من عناية الفقهاء اهتماما ذا بال ، وحتى كلمة « الخشوع » التى قفزت الى اصطلاحات الفقهاء ، خرجوا بها عن معناها ، وفسروها على مقتضى اتجاههم بالتأنى في السجود أو الركوع ، دون أن يوردوا أهم معانى هذه الكلمة من الخضوع والتفكير في الله والاحلال لذاته •

وسنورد فيما يلى نماذج قليلة لما أورده الفقهاء في بابى الوضوء والصلاة مستقاة من أهم كتبهم •

السؤال :

أنقل لك نصا بحروفه ورد في أكثر من كتاب من كتب الفقه ، لثرى مجموعة من فقهاء المسلمين يختلفون ويتفقون ويوردون الأدلة والردود والاعتراضات على قضية ظنوها خطيرة هى أن يستاك الشخص بأصبعه أو إصبع غيره ، وما إذا كان ذلك يجرى أو لا يجرى وهاك ذاك النص :
ولو استاك بأصبع غيره !! وهى خشنه أجزاء قطعا ، قاله في شرح المذهب ، وفى أصبعه خلافا ، الراجح في الروضة لا يجرى ، والراجح في شرح المذهب الأجزاء ، وبه قطع القاضى حسين والحاملى والبغوى والشيخ أبو حامد واختاره الدرمانى في البحر • • • !!

غسل الوجه في الوضوء :

يجرى الفقهاء في تحديد الوجه عملية هى أقرب الى علم الهندسة والمساحة منها الى علم الفقه ، قالوا : وحدّ الوجه من مبدأ تسطّيح الجبهة الى منتهى الذقن طولا ، ومن الأذن إلى الأذن عرضا ، وموضع التحذيف من الوجه ، والصدغان ليسا من الوجه على الأصح في الشرح والروضة ، يجرى في المحور أنهما من الوجه • • • قال في الروضة يجب غسل جزء من

رسمه ورقبته وما تعت ذقنه مع الوجه ليتحقق استيعابه ، ولو تأخرت الأذنان أو تقدمتا عن محلها المعتاد ، اعتبر الأصل .

المضمضة والاستنشاق :

يستحب التثليث في المضمضة والاستنشاق ، ولها صور ، أن يتمضمض ثلاث مرات ثم يستنشق ثلاث مرات ، أو أن يتمضمض مرة ثم يستنشق مرة وهكذا ثلاث مرات ، وتغيير الماء تختلف الأقوال فيه ، فمنهم من يرى تغييره في كل مرة فيستعمل ست غرفات أو أن يستعمل غرفة واحدة للمضمضة ثلاث مرات وغرفة أخرى للاستنشاق ثلاث مرات ، فإذا تمضمض ثم استنشق ، ثم تمضمض ثم استنشق ، ثم تمضمض ثم استنشق ، جاز أن يستعمل ثلاث غرفات ، والأفضل أن يستعمل غرفة واحدة للجميع فهذه أو سنها وأشرفها .

هكذا نص الفقهاء ، ولا يستسيغ عقل سليم أن يقبل أن يكون أو سنها أشرفها .

ترك استقبال القبلة للمصلي المحارب :

تصورَ الفقهاء رحمهم الله أن الاسلام وهو دين اليسر والسهولة ، الدين الذي يجيز للمسافر أن يفطر في رمضان وكذلك يجيز الفطر للحامل والمرضع ، هذا الدين السامح تصوره الفقهاء يلزم المجاهد بالصلاة وهو في وسط المعركة يحارب أعداء الاسلام حربا شرعية ، استمع اليهم يقولون بالحرف الواحد في أكثر من كتاب : « إذا التحم القتال ولم يتمكن المسلمون من تركه بحال لقاتلهم وكثرة العدو ، صلوا ركبانا أو مشاة ، مستقبلي القبلة وغير مستقبليها ، وليس لهم التأخير عن الوقت للآية الشريفة الدالة على اقامة الصلاة في وقتها ، واعلم أنه إنما يعفى من ترك الاستقبال إذا كان بسبب العدو ، فلو انحرف عن القبلة لجماع الدابة وطال الزمن بطالت صلاته ، ويازمه الركوع والسجود أو الإيماء بهما إذا لم يستطع إتمامهما

على أن يكون السجود أخفض من الركوع ، ويجب الاحتراز عن الصياح بكل حال لعدم الحاجة اليه ، ولو احتاج الى الفعلات الكثيرة كالطعنات والضربات المتوالية فعل ولا تبطل صلاته وقيل تبطل ونص عليه الشافعي •

سامح الله هؤلاء الفقهاء كيف ألزموا المحارب بأن يصلى ، وهو يكافح عدوا أقوى منه واشتروطوا عليه ضبط نفسه في هذه الحال فلا يصرخ ، وضبط دابته فلا تجمع ، بل إن منهم من أبطل صلاة المحارب إذا أكثر الضرب والظعن •

ليت الفقهاء تذكروا القصر والجمع في الصلاة عند السفر ، ولو قاسوا قيام المعركة بالسفر لوجدوا حلا للمسلم ليجمع بين الصلاة وواجب الدفاع عن الدين والوطن •

وقد أجاز الفقهاء المحدثون الفطر للطلاب أيام الامتحانات اذا كان الصوم يضر بهم وبمستقبلهم ، ولعلمهم قاسوا الامتحانات على السفر •

ما أجمل الشريعة الإسلامية لو أعمل الفقهاء عقولهم للصالح العام •

وكثيرا ما يحس الفقهاء أن ما يذكرونه من الفروع بعيد عن الفهم والاحاطة وحينئذ يلجئون الى التسرع ويدعون به هذه التقريرات العجيبة • ومن ذلك ما نظمه بعضهم عن أحوال موافقة المأموم للإمام في أفعاله وعدمها :

فعلا وتركا في سجود تلاوة وافق ، وتركا في تشهد أول
وبضده لسجود سهو ثم لا هذا ولا ذا في قنوت فاعقل

وقول الآخر في حضور المرأة الصلاة في المسجد مع الرجال :

قلات وتحضر العجوز بإذن زوجها يجوز

أو سميت طيبا فلا حضورا

فقهاء العصر الحاضر وتأثرهم بالماضى :

قد يظن القارئ أن هذه الاتجاهات المادية والمفروض الحجيية ترتبط بالماضى وليس لها وجود أو بقايا في الحاضر ، وهذا الظن خاطئ ، فقد تأصلت هذه الاتجاهات الغربية في نفوس بعض الفقهاء المعاصرين ، وعانينا منها ونحن ندرس في الأزهر ، بل إنها تقفز أحيانا الى الصحافة اليومية ، وعلى لسان كبير مسئولى في أمور الشرع هو المفتى • وأرجو أن يستجمع القارئ نفسه حتى لا تشتمز مما مستنقبتسه من فقرات حكيته التى تجرح الحياء ، وأن يسيطر على معدته حتى لا يتقأى مما ورد في بعض العبارات •

يقول الأستاذ محمد عبد المنعم مراد (الأخبار . في ١٤ رمضان سنة

١٤٠٥ هـ — ٢ / ٦ / ١٩٨٠ م) •

« وافانى أحد القراء بقصاصة من جريدة تتضمن حديثاً قصيراً لفضيلة الشيخ عبد اللطيف حمزة ، مفتى جمهورية مصر العربية بعنوان مفسدات الصوم • وقد بدأ فضيلة الشيخ حديثه أو مقاله بقوله ويفسد الصوم بالجماع في أحد السبيلين على المفاعل والمفعول به ؟؟ (يالله من هذا التعبير العجيب) ، ثم انتقل فضيلته الى مفسدات الصوم بالاكل والشرب • فقال والاكل والشرب سواء فيه ما يتغذى به أو يتداوى به • وابتلاع مطر دخل فمه ، • ثم قال واكل الطين الأرمنى مطلقا والطين غير الأرمنى وأن اعتاد أكله ••

« وأسأل فضيلة المفتى جادا لا هازلا ما هو هذا الطين الأرمنى وما الطين غير الأرمنى ، وبخاصة أن فضيلته في ختام حديثه عاد فقال ومن مفسدات الصوم أيضا اذا أكل الصائم أرزا نيئا أو عجينا أو دقيقا بدون سكر ، أو طينا غير أرمنى لم يعتد أكله •• ولتكرار الحديث عن الطين

(م ١٧ — المجتمع الاسلامى)

الزمن، غير الأرضي ، سواء اعتاد المرء تكله أم لم يعتد ذلك ، أتساءل عن هذا الطين وذاك اللابن ، أما الأرض النقي ، والعجين فأمرهما مفهوم .

« ثم ختم فضيلته حديثه عن مفسدات الصوم بقوله « أو ابتلع حصاة أو حديدا أو ترابا » مرة أخرى ، فما رأى فضيلته فيمن ابتلع قطعة من النحاس أو القصدير أو الألومنيوم ، هل يكون الأمر فيها كالأمر في الحديد أو يخالفه ؟

« وفي وسط الحديث يقول فضيلته انه مما يفسد صوم الصائم « ابتلاع بزاق زوجته أو صديقه لا غيرهما » وهنا أيضا أتساءل لماذا يفسد الصوم ابتلاع بزاق الزوجة أو الصديق ، بينما لا يفسده ابتلاع بزاق شخص آخر ؟ مع الاعتذار للقراء عما في هذه العبارة من أثر .

« يا فضيلة المفتي ، عندي لك ألف سؤال مماثل ، ولكن السؤال الملح بعد قراءة حديثك هو : هل تعيش فضيلتك فعلا في السنة الخامسة بعد الأربعمائة والألف من الهجرة ؟

محمود عبد المنعم مراد

وفي نفس اليوم علق الأستاذ أحمد بهاء الدين بجريدة الأهرام على هذا المقال العجيب الذي نشره المفتي بقوله :

« لم اصدق عيني وأنا أقرأ في جريدة « الوفد » المقال الذي كتبه الزميل جمال بدوي ، مدير التحرير . . معلقا على كلام نشره الشيخ عبد اللطيف حمزة مفتي مصر عن « دليل الصائم ومفسدات الصوم » ورجعت الى أصل كلام مفتي الديار غير مصدق فوجدت العجب !

« وإن أهين القراء بما ذكره المفتي بين « مفسدات الصوم » من صور غريبة للعلاقات الجنسية الشاذة ، التي لم ترد في « ألف ليلة وليلة »

المصادرة بحكم قضائي ، والتي ذكر أنها تفسد الصوم ٠٠ وكان^١ مفتيته يرى أنها — في غير أيام الصوم — أمور مقبولة !!

« ولكنني أضرب مثلاً من عجائب أخرى ، فأكل اللحم النيء يفسد الصوم ، إلا إذا ضرب فيه الدود و « أكل الطين الأرمني مطلقاً أو أكل الطين « غير الأرمني » للمعتاد أكله . »

« ومن مبطلات الصوم « ابتلاع بزاق » أي — بصاق أو لعاب — الزوجة ٠٠ أو الصديق !! وقد فهمت حالة ابتلاع « بزاق » الزوجة ولم أفهم حالة ابتلاع « بزاق » الصديق . »

« ومما يفطر الصوم أكل الارز نيئاً أو عجينا أو دقيقاً بدون سكر أو نواة أو قطناً أو سفرجلاً ! أو ابتلع خصاة أو حديدًا أو تراباً ! أو إن دهنَ شاربته ثم أكل منه متعمداً ! »

« وإي مجتمع مسلم اليوم يأكل اللحم النيء وقد ضرب فيه الدود ؟ »
ويأكل الطين الأرمني أو غير الأرمني ومعتاد على ذلك ؟

« هل بلغ الجمود في النقل ، وتعطيل النقل ، حدٌ عدم تمييز الزمن الذي نعيش فيه وحدٌ عدم الانتقاء حتى في النقل . »

« وقد صح تعليق الزميل جمال بدوي حين قال « إن المسلم المعاصر يعرف من أمور دينه أضعاف ما تقدّم تلك المعلومات التي تذكرنا بما كان يتناقله أدياء الفقه في عصور الانحطاط ، عندما كانوا يفترضون المستحيلات لآظهار براعتهم في الافتاء ، فكان شأنهم شأن الحواة والمحتالين ، وليس شأن العلماء الذين يحترمون أنفسهم ويزنون كلامهم بميزان الذهب » . »

« أبهذا النمط من التفكير ، يعيش بعض علماء الاسلام ، وفي أعلى المناصب في القرن الخامس عشر للهجرة ؟! هل هذا هو النمط الذي يراد منه أن يَنْتَقَى لنا في تقنين الشريعة الاسلامية ؟ »

أحمد بهاء الدين

وعلق الأستاذ الدكتور إبراهيم عبده في صحيفة « الوفد » الصادرة يوم ٦ يونيو سنة ١٩٨٥ على ما جاء في كلمة الشيخ المفتي بأن أكل اللحم النجس إذا ضرب فيه الدود لا يفسد الصوم ، فتساءل الدكتور عن أكل الجواقة أو المشمش بدوده وعما إذا كان لا يفطر الصائم كاللحم بدوده ؟ وما الفرق بين الاثنين ؟

وهكذا أثارت هذه الأفكار سخرية المفكرين والصحفيين وهي في الحق امتداد لحشد من الأفكار الهزيلة البعيدة عن روح الاسلام ، والتي تحتشد في كتب الأوائل ، فلما أعلن الشيخ المفتي بعضها واجه هذا الاستنكار لأنه أراد أن يبعث الحياة في ماض لا يستحق الحياة •

الفقهاء والمعاملات

ولندع العبادات لنذهب الى المعاملات التي يجب أن تكون متطورة شديدة الملاءمة لثئون الخلق ، لنسرى الى أى مدى استطاع الفقهاء المسلمون أن ينتفعوا وينفعوا الناس بهذه الشريعة السمحة ، بل لنرى كيف أهمل الفقهاء روح الاسلام وروح التشريع ، ووجهوا كل العناية الى الجانب المادى الجاف في دراستهم للفقهاء الاسلامى ، ولنكتف بأخذ باب الطلاق نموذجاً لدراستنا •

الطلاق :

عن الطلاق يقول صلى الله عليه وسلم : (أبغض الحلال إلى الله الطلاق) ، ومن الواضح أن هذا الحديث المرجز يصور العلاقة الزوجية مقدسة سامية يثير قطعها غضب الله ، ويخيل إلى أن الفقهاء لو عنوا بإيضاح روح التشريع في هذا الموضوع ، وبينوا أن الطلاق لا يلجأ إليه إلا إذا ضاقت السبل بإصلاح ذات البين ، لو فعل الفقهاء ذلك : لقل تهاون العامة بذلك الموضوع ، ذلك التهاون الذى جعل من المرأة سلعة يحتفظ بها صاحبها أو يبعدها عنه بالطلاق وقتما يشاء ، مما هدد الحياة

الاجتماعية ، ويجعل سعادة الأسرة في مهب الريح ، ولكن ألفه جاء ليشملوا روح التسريع اهما لا تاما ، وبدأوا كلامهم في هذا الباب فبينوا الطلاق لغة وشرعا ، ثم بينوا أنه صريح وكناية ، وأوردوا ألفاظ الصريح ونماذج من الكناية • ودللوا على جواز الطلاق بالقرآن والسنة والاجماع ، وشرحوا عدد الطلقات المباحة للحر والعبد ، ثم أوردوا من مسائل الطلاق نماذج حار الباحثون في تحليل إيرادها • إن مئات منها خيال لا يمكن أن يقع ولا من هاذي أو معتوه ، ولكنهم أضاعوا جهدهم ووقتهم في تصورها والاجابة عليها ، وطالما اتفقوا واختلفوا في ذلك حتى رمى بعضهم البعض الآخر بالجهل وقلة الفقه ، وسنورد فيما يلي نماذج قليلة مما حشده الفقهاء من مسائل في هذا الباب :

لو قال لزوجته : إن كلمت زيدا فأنت طالق • فكلمته ولو سكران أو مجنوننا طلقت • قال ابن الصباغ يشترط أن يكون السكران بحيث يسمع ويتكلم ، ولو كلمته وهو مغمى عليه أو وهو نائم لم تطلق ، وإن كلمته وهي مجنونة قال ابن الصباغ : لا تطلق ، وعن القاضي حسين إنها تطلق • قال الرافعي والظاهر تخريجه على حث الناسي ، وإن كلمته وهي سكرانة طلقت على الأصح ، ولو خففت صوتها بحيث لا يسمع لم تطلق وإن وقع في سماعه شيء ، فذلك هو المقصود اتفاقا لأنه لا يقال كلمته ، ولو نادته من مسافة بعيدة لا يسمع منها الصوت لم تطلق ، فلو حملت الريح كلامها ووقع في سماعه فالذهب أنها لا تطلق ، وإن كانت المسافة بحيث يسمع فيها الصوت فلم يسمع لذهول أو شغل طلقت ، فإن لم يسمع لارض ريح أو لصمم فيه وجهان لم يصحح الرافعي ولا النووي هنا شيئا ، وصحح الرافعي في الشرح الصغير الوقوع وجزم به في الشرح الكبير في صلاة الجمعة عند إسماع أربعين الا أنه فرض المسألة في السهم فقط ، ونقله في التتمة عن نص الشافعي ، وأما النووي فاذنلت بتسحيحه ، فصحح في تصحيح التنبيه أنه لا يقع وجزم في صلاة الجمعة بالوقوع •

وعن محمد بن الحسن أن الرجل اذا كان له ثلاث نسوة لم يدخل

بواحدة منهن ، اسم واحدة منهن زينب والأخرى عمرة ، والثالثة حمادة ،
ثقال لزيب : إن طلاقك فعمرة طالق ، ثم قال لعمرة : إن طلاقك فحمادة
طالق ، ثم قال لحمادة : إن طلاقك فزينب طالق + فطلق زينب واحدة فان زينب
تطلق التطليقة التي طلقها ، وتطلق عمرة تطليقة بالحنث ، ولا يقع الطلاق
على غيرهما + فان لم يطلق زينب ولكن طلق عمرة طلق عمرة طلق عمرة التطليقة
التي صدرت ، وطلقت حمادة بالحنث ، ولم تطلق زينب شيئا ، فان لم
يطلق عمرة ولكن طلق حمادة تطليقة طلق حمادة التطليقة التي صدرت
وطلقت زينب تطليقة بالحنث ، وطلقت عمرة تطليقة أخرى بالحنث ، لأنه
جنث في زينب فتطلق عمرة لحنثه في زينب ، فان لم يكن طلق امرأة منهن
شيئا ولكن قال : احداكن طالق ثم مات قبل أن يبين أيتهن طلق فان لعمرة
نصف الصداق ولا ميراث لها ، ولزيب ولحمادة صداق + وربع وصداق
بينهما نصفين ، ولهما نصف الميراث بينهما نصفين + ونصف الميراث يرد على
كل حال وزيب وحمادة في حال تطلقان جميعا ، وفي حال تطلق إحداهما
فلهما في حال صداق ، وفي حال صداق وربع صداق ، وأما الميراث ففي حالة
ترث إحداهما + وفي حالة لا ترثان فلهما نصف الميراث بينهما نصفين .

ثم فرض محمد بن الحسن هذه الزوجات اللاتي لم يدخل بواحدة
منهن أربعا فكثر الحساب والكسور .

ومنها لو قال : إن سرقته مني شيئا فأنت طالق + فدفع إليها كيسا
فأخذت منه شيئا لم تطلق لأنه خيانة لا سرقة ، قلت هكذا جزم به اليرافعي
والنووي وفيه نظر من جهة أن العامي لا يفرق بين السرقة والخيانة فاذا
فسدت السرقة بالخيانة وأخذنا بذلك أوقعنا عليه الطلاق عملا بمعرفتها
واعتقادها .

ومنها اذا قال : إن كلمتك فأنت طالق + ثم أعاد الجملة طلقت لأنه
كلمها ، وكذا لو قال ، اعرفي ذلك ، طلقت لأنه كلمها .

ولو قال : إن قرأت سورة البقرة في صلاة الصبح فأنت طالق فقرأتها
وفسدت صلاتها في الركعة الثانية لم تطلق على الصحيح ، لأن الصلاة
عبادة واحدة يفسد أولها بفساد آخرها •

وهكذا لا يستطيع الإنسان أن يدرك أنه فراق حدث بين زوج
وزوجته لعدم استطاعة التوافق والانسجام بينهما ؟ أو هي عملية حساب
رلغة ومنطق ؟ وأين «ذا الذي سيعتد قرانه على ثلاث أو أربع ولا يدخل
بهن ثم يبدأ في عملية مثلية بين زينب وعمرة وحسادة ؟ انه الجانب المادى
الجاف الذى ازدحمتم به كتب المتن ، وشمل به المشتد ، وهو بلا شك
دليل على نشاط عقلى ولكته من الناحية الواقعية لا شأن له •

وليس الفقهاء فحسب هم الذين اتجهوا هذا الاتجاه ، وليس عالم
الفقه وحده هو الذى بلى بهذه الدراسات الجافة • بل إنها العلوم كلها
التي عالجها من نسميهم العلماء ، انها المنطق والحديث والتفسير والتاريخ
الاسلامى وعلم الكلام والنحو والصرف والبلاغة ، فقد تشبعت هذه العلوم
جميعا بالعجمة وانعدمت الروح في دراستها ، وسنعرض لبعضها عند
الحديث عن « دراستى في الأزهر » ولكنى هنا أجس بأنه من الضروري
أن أورد صورا تبين الدراسات التي اتصت بالقرآن الكريم ، هذا الكتاب
المحكم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، هذا الكتاب المعجز
في أسلوبه ومعانيه ، هذا الكتاب العربى المبين ، ماذا فعل به هؤلاء العلماء
عندما كتبوا عنه ما أيسموه تفسيراً ؟

الجواب أنهم كتبوا كل شيء لا يلزم ، وأهملوا جلاء ما يجب أن
يكتب ، أهملوا إبراز جمال القرآن في أسلوبه ومعانيه ، وما يدعو له من
خلاق وبر وعمل صالح ، وأحالوا الروح المتدفقة والمعنى الخلاب
والأسلوب المعجز ، الى قواعد نحوية ودراسات بلاغية وفقهية • إن الرجل
للعربى ليقرأ القرآن فيحس بلذة ما تعديها لذة ، فإذا ذهب يقرأ تفسير
القرآن استعجم عليه القرآن واستغلق •

ومن القصص التي تروى عن إحصاس العرب بجمال القرآن أن رجلاً
مرّ بفتاة تنشد من شعرها هذه المقاموعة :

أستغفر الله لذنبى كله قتلته إنساناً بغير حله
مثل غزال ناعم فى دلكه وانتصف الليل ولم أصله

فقال الرجل : أعيدى يا فتاة ، فشعرك من أعذب ما سمعت وأجمله

فأجابت الفتاة : هل ترك القرآن يا أبتاه لنا عذوبة أو جمالا ؟ لقد
استأثر كلام الله جلّ وعلا بالبيان المبين ، والقول المفصل ، والحكمة الرائعة •
وأوشك كلامنا إذا قيس به أن يصبح غثاً لأجمال فيه •

قال الرجل : كيف ذلك يا فتاة ؟

قالت : انظر الى الآية الكريمة « وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه ،
فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ، ولا تخافى ولا تحزنى ، إنا رادوه إليك
وجاعلوه من المرسلين » (١) كيف اشتملت آية واحدة على أمرين ونهيين
وبشارتين (٢) مع جمال أسلوب وحسن وقع •

ذلك لون من تفسير القرآن الكريم بابرار محاسنه ، وما فيه من سحر
وجمال • فماذا فعل المفسرون عندما عمدوا الى كلام الله يدوّنون تفسيره ؟

نسوق فيما يلى بعض آيات من القرآن الكريم ، ثم نردفها بما ذكره
المفسرون عنها ، وتلك الآيات تفيض جمالا وعذوبة عند المسلم الذى ينظر
الى القرآن نظرة تقديس واجلال ، وكذلك عند الكافر أو المشرك الذى
يقرأ القرآن على أنه صفحات من الأدب العربى فحسب ، وهذه هى
الآيات :

(١) سورة القصص الآية السابعة .

(٢) الأمران : أرضعيه ، القيه • والنهيان : لا تخافى ، ولا تحزنى •
والبشارتان : إنا رادوه إليك • وجاعلوه • . . .

« وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هنيئاً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ، والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً ، والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً ، إنها ساءت مستقراً ومقاماً ، والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ، والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاماً ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً ، إلا من تاب وعمل عملاً صالحاً ، فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً ، ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب الى الله متاباً ، والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً ، والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخرشوا عليها صماً وعمياناً ، والذين يقولون : ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين وأجعلنا للمتقين إماماً ، أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاماً ، خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً » (١) .

ذلك نموذج من كلام الله وأستطيع أن أقول إنه لا يحتاج الى تفسير ، إنه إبراز جميل للخلاق الذي يتحلى به عباد الرحمن ، وتصوير مخيف للشعور التي يرتكبها العصاة ، وفي هذا الأسلوب حلاوة وطلاوة وفن وأدب ، فماذا قال المفسرون عن هذه الآيات ؟ سنورد النص الحرفي لعبارة البيضاوى وهى غير بعيدة عما ذكره غيره من المفسرين ، قال :

(وعباد الرحمن) مبتدأ ، خبره أولئك يجزون الغرفة أو (الذين يمشون على الأرض) وأضافتهم الى الرحمن للتخصيص والتفصيل أو لأنهم الراسخون فى عبادته على أن يكون عباد جمع عابد كتاجر وتجار (هونا) هينين أو مثيلاً هينا مصدر وصف به والمعنى أنهم يمشون بسكينة وتواضع . (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) تساماً منكم وترثاً لكم لا خير بيننا ولا شر ، أو سداداً من القول يسلمون فيه من الإيذاء والاثم ، ولا ينافيه

آية القتال لتتسخه فان المراد به الانغضاء عن السفهاء ، وترك مقابلتهم في الكلام (والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما) في الصلاة وتخصيص المبيتة لأن العبادة بالليل أحسن وأبعد عن الرياء ، وتأخير القيام للروى ، وهو جمع قائم أو مصدر أجرى مجراه (والذين يقولون ربنا أصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما) لازما ومنه الغريم للالزمته ، وهو إيذان بأنهم مع حسن مخالطتهم مع الخلق واجتهادهم في عبادة الحق وجلون من العذاب مبتهلون الى الله تعالى في صرفه عنهم لعدم اعتدادهم بأعمالهم وندم وثوقهم على استمرار أحوالهم (إنها ساعة مستقرا ومقاما) أى بمسست مستقرا وفيها ضمير مبهم يفسره المميز ، والمخصوص بالذم ضمير محذوف ، به ترتبط الجملة باسم إن ، أو أحرزت وفيها ضمير اسم إن ، ومستقرا حال أو تمييز ، والجملة للعلة الأولى أو تعليل ثان وكلاهما يجتملان الحكاية والابتداء من الله . (والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا) لم يجاوزوا حد الكرم (ولم يقتروا) ولم يضيقوا تضيق الشحيح ، وقيل الاسراف هو الانفاق في المحارم ، والتقتير منع الواجب . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء وكسر التاء ، ونافع وابن عامر والكوفيون بضم الياء وكسر التاء من أقتروا وقرئ بالتشديد ، والكل واحد (وكان بين ذلك قواما) وسطا عدلا ، سمي به لاستقامة الطرفين كما في مواه لاستوائه ، وقرئ بالكسر ، وهو ما يقام به الحاجة لا يفضل عنها ولا ينقص . وهو خبر ثان أو حال مؤكدة ، ويجوز أن يكون الخبر بين ذلك لغوا ، وقيل إنه اسم كان لكنه مبنى لضافته الى غير متمكن وهو ضعيف لأنه بمعنى القوام فيكون كالاخبار بالشيء عن نفسه .

وهكذا يسير البيضاوي في تفسيره ، وأستطيع أن أقول دون تحرج أنه جمى على القرآن بعد أن كان لى واضحا ظاهر المعنى رائع الأسلوب .

ومن صور التباس ما أورده الزركشي من أن الإف والمهم له الينس . لأنه مختلف فيهما ، قيل للاستغراق وقيل لتعريف الجنس ، واختاره الزمخشري ومنع كونهما للاستغراق ، قيل وهى ترعة اعتراضية ، ويشبه أن

يقال في تبين مراد الزمخشري أن المطلوب من العبد إنشاء الحمد لا الإخبار به ، وحينئذ يستحيل كونها للاستعراق ، إذ لا يمكن للعبد أن ينشئ جميع المحامد منه ومن غيره بخلاف كونها للجنس (١) •

وقد بلغ من عنايتهم بالناحية المادية في القرآن الكريم ، بعد أن غفلوا عن روحه ، أن ذهبوا يعدون حروف القرآن وكلماته وعدد ما به من الألفات والباءات والتاءات وغيرها من الحروف الهجائية (٢) •

وهكذا اتجهت العناية الى الجسم والى الجانب المادى الجاف فى الدراسات الاسلامية ، وهكذا أهملت روح الاسلام وأخلاق الاسلام وفلسفة الاسلام عند كثير من الباحثين فى عصور الظلام التى طالت وامتدأ أثرها إلى النصف الأول من القرن العشرين •

مقاومة الإصلاحات العلمية والاجتماعية باسم الدين

وعن علاقة الدين الاسلامى بالعلم يقول المحرم الأستاذ الدكتور أحمد أمين : ان إصلاح حال المسلمين يكون بشيئين : أحدهما فصل العلم عن الدين ، والتوسع فى العلم الى أقصى حد مستطاع (٣) • • • ولكنى لا أوافق على هذا رأى ، فمن الخير أن ينمو العلم فى ظلال الدين ، فإن العلم عندما نما فى أوروبا بعيدا عن الدين والخلق ، كان العلم مدمرا ، بعث الخراب فى المعمور ، وأثار الفزع فى القلوب ، وسبب الموت للشباب ، واليتم للأطفال ، ورمل النساء ، وحطم قلوب الآباء •

والدين الاسلامى على وجه الخصوم يبحث على العلم ويدعو إليه ، قال الله تعالى :

يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ بِإِرْجَاتِ (٤) •

(١) الكشكول للعالمى ص ٨ •

(٢) الكشكول للعالمى ص ١٧٥ •

(٣) سورة المجادلة الآية ١١ •

(٤) يوم الاسلام ص ١٨٩ •

— هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون (١) ؟

— وقل ربى زدنى علماً (٢) •

— فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون (٣) •

وقال عليه السلام : اطلبوا العلم ولو فى الصين •

ولكن بعض من يتحدثون باسم الدين اتجهوا بالعلم اتجاها خاصا عقيما • وعدوا ما سواه ضلالا وزندقة ، وقد سبق أن قلنا إن العلماء توقفوا عن الاجتهاد وأنهم اتجهوا فى دراستهم اتجاها جافا ، وأهملوا الروح وعنوا بالمادة وبالفروض الوهمية • ونزید على ذلك هنا أنهم حاولوا أن يمنعوا غيرهم من السير فى الطريق العلمى القويم ، وأرادوا أن يلزموا الدول والأفراد باتجاهاتهم ، وكان لهم نفوذ وبخاصة على العامة ، إذ كانوا قادة الجماهير ، فأعلنوا أفكارهم ، ووقفوا منها موقف المدافع الحامى ، فقدر لهم النجاح الى حد كبير ، وقد سبب نجاحهم تخلفا قليلا أو كثيرا فى الحياة العلمية والاجتماعية بالدول الاسلامية •

وسنورد فيما يلى نماذج لما أصاب العالم الاسلامى من تخلف بسبب فهم العلماء للدين الحنيف •

مقاومة الإصلاح فى تركيا أيام الخلافة العثمانية :

عندما ظهرت تركيا فى أفق السياسة الدولية كانت دعامتها الأولى جيشها الباسل الذى استطاع أن يسحق كل القوى التى حاولت الوقوف فى سبيله وقد كسب هذا الجيش لتركيا نصرا مؤزرا فى آسيا وأفريقية وأوروبا ، فحكمت تركيا امبراطورية من أعظم الامبراطوريات التى عرفها التاريخ ، وتهاوت قوى أوروبا أمام القوة التركية وهى تزحف كالسيل المعارم • ومرت الأيام ، وتوصلت الدول الأوروبية الى أسلحة جديدة ونظم جديدة فى ترتيب الجيوش وتدريبها ، وبدأت أوروبا تحاول استعادة مكانتها

(١) سورة الزمر الآية التاسعة .

(٢) سورة طه الآية ١١٤ .

(٣) سورة النحل الآية ٤٢ .

واسترداد ما اغتصبته تركيا ، فالروس يتحفزون للوثوب على القسطنطينية ، وفرنسا تهاجم مصر ، والثورة بدأت تتحرك في البلقان .

وأحس السلطان سليم الثالث بالخطر يوشك أن يحدث به ، فأراد أن يستعد له ليضمن السلامة للدولة . وليس الاستعداد إلا بأن يقتبس النظم والأسلحة الجديدة التي أوشت أن تجعل كفة أعدائه راجحة على كفته ، وأن يعيد تنظيم « الإنكشارية » التي كانت قد أصبحت رمز الاضطراب والرجعية (١) .

ماذا في ذلك ؟ وكيف يتعارض هذا مع الدين الذي يقول بارئه : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » (٢) ؟ ، لسنا نفهم ، ولكن علماء تركيا في ذلك الوقت وعلى رأسهم شيخ الاسلام قاوموا هذه المحاولة مقاومة شديدة ، وحرصوا العامة ضد السلطان بحجة أنه يريد التشبه بالافرنج . وكان للعلماء النصر ، فانهمز السلطان وخلع ثم قتل .

الاخوان في السعودية :

ظهرت بجزيرة العرب في عهد الملك العظيم عبد العزيز آل سعود جماعة « الإخوان » وقد عرفت هذه الجماعة بالمتعصب الديني والرجعية ، وكان الملك مصلحا اجتماعيا فذاً شديد الفهم لروح الاسلام ، وكان هؤلاء لا يستجيبون للتطور أياً كان مداه واتجاهه ، وأهداه وبواعثه ، ولذلك حدثت بينهم وبين الملك صراعات وخلافات كثيرة ، ويصور لنا الشيخ حافظ وهبة بعض مواقف هؤلاء من الملك ، قال (٣) :

« شاهد الملك عبد العزيز التليفون لأول مرة في مكة ، ورأى الفائدة العظيمة التي يسديها في انجاز الأعمال وسرعة المواصلات ، ولما نقل معسكره من الزاهر (بقرب مكة) الى حذاء أراد أن يمد سلكا تليفونيا

(١) اقرأ ما كتبناه عن الانكشارية في الجزء الخامس من موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية .

(٢) سورة الانفال الآية ٦٠ .

(٣) جزيرة العرب في القرن العشرين ص ٣١٦ وما بعدها . وقرأ عن صراع الملك ضدهم في الجزء السابع من موسوعة التاريخ الاسلامي للمؤلف .

بين مكة وبين حداء ، وسلكا آخر بين الرغامة وبين حداء حتى يكون على اتصال تام فيما بين مكة ومقره في حداء وميدان الحرب ، وكنا تقطع المسافة بين مكة وبين معسكره في أربع ساعات ذهابا ومثلها ايابا على ظهور الإبل أو الخيل ، ولكنه عدل أخيرا عن هذه الفكرة لأن انشاء التليفون يهيج ثائرة الإخوان فأرجأ هذه المسألة .

« ولما مدت أسلاك التليفون بعد ذلك كان الإخوان يقطعونها لأنها عندهم منكر يجب إزالته ، وكثيرا ما كانوا يتعمدون قطع الأسلاك الموصلة إلى قصر الملك أثناء وجوده في مكة .

« وحدث مرة أن أحد الاخوان ضرب خادما للملك يركب دراجة وتسمى بلغة نجد (عربة الشيطان) أو (حصان إبليس) بدعوى أنها بدعة ، وأنها تسير بقوة السحر وعمل الشيطان .

« ولما علم رجال الدين بعزم الملك عبد العزيز على إنشاء مخطبات لاسلكية في الرياض وبعض المدن الكبرى في نجد ، هرعوا له وقالوا : يا طويل العمر ، لقد غشك من أشار عليك باستعمال التلفزيون وإدخاله إلى بلادنا .

قال الملك : لقد أخطأتم فلم يغشنا أحد ، ولست والله الحمد بضعيف العقل أو قصير النظر لأخدع برأى المخادعين ، وأؤكد لكم أنني لا أسمع كلام أحد فيما تظهر فائدته لى ولبلادى ، مادام ليس هناك دليل من كتاب أو سنة على تحريمه .

وعندما وضعت الآلة اللاسلكية في الرياض واستعملت ، كان الناس يعزى بعضهم بعضا بأن انشاء هذه المحطة هو الحدث بين الخير والشر ، وكان العلماء يرسلون من يأتونهم لزيارة المحطة ورؤية الشياطين والذبائح التى تقدم لهؤلاء الشياطين ، فلم يجدوا شيئا .

وعندما ظهرت الساعة منذ حوالى ستين سنة في نجد حطمها من يدعون

العلم والدين من الإخوان بدعوى أنها من ١٩٥٠ ، المضطرب ، أو انحرافا عن
الأحوال بدعة ، وقد اضطر أحد المشايخ التقدميين أن يكتب رسالة ويطلبها
وينشرها ردا على دعوى هؤلاء بعدم جواز استعمال الساعة .

ويقول الشيخ حافظ وهبة إنه صلب مرة أحد العلماء الى محطة
التلغراف اللاسلكى ليريه أنه ليست هناك ذبائح ولا شياطين ، ولكن هذا
العالم ظن أن الشيخ حافظ دبّر هذه الزيارة فأخفى الذبائح ، ولهذا تكررت
زيارة العالم للمحطة زيارات مفاجئة .

وقد حدث مثل هذا عند ظهور المذيع ، وقد خطرت فكرة في ذهن
الملك وضع بها حدا لهذه الشبهات التى طال أمدّها ، وهى أنه أمر أن يقرأ
القرآن الكريم فى المذيع والتليفون ، وسأل العلماء : هل يقرأ الشيطان
القرآن ، وبهذا من جهة ، وبالأمن من جهة أخرى خمدت هذه الفتنة
الغائصة (١) .

فى مصر ٢

وقد منيت مصر أيضا فى القرن الثامن عشر وما قبله بمثل هذه الحال ،
حتى لقد أرادت الحكومة المصرية أن تدخل علوم الرياضة والطبيعة فى
مدارسها ، ولكنها لم تستطع أن تتقدم على ذلك دون أن تستفتى شيخ
الأزهر خوفا من ثورة العلماء ، فكتبت له السؤال التالى :

هل يجوز تعليم المسلمين العلوم الرياضية كالهندسة والحساب والهيئة
وعلوم الطبيعة ؟

ويجيب شيخ الأزهر فى حذر : إن ذلك يجوز مع بيان النفع من تعلمها .
وهكذا لم يعمل العلماء فى ميدان الثقافة والمعرفة ، ولم يدعوا غيرهم

(١) انظر جزيرة العرب فى القرن العشرين ص ٣١٧ ، ٣١٨ ، واقرأ عن
تطور هذه الفتنة والقضاء عليها بالقوة فى الجزء السابع من موسوعة التاريخ
الإسلامى للمؤلف .

يعملون ، فوقف العالم الاسلامى ، وقطعت أوروبا فى طريق الحضارة
شوطا بعيدا .

هذهان المرأة من العلم :

أما التخلف الاجتماعى الذى منى به العالم الاسلامى بسبب جمود
الكثيرين من العلماء فيتمثل فى عدة أشياء لعل من أهمها « شل نصف المجتمع —
المرأة — والحيولة بين هذا النصف وبين الاشتراك فى نضال البشرية من أجل
مستقبلها وأمنها وسلامها ، لكن الكهانة وتجار الدين يفرضون على المرأة
المسلمة أن تولد وتلد ثم تموت ، أى جعلت منها الكهانة آلة مسيرة
لا عقل لها ولا رأى ولا حق ، فكيف يمكن — إذا — أن تبث ثقافة الفرد
المسلم ، وكيف يمكن خلق نهضة المسلمين ونصيفهم — باسم الدين —
كان يعيش مغلولاً بلا عقل (١) ؟ .

وعلماء الدين يعرفون بلا شك ما حققته المرأة المسلمة فى عصور
الاسلام الأولى من تقدم ونجاح فى ميدان العلم والمعرفة وغيره من
الميادين ، انهم بلا نزاع سمعوا عن عائشة ورووا الأحاديث عنها ، وأغلب
الظن أنهم رأوا كتاب الطبقات الكبير لابن سعد وعرفوا أنه خصص أحد
أجزائه لرواية الأحاديث عن النساء ، فروى فيه عن أكثر من سبعمائة
امرأة ، وأغلب الظن كذلك أنهم قرعوا قليلا أو كثيرا مما كتبه الشواعر
من قصائد رائعة ، ولعلهم بعد ذلك سمعوا عن برع عن فى الطب كزينب
طبيبة بنى ود وأم الحسن بنت القاضى أبى جعفر الطنجالى وغيرهما (٢) .

فليت شعرى لماذا حوربت البنت ومنعت من التعظم باسم الدين
أو باسم الاستقرار بالبيت الذى ظنوا أن الاسلام فرضه ؟ وقضى
عليها بأن تولد وتلد ثم تموت ؟ ومن العجب أن تحرم البنت حتى من

(١) أنور السادات : نحو بحث جديد ص ٣٣ .

(٢) عقدنا فصلا خاصا عن ثقافة المرأة بكتابتنا « تاريخ التربية الاسلامية »
ص ٣٢٧ — ٣٥٢ من الطبعة التاسعة .

الثقافة الدينية ، وآلا يفكر الأزهر أن يفتح أبوابه للبحث ، تتألف الأسلام زادا ينير لها دنياها التي أطبق عليها ظلام حالك ، ولم ينتبه الأزهر لهذا الموضوع الا سنة ١٩٥٦ بعد أن وجدت البنت طريقها الى المدارس والجامعات قبل ذلك بعشرات السنين ، مما يتسعر أن مشروع الأزهر جاء متأخراً ، وعند كتابة هذه السطور للطبعة الأولى في الشهور الأخيرة من عام ١٩٥٨ كان مشروع الأزهر لم يخرج بعد للنور .

البدع والخرافات :

وفي عهد الثقافة المضحلة الهزيلة التي عاشها المسلمون قرونا طويلة نبتت البدع والخرافات ، كما نبت ما يمكن أن نسميه عبادة الأولياء ، هنا مثلا شجرة مقدسة يلجأ لها الناس معتنقين أن المريض يجد عندها الصحة ، والعانس تجد الزوج ، والعاطل يجد العمل ، وهنا حجر يتلمس الناس عنده البركة ، ويترقبون منه فيضا من الخير والأمل .

عبادة الأولياء وثورة الإصلاح بنجد :

على أن كبرى هذه البدع هي ما أسميناه عبادة الأولياء ، وقد أولت الثورة التي قام بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية هذا الموضوع عناية كاملة ، فراح الشيخ يهدم القبور ، ويدفع الناس الى العودة الى عبادة الله وحده .

واذا كان هناك ولي لله من بين الناس ، أي رجل أقبل على الله وقبل الله منه ، فان هذا الرجل لا يدرك نفسه ، ولا يستطيع الناس أن يميزوه ، لا يعرف الولي نفسه لأنه دائما يتهمها بالتقدير ، وهو دائما خائف وجل ، وقد تتحقق له كرامة ، أو يستجيب الله لدعائه أو نحو ذلك ، ولكنه لا يتخذ ذلك دليلا على مكانة وصل لها ، انه يفهمه على أنه منحة وعطف من الله العلي العظيم ، وأعتقد أن شخصا ما ، لو بدأ يحس أنه ولي

كان ذلك بدء فساد ولايته ، لأن الإحساس بأداء الواجب كاملاً تجاه الله
نوع من التقس لا يقع فيه الأولياء ، فأى عاقل يستطيع أن يدعى أنه أدى
كامل الطاعة ؟ وقام بكل واجب تجاه الله تعالى الله بالكرامة ؟ وعلى هذا
فالولي لا يعرف نفسه ، وإذا جهل الولي نفسه مع أنه يعرف بشعده عن
العصيان وقربه الى الطاعة ؟ فكيف يعرفه الناس ؟ وربما كان عسياً في
سفر أو مطيعاً في رياء ، إننا نقولها بكل قوة ، إن الولاية يصل لها أناس
يعيشون في غمار الناس ، لا يعرفون أنفسهم ولا يعرفهم الناس .

ولكن العامة لم تخطر لهم هذه الأفكار على بال ، بل جعلوا مقياس
الولاية هلالة الثياب ، أو شرود الذهن ، أو العته ، وأحاطوا من رأوه
كذلك بأساطير تؤكد أنه شوهد مرة يطير في الجو ، أو أنه تنبأ بشيء فحدث ،
أو نحو ذلك ، وليس لهذه الأساطير من مرجع يعتد به ، الا الخيال أو
الدعاية التي يطلقها هذا المحتال أو يذيعها عنه أتباع أرادوا الثراء
على حساب خبل هذا الرجل وضعف عقلية العامة ، ويصبح ذلك الرجل بهذا
إلهاً صغيراً ، فإذا مات بنيت له القباب ، وبولغ فيما أذيع عنه من أساطير ،
ولا تكاد تخلو قرية من إله صغير يقدم الناس له ولأتباعه الذبائح ، ويقسم
به الأطفال ، وتقام له الموالد ، وهناك آلهة أخرى يمكن أن تعتبر آلهة
مناطق ، ومقرها المدن ، وتلك يهرع لها إذا نشر على الإله الصغير أن
يحقق الآمال .

ويمضى الزمن ولا يحقق هذا ولا ذاك أملاً ، ولكن الناس في غيهم
سأدرون .

تكفير المخالفين في الاتجاه الفكرى :

من الواضح أن الإيمان مقره القلب ، وأن من الصعب أن يدرك
إنسان خفقات قلب الآخر ، وبذلك وضع الاسلام المؤمن بمؤمن من أن يرمى
بالكفر ، فما على المسلم الا أن يعلن إيمانه ، أما حقيقة نواياه فلتترك لله
المطلع على السرائر ، وقد وضح القرآن الكريم والحديث الشريف هذه النقطة

ايضاحا سافيا ، قال تعالى « ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام نـست مؤمنا » (١) ، فبمجرد قول الانسان : لا اله الا الله محمد رسول الله ، يـنـبـت ايمانه ، وليس لأحد أن يدعى أن هذا غير مسلم أو ينسب له الذنـب .

ومن ذلك ما يرويه أسامة بن زيد أحد أبطال غزوة جهينة قال : لحقت أنا ورجل من الأنصار رجلا من جهينة ، فلما غشيناه قال : « لا إله إلا الله » فكف عنه الأنصارى وطعنته برمحي حتى قتلتـه ، فلما قدمنا المدينة بلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا أسامة أقتلتـه بعد أن قال لا إله إلا الله ؟ قلت : يا رسول الله ، انما كان متعوذا • (معتصما بها من القتل لا معتقدا لها) قال : أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم حقيقة ما به (٢) ؟ •

ذلك هو الاتجاه الاسلامى القويم ، ولكن بعض الفقهاء نسوا هذه المبادئ ، وفهموا فى الدين فهما خاصا ، وراحوا يرمون بالكفر كل من عارضهم ، ويقول الأستاذ الدكتور أحمد أمين (٣) عن الشيخ عليش ما يلى : هو شيخ من أصل مغربى ، شهرته فى تدينه وعصبيته ورميه الناس بالكفر لأوى الأسباب • وضيق أفقه ، وشدة غيـرته على الدين بالمعنى الذى يفهمه •

وقد سبق أن قررنا أن الجـمـهـرة الغالبة من الفقهاء جمدت عن مواصلة الاجتهاد وقنعت بتقليد السابقين من المجتهدين ، ولكن لم يخل عصر من العصور الاسلامية من مفكر مجتهد يهاجم التقليد ويسير فى الطريق القويم الذى يحقق أن الاسلام دين كل زمان ومكان • وقد تعرض هؤلاء المجتهدون للأسف الى حملات عنيفة شنـها عليهم الجامدون ، وبالنـجـ

(١) سورة النساء الآية ٩٤ •

(٢) الحكومة والدولة فى الاسلام للمؤلف ص ٢٥ •

(٣) زعماء الاصلاح ص ٢٨٨ •

الجامدون أحيانا في عنفهم حتى رموا المجتهدين بالكفر والزندقة ، لا لشيء الا لأن المجتهد خالفهم في رأى ، أو اقترح حلا لمسألة وقف هؤلاء منها جامدين .

وأصبح الرمى بالكفر شـيئا يسيرا ، وأصبح سباب المسلم ايمانه وهو أعز ما يملك أمرا هينا ، يمكن أن يحدث لإتفه الأسباب ، وقد عانى المجتهدون في جميع العصور هجوما سافرا حادا وتسلط عليهم الجامدون بتأييدهم العامة ، وتأييدهم السلطة التي كثيرا ما كانت الى الجمود أميل ، هذرا من الجانب المتطور أن يجرّمهم بتياره الصاخب ، ومن هذه الأسباب الثقافية ما روى أن الفقهاء في القرن الماضي ومطلع القرن الحالى كانوا يرون أن « كل شيء خارج عن المألوف كفر أو حرام أو مكروه ، فتحويل الميضة القذرة الى حنفيات حرام ، وذهاب للبركة . وقراءة كتب في الجغرافية أو الطبيعة أو الفلسفة حرام ، وليس الجزمة بدعة ، فان تحركت نفس صالحة للإصلاح ، خنقت دعوتها في مهدها ورُميت بالزندقة » (١) .

والشيخ محمد عبده يسأل عن حكم لبس المسلم القبعة ، فيفتى أن لبسها اذا لم يقصد به الخروج من الاسلام والدخول في دين غيره لا يشعد كفرأ ، واذا كان لحاجة أو دفع مضرة كحجب سواراة الشمس لم يكره ذلك ، وقد تعرض الشيخ محمد عبده بهذه الفتوى الى حملات قاسية شنّها عليه العلماء ، وهيجت الصحف عليه العامة والغوغاء .

وفي إندونيسيا — في فترة من المفترات — كان استبدال الزى الأوروبى (بالسارونج) يعرض الشخص الى أن يرمى بالتشبه بالكفر والتمرد على الاسلام .

ويؤلف الأستاذ عبد الوهاب النجار كتابه القيم « قصص الأنبياء »

فيؤلف الأزهر لجنة لدراسة الكتاب وبيان مدى صلاحيته ، وتصدر اللجنة تقريراً يجيء فيه :

« ونحن والحق يقال في حيرة شديدة من تصرف الأستاذ مؤلف الكتاب : اللهم إنا نبرأ إليك من مثل هذه الآراء •

• « نستغفرك اللهم ونتوب إليك سبحانه هذا بهتان عظيم •

« ولقد لحقنا الدهشة من ادعاء المؤلف أنه لم يقف على تلك الأحاديث ، وهذا الاحتمال لا يتصور من مثل فضيلة الأستاذ ، بل لا يصح أن يصدر من مسلم » •

وقد ردَّ الأستاذ عبد الوهاب النجار على نقد اللجنة ردوداً فيها قوة وحجج بالغة ، ونشر الكتاب وأقبل عليه القراء بشغف وتقدير ، أما الذين هاجموه فكان مآلهم النسيان •

وحدث الشيخ محمد مصطفى المراغى وهو شيخ للأزهر أنه كانت تعرض له مسائل يرى ضرورة الاجتهاد فيها ، فيعمل الفكر حتى يصل الى حل ملائم لها ، ثم يخشى أن يعطى هذا الحل على الناس على أنه من اجتهاده وبحته مخافة أن يسلب العلماء اسلامه منه ، ولذلك كان يلجأ الى بعض خواصه ، فيعطيههم الحكم ويسألهم أن يبحثوا في آراء المتقدمين عما يدعم هذا الرأي من قريب أو من بعيد ، حتى يظهَرَ الرأي منسوباً الى أحد هؤلاء المتقدمين بدل أن يئْتَسَبَ الى مجتهد حديث •

عجبا ! ! كيف لصغار الفقهاء المتقدمين وكبارهم أن يجتهدوا ، ويحرم الاجتهاد على المراغى وأمثاله مع ما لهم من ايمان عميق واطلاع واسع ، وفكر ثاقب ، وغير ذلك من الصفات التى كثيرا ما ترجح صفات بعض المتقدمين ؟

والذى عمله الامام المراغى عمل نحوّه كثير من المجتهدين المعاصرين ،

فمنهم من توقف عن الاجتهاد ومنهم من أخفى اجتهاده خوفاً على عرضه أن يوان وعقيدته أن تهافتهم ، وقد نبههم عن ذلك خطر كبير اذ بقيت أسئلة كثيرة دين أن تعيد لها جواباً (١) ، هناك البنوك والمعاملات معها من ايداع أو اقتراض ، وهناك الميراث والأحكام ، وهناك حكم سيام العمال الذين يحملون الحجارة الثقيلة ويرتفعون بها عدة طوابق في السمات الشاهقة في أيام رمضان ، وهناك -- كما سبق القول -- اباحة الطلاق دون قيد ، واباحة تعدد الزوجات دون شرط ، وغير ذلك من الأشياء التي تحتاج الى تفكير أو اعادة النظر تبعاً لتجدد الظروف والأحوال ، ولكن العلماء صامتون ، انهم يرون العامل في العمارات يأكل ويشرب علناً مقرر استحالته الصوم مع الجهد الذي يبذله ، ومقرر ضرورة العمل لكسب القوت ، إن العلماء يرون ذلك ، ويتركون الرجل يفطر عاصياً ، ولو اجتهدوا وقاسوا هذا العمل بالسفر فربما أباحوا له الفطر ، والقضاء في الأيام التي لا يعمل فيها ، وهذا يجعله يفطر وهو طائع بدل فطر فيه روح العصيان والتمرد ، ولكن بعضهم كما قلنا لا يؤمنون بالاجتهاد ، والآخرون يؤمنون به ولكنهم يؤثرون السلامة .

تحويل المذاهب بالتعصب من نعمة الى نقمة :

سبق أن قررنا أنه منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كان التفكير يختلف حول بعض المسائل ، وقد كان لعمر رأى غير رأى الرسول في مسألة أسرى بدر وغيرها ، واختلف رأى عمر مع رأى أبى بكر في بعض المسائل أيضاً كما اختلف على مع عمر ، وكان الاختلاف في الحكم راجعاً الى الاختلاف الطبيعي في العقول ، أو الاختلاف في فهم الآية أو الحديث ، فمثلاً يقول الله تعالى « فان لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث » (١) . وقد تبع ابن عباس صريح اللفظ فأعطى الأم الثلث سواء أكان مع الأبوين أحد الزوجين أو لم يكن ، وقال الجمهور ان القاعدة العامة هي ألا تفصل

(١) سورة النساء : الآية ١١ .

الإنبياء المذكورين لها في الجهة والقرب . ولذلك لم يتركوا الآية ، فقالوا :
إن للأئم ثلاث الباقي عند وجود أئمة الزويعين ، ومنهم هذا وهو من
رأى ، وأحيانا كانت توجد آراء ثلاثة ، إن أكثر .

وقد برهن السابقون من المسلمين في العصر الزاهر على سعة أدق ،
وانفساح صدر ، كان كل منهم يحترم اجتهاد الآخر احتراما كاملا ، ففي
خلافة عمر يقضى على في مسألة يرى عمر فيها رأيا آخر ، فلما قيل لعمر :
لم لا تقضى برأيك والأمر لك ؟ أجاب : إننا نقضى بالرأي ، والرأي مشترك ،
ولست أدري أي الرأيين أحق عند الله .

وفي الآية السابقة يسأل ابن عباس ابن عمر : كيف تعطى الأم ثلاث
الباقي والقرآن يقرر لها الثلاث ؟ فيجيب ابن عمر : هذا رأيي ولك رأيك .

وفي عصر الأئمة اختلفوا كثيرا ، وانتفقوا كثيرا وكان كل منهم يقرر
الرأي الذي يؤديه إليه اجتهاده دون أن يهاجم الامام الآخر أو ينال منه ،
وتكوّن للمسلمين مجموعة من الآراء قبل عصر الأئمة وفي خلال ذلك العصر ،
ولا نزاع أن هذه الآراء نعمة كبيرة للمسلمين ، انها تثقّد لنا ذخيرة واسعة ،
انها نتاج أفكار كدّت وجدّت لتقدم لنا أطيب النتائج ، فما على المسامين
الا أن يستعرضوا هذه الآراء التي بنيت على اجتهاد حصيف ليختاروا منها
ما يلائم حياتهم ويتناسب مع ظروفهم .

وجاءت عصور التقليد أو عصور الظلام ، وإذا كان المجتهد يُجلّ
اجتهاد الآخرين . فذلك لاداركة ما يستأزمه الاجتهاد من كدح ذهن وسعة
اطلاع ، انه كالقائد البطل يُجلّ خصمه القائد البطل ، ان المجتهد يأخذ
الحرية لنفسه وهو لذلك يدرك قيمتها ويمنحها الآخرين ، أما المقلد فقد
عاش على حساب المائدة التي أعدها شيوخ مذهبه ، ولم يرجع للقرآن

أجاب المضيف : شافعي .

— وكيف نصلي ، يا شافعي ؟

... تاء ، فناء البلدة يتبعون مذهب الشافعي وكل السكان كذلك .

— ولكن أنا وأنت ابنا علي خاله ؟

— إني أصلي خلفا ، يا شافعي ، أم بعد من هذه الصلاة ؟

— هل أنت متأكد أنك مسلم مع ربيع وأنت في الرحمة ، أم انتفى
كالشافعية بتمجرة أو بغيره من سنة ؟

— أنا غير متأكد أنه مسح ربيع وأنت ؟

— إذا فصلاتنا باطلية .

وبدأ الحديث همسا كما قات ، ولكنه اشتد وانتهى بانسحاب المضيف ،
وتساعل الناس ، ما حدث ، وغمدت الفتنة لحامل واحد هو اهتمام أهله
الريف ، باعتزام المضيف والتجاوز عن هنائه .

هنا عقلان جامدان ، لم يستطع المضيف أن يصلح الجمعة ولو —
على أثني الاحتمالات — قضاها ظهرا بعد ذلك ، ولم يستطع المضيف أن
يقترح ذلك عليه ، انه الجمود وقصر النظر أمام المشكلات الاجتماعية ،
وأمام حق المجتمع على الفرد ، ولكنها صورة من صور المحن التي عادت
بالضرر البالغ على العالم الاسلامي بسبب اختلاف أتباع المذاهب .

هناك كذلك أهل السنة والشيعة ، وطالما اشتعلت الخصومات
وقامت المنازعات بين هاتين الطائفتين الكبيرتين ، ولا نزاع أن كثيرين من
المغرضين وأعداء الاسلام انتهزوا فرصة هذا الخلاف المذهبي ودخلوا
يوسعون هوته ويباعدون بين الشقيقتين ، ولو أنصف هؤلاء وأولئك
لأدركوا أنهما فرعا آرومة واحدة ، ولكن للأسف كان الخلاف يشتد أحيانا

حقير بين المسلمين بمسيحي أكثر من ثقته بشيعة ، ويثق الشيعة بيهودى أكثر من ثقته بربما من أهل السنة ، مع أن أهل السنة والمسيحية يتفقون فى أنظار الأمور ، يتفقون فى دراسة الإسلام ذلها وقوانينه وتشرياته ، تارة إذا يفسون ذلك ويحطون به ، فإلّا الخلاف ؟

وفى إندونيسيا عصبية من نوع آخر ، عصبية ليست مذهبية ولكنها وثيقة الشبه بالعصبية المذهبية ، فالأغلبية الساحقة من مسلمى إندونيسيا تتبع مذهب الامام الشافعى ، وبهذا نجت إندونيسيا من الاختلاف المذهبى ، بيد أنها منيت بخلاف من نوع آخر ، ذلك هو قيام الأحزاب والجماعات الاسلامية التى يقرب مجموعها من عشرة ، ويمكن القول إن الوثام غير تام بين هذه الطوائف ، وان النفور كثيرا ما ينتشر بين تابعيها ، ومن مظاهر ذلك النفور أن يئنزل المصلون فى أحد المساجد خطيب الجمعة من فوق المنبر لأنه يتبع حزبا اسلاميا غير الحزب الذى يتبعه سكان هذه المنطقة ، ومن مظاهره كذلك أن يبدأ رمضان عند طائفة فى يوم ، ويبدأ عند طائفة أخرى فى يوم آخر ، وقد حدث فى سنتين متتاليتين وأنا بأندونيسيا أن يصبح الصباح وأتباع هذا الحزب صائمون وأتباع حزب آخر مفطرون لأن الصوم عندهم يبدأ فى اليوم التالى . أما الخلاف بين هذه الأحزاب فى المشاكل الداخلية والخارجية فكثيرا ما يشتد حتى تتسع الهوة بين طوائف المسلمين ، والعجيب فى الأمر أن كل هذا الخلاف يتم باسم الاسلام واسم مبادئ الاسلام .

تشبث بالقديم :

فى بعض الأحوال أتيح لمنطقة من مناطق العالم الاسلامى أو لقطر من أقطاره حاكم أو زعيم فيه رغبة فى الإصلاح الاجتماعى أو الثقافى أو النهضة بالمؤسسات الفكرية بوجه عام .

وكان المفروض أن ينتهز رجال الدين هذه الفرصة فيستجيبوا لهذه الإصلاحات ، وتندفع المؤسسات الاسلامية الى الأمام ، ولكن الذى حدث

أن بعض رجال الدين رفضوا اتجاهات الإصلاح في حالات كثيرة وتمسكوا
بالقديم ، وفي حالات كثيرة أنشأ المصلحون السياسيين مؤسسات جديدة
توافق اتجاهاتهم ، وتركوا المعاهد والمؤسسات القديمة تنطك في نوم عميق ،

أراد الحكام أن يصلحوا الأزهر ، وأن يشمل الإصلاح قاعات
المحاضرات ، ومرتبات المدرسين ، وأمانات الطلاب ، ونظم الدراسة ،
وموادها ، وطرقها ، أو بعبارة أخرى أن يتطوروا به مع الزمن ، ولكن
رجال الأزهر في ذلك العهد أو رجال الدين ثاروا وأبدوا سخطهم فتركهم
الحكام وتركوا أزهرهم وراحوا ينشئون المدارس الابتدائية والثانوية ،
والعالية ويؤسسون الجامعات ، وأدخلوا في هذه وتلك ما عنّ لهم من
إصلاح وتطور .

وكانت المحاكم الشرعية هي المحاكم الوحيدة في مصر ، وأراد الحكام أن
يجعلوا قانونها حيا متطورا ، فأشاروا بتأليف لجنة تستعرض القوانين
الإسلامية للمذاهب كلها وتختار منها أصلها وأكثرها ملاءمة للزمن وتتطور
بها عن طريق الاجتهاد لتسد حاجات العصر ، إذ كما يقول الشيخ المراغي
« لم يكن الفقه الحنفى وحده بصادق حاجات المجتمع ، وحاجة الحكومات
والدول في التشريع والتنظيم » ولكن الفقهاء رفضوا ذلك الاتجاه ، وقاموا
بالاجتهاد ، وأصروا على أتباع مذهب أبى حنيفة وحده لأنه مذهب الخلافة
التركية ، فترك الحكام المصريون المحاكم الشرعية على حالتها ، وأسسوا
المحاكم المدنية ، وقصروا المحاكم الشرعية على النظر في الأحوال الشخصية
كالزواج والطلاق والميراث ، ثم بعد فترة ألغيت هذه المحاكم الشرعية
نهائيا وضمت اختصاصاتها وختم قضاتها الى المحاكم المدنية .

ولم يلتفت رجال الدين الى البنات وأهملت المرأة اهمالا تاما كما
سبق أن ذكرنا ، ورأى الحكام أن اهمال نصف الأمة يعود على الأمة كلها

بالضرر ، وأن عدم تربية الأم ينشئ جيلا من الرجال بعيدا عن الكمال ، ولم تتحرك المعاهد الاسلامية لتعليم البنات فأنشأ الحكام المدارس للبنات وشجعوها على التعليم ، وعندما بدأ الأزهر يفكر في فتح أبوابه للبنات كانت مصر تعج بالطبيبات والمدرسات والموسيقيات وغيرهن ممن تخصصن في الدراسات المختلفة وأثبتن نجاحا ظاهرا كما سبق القول •

والحكم الاسلامى حكم شورى لمصلحة الحكوميين بلا نزاع ، وكان على الفقهاء أن يتطوروا بدراسة نظم الحكم حسب الظروف والأحوال ، وأن يبيّنوا مَنْ هم أهل الحل والعقد ، ويبينوا طرق اختيار الخلفاء ، ولكم لم يفعلوا ، فاقتبس الحكام هذه النظم من أوروبا • وقد حدث مثل هذا أيضا بالنسبة للقوانين ، فان توقف الفقهاء عن الاجتهاد أوجد فراغا في عالم التشريع ، فاضطر الحكام الى اقتباس القوانين من بلجيكا وفرنسا ، والعجيب أن الفقهاء قد يثورون على الحكام لاقتباسهم القوانين الأوروبية ، وطالما صاح الفقهاء في وجه الحكام بالآية الكريمة « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » (١) ، وتجاهل الفقهاء أنهم هم الذين لم يشرحوا ما أنزل الله ، وأنهم هم الذين أهملوا الدراسة والبحث والتفكير ، ليحصلوا من المصادر الاسلامية على ما تحتاجه الدولة من قوانين •

ونحن نلث الآن لتطبيق الشريعة الاسلامية ، وليتنا نحقق هذه الغاية ، وقد كان الزمام في أيدينا فلما غفلنا عنه ، والتقطه سوانا بدانا نصرخ لاستعادته في العهد الحاضر عندما صح المسار وتيقظ رجال الدين ، وعلت كلمة الحق في عصر الحرية والنور • •

وقبل أن نطوى الحديث عن ذلك الموضوع نقول بقوة وإيمان ان حديثنا عن الفقهاء لا يمس من قريب أو بعيد هؤلاء العباقره المجتهدين من الفقهاء في الماضى والحاضر ، أولئك الذين أحسنوا لدينهم وللمسلمين شيما كتبوه

(١) سورة المائدة الآية ٤٧ •

وما أبدوه من آراء ، لقد كان هؤلاء قادة أحرارا ، وقد لاقوا من معاصريهم من الفقهاء كثيرا من العنت كذا سبق القول ، إننا في هذه السطور نذكر أسماء بعضهم تيمنا وطلباً للخير والبركة ، واعترافا بما أقدنا دن بهوثهم وآرائهم وسيرتهم ، إن منهم هذه الأسماء اللامعة : الشزائى — ابن تيمية — ابن القيم — عز الدين بن عبد السلام — محمد بن عبد الوهاب — حسن الحدوى — محمد عبده — الرافى — شلتوت — عبد الجليم محمود — آل الندوى — المودودى — عثمان دانفديو — همكا وعلماء الجمعية الهندية بإندونيسيا ، وكثيرون سواهم ينتفون إجتاف الأقنار الاسلامية .

ضلالات عقائدية أضحفت العالم الإسلامى

في فترات الضعف التى مر بها تاريخ المسلمين مئى العالم الاسلامى بجماعات من أعداء الاسلام عجزوا عن مقاومته وهم خارج دائرته ، فتظاهروا بالدخول فيه ليحاربوه من الداخل فذلك أيسر لهم وأحرى ألا يثير ثائرة المسلمين ضدهم ، وكانت حربهم هذه المرة حربا عقائدية فنفتوا سمومهم ونشروا ضلالاتهم متظاهرين بأنهم يحققون الحق وينيون السبيل ، وقد تكلمنا بافاضة عما فعله مدعو التشيع في هذا المضمار (١) في عصور الاسلام الأولى .

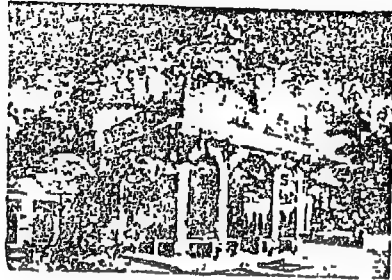
وهناك نوع من الضلال العقائدى لا يزال قويا ، ولا يزال له دعاة وأتباع يعدون بالآلاف والملايين ، ويكثر هؤلاء في شبه القارة الهندية ، ويعملون جاهدين على نشر معتقداتهم في مناطق مختلفة من العالم وبخاصة منطقة الشرق الأقصى ، وهؤلاء أيضا مسلمون في أصل تفكيرهم ، ولكن ألوانا من الانحراف دفعتهم الى الانحراف ، ثم أصبح الانحراف أساسا لذهبيهم وأفكارهم ، وسنعرض من هؤلاء نموذجين أحدهما عن أتباع الشيخ « معين الدين شيسى » والآخر عن الأحمدية (القاديانية) .

(١) الجزء الثانى من موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الاسلامية للمؤلف ص ١٥٠ — ١٦٦ من الطبعة الثانية .

معين الدين شيبسى وباب الجنة :

فمن أتباع « معين الدين شيبسى » اكتفى بنشر وثيقة مهمة يقوم هؤلاء الأتباع بتوزيعها في مختلف الأقطار الإسلامية بالشرق الأقصى، داعين الناس للحج الى الضريح المقدس الذى يثوى به الشيخ ، وقد أرسلت نسخة جمّة من هذه الوثيقة أو الدعوة الى اندونيسيا عندما كنت هناك ، وأرسلت وزارة الشؤون الدينية نسخة منها لى لأرد على ما جاء بها . فكتبت ردا مفصلا على هذه الخرافة وقامت الوزارة بطبع هذا الرد وتوزيعه ، ويكفى هنا أن أنشر هذه الوثيقة بلغتها الأوردية والإنجليزية ، وأن أدون ترجمتها العربية ، وسيرى القارىء مقدار ما تحويه هذه الوثيقة من ضلال ، وقد كان الانجليز إبان احتلالهم للهند يؤيدون هذه الحركات ويمدونها بالمال ، ويبدو أن هذه الحركات لا تزال تجد من حكومة الهند التشجيع والتأييد :

وفيما يلى هذه الوثيقة •



ما یزید منہ جیسا کہ اخیر حقیقی الخاوی نے یہ مقالہ لکھ کر دیا
گندمی برہنہ فافافہ جیستہ
کمال منزل جیستہ می گجستہ و گجستہ
برہنہ جیستہ جیستہ جیستہ جیستہ

عُزْنِ مَبَارَكُ

بروزِ دُکِکِ ہونے والا ہے۔ کے نام ہے
دیکھنے پر ہرگز وہ خدا ان کے نام سے

بڑا دیکھنے والا ہے اور اس نام کا خواجہ
تجلیاں ہیں، شمس و شام کا خواجہ

تیتہ ت مر، الساء العربیہ نو، درختہ الفیضہ، بحیرۃ تہذبات حیرتانی، مرقۃ خانیہ، ص ۱۰۱

و اما یہ کیا ہوا کرتا مال، کچھ تو گیسو یا مٹے کا کھڑکھڑ سے نہ تو قیمت پتا رہے اور قیمت پتا رہے، تو یہ تو نہ بیس، نہ تیس، نہ چار سو، نہ پچاس کے
 سخت یا نہ ہرگز کے نہ حد حد سے کہ یہاں کیا مال ہو کر رہے، اور غرضات و احوال میں نہ انفرادی نہ اجتماعی نہ عین نہ غیر میں۔

۱۰ تا تک جو ترجمہ سر محمد امجد علی صاحب نے کیا کا دامن

قیامت کے پہلے چھوٹے بڑی انبیا کی گفتگو

[illegible]

حضرت قزوینی و ابن عربی و شیخ سهروردی

حقائق: آزاد و متنبیل جو دیکھ کر گھبرا جاتے۔ ان چیزات کا جو ہم نے انہیں دیکھا ہے وہ انہیں اپنے دماغ کی تصویر کشی میں مضبوطی دیتا ہے۔

نہا یا ایں شب بیکون: انمغوغہ اور غم سے
وقت سے روز: زمین کنیر حبشی کا

[illegible]

(This year U.S. will be celebrated from 2nd to 7th February 1957

SPECIAL KHAWAJA URS FAIR

The day of Khawaja URS Fair is drawing near. With my best Dua and good wishes I am wishing you and your family on this auspicious occasion.

There is a good arrangement in my house for Khatir, lodging with latrine and all kinds of facilities are given to the visitors free, following Darul Uloom family. Moreover there is a Pantry system in my house.

This year the Urs Sharaf of Sultanul-Hind Hazrat Khwaja Mohammad Qasbi (R. A. Garb Nawaz) will be held from the 2nd February to the 7th February 1937 equivalent to the Islamic year 1355 Rajab to the 6th Rajab 1356 Hijri.

On this Urs the Jannat Door or Khwaja Sahib's Rouza Sharaf will be opened and it will remain opened for 6 days continuously. By this time all the devotees who are present in the Darbar enter in the Jannat Darwaza and make Towab 7 times walking around the Rouza Moharak at the Hajrat Jaiz Mazraa. It is said that people who will enter in this Door will also be able to pass through the Door of Jannat after their death.

Moreover it is the great interest of all devotees of Allah who intend to perform Hajj but unable to do so owing to the adverse pecuniary circumstances or due to some other cause the time of Hajj is over, they may attend Urs Fair of Khwaja Sahib and attain much benefit performing Hajj.

Thus a good number of people assemble together during this great festival, make Towab perform Zikr and console their hearts with full hopes and much satisfaction.

It seems that all troubles taken in the name of Khwaja Sahib on journey are changed into peace and tranquillity.

So those who could not attend the last Urs of Khwaja Baba it is really a golden opportunity for them to perform Zikr and get their desires fulfilled.

On the sixth day of Urs the anniversary Fateha and 'Qul' are performed and on the sixth day of Rajab 'Bata Gosal' is celebrated.

So if you or anyone of your kith and kin intend to visit the holy Shrine during this Urs Fair kindly inform me with a letter or a telegram 4 or 5 days before your starting so that I may make all necessary arrangements for your accommodation.

In case you are unable to attend on this blessed occasion for some special reasons, you may take part in Fateha Sharaf by sending whatever amount you can afford to send as Nazar, Niaz, and offerings for Koza Khani, Maled Shareef, Fateha, etc.

Please mention your clear and full address so as to enable me to send you Tobaruk and Doanama. Please circulate my addresses to those who are willing to visit Ajmer or send Nazar and Niaz.

At the time of correspondence please write my full address as well as postage. Just after Fateha come Tobaruk and Doanama are sent to the respective senders.

I am performing prayer and making special Dua for you and your family on these days for your welfare, success in business, attained position, ever lasting health, sound health, long life, peace and prosperity. (Ameen)

Please note.—Take my address card with you while you are coming down at Ajmer and show this card at Ajmer Station so that no body may adopt any unfair means.

Yours ever Donge,

SAMEBZADA SYED ZIAUDDIN CHISHTI

S/o LATE HAJI SYED JALALUDDIN

Gadduashan Khanqah-e-Chishtia,

KAMAL HANZIL, CHHATEL GATE

Dargah Sheroh, P. O. Box No 71.

A J M R R (India)

Amerah Printing Press, Ajmer.

وترجمتها العربية هي :

عرس مبارك

« أصبح قريبا ذلك اليوم الذي حدث لافتتاح العرس المسمى المبارك ، ولأننا عميق الأسرار الشريف لذلك الهند حضرة السيد مدين الدين شيبستى ، وأنتهز هذه الفرصة لأدعوك وأدعو عائلتك لحضور هذا الافتتاح وحذا العرس ، وبهذه المناسبة قد قمت باستعدادات واسعة لأضيء لك ولأسرتك ولجميع الزائرين ضيافة بمنزلى تشمل تقديم المكان والطعام ، وسيستمر العرس من اليوم الثانى الى السابى من شهر فبراير سنة ١٩٥٧ (١ - ٦ من شهر رجب سنة ١٣٧٦ هـ) . »

« وفي هذا العرس سيفتح « باب الجنة » المؤدى الى الروضة الشريفة ، وسيظل مفتوحا مدة ستة أيام ، وسيباح للمؤمنين والمريدين أن يدخلوا هذه الجنة ، وأن يقوموا بالطواف سبع مرات حول الروضة الشريفة كما يفعل الحجاج فى مكة المحظمة ، وهن المأثور أن هؤلاء الذين سيعبرون باب الجنة الى الروضة سيفتح لهم أبواب الجنة بفتح موتهم . »

« وأخبر من ذلك فان أهباب الله الذين يفنون الحج الى مكة وتمنعهم ظروف خاصة من القيام بذلك ، يمكنهم أن يجيئوا لزيارة روضة الشريف ، وسيجوزون منحة عظيمة من هذه الزيارة . »

« وستفد فى أثناء هذا الاحتفال العظيم وفود كثيرة ، حيث يقومون بالطواف والزيارة ويملئون قلوبهم بالأمل والغبطة . »

« وكل آلام السفر التى يتحملها الوافدون لهذه الزيارة ستناث لهم أمنا وهدوءا وسكينة . »

انها الدعوة

هذه دعوة لا تحتاج الى تعليق طويل ، وانتم أن يعرفون النافذة النظر فيها وأن يحاول أن يفهم ما بين سطوحها . وأن يترك هذه الدعوة التى (م ١٦ - المجتمع الاسلامى)

عُقِدَتْ عن الطواف والروضة الشريفة ، وباب الجنة ، ولو أُتِيح لَاتِّبَاعِ
مَعِينِ الدِّينِ شَيْسْتَى أَنْ يَقُولُوا مَا فِي نَفْسِهِمْ لِأَعْلَنُهَا صَرِيحَةً ، بِأَنَّهُ لَا دَاعِيَ
لِلْحُجِّ إِلَى مَكَّةَ وَأَنْ فِي رَوْضَةِ الشَّيْخِ الْكُفَايَةِ ، وَلَا دَاعِيَ لِمَبَادِيءِ الْإِسْلَامِ
وَمِكْفَى أَنْ يَعْبُرَ الْمُرِيدُونَ بَابَ الْجَنَّةِ لِيُضْمِنُوا النِّجَاةَ يَوْمَ الْحِشْرِ ، وَلَكِنْ
هَؤُلَاءِ أَعَزَّتْهُمْ الشُّجَاعَةُ مِنْ جِهَةٍ ، وَأَرَادُوا خِدَاعَ الْجَمَاهِيرِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى
فَوَقَفُوا هَذَا الْمَوْقِفَ الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَى كُلِّ ذِي بَصِيرَةٍ •

القاديانية أو الأحمدية :

تنسب هذه البدعة إلى « قاديان » إحدى قرى إقليم البنجاب بشبه
القارة الهندية ، وتنسب أحيانا إلى شخص مبتدعها « أحمد » القادياني ،
فيقال « الأحمدية » •

وقد ولد غلام أحمد عام ١٢٥٢ هـ (١٨٣٩ م) من أسرة تنتمي إلى
الترك ، وهي في الأصل وافدة من سمرقند ، ولكن غلام أحمد أخذ ينسب
نفسه عندما بدأت دعوته إلى الفرس ويذكر أن أمه من سلالة الفاطميين •

وأسرة غلام أحمد كانت غنية تملك أملاكاً واسعة في « قاديان »
بالبنجاب ، ولكن أحد أجداده خسر هذه الأملاك في حرب ضد السيخ الذين
كان لهم نفوذ كبير في المنطقة ، وعلى أثر هذه الهزيمة طردت الأسرة من
قاديان •

وفي عهد سلطة الانجليز بالهند تمتَّعتْ صفةٌ مشبوهة بين الانجليز
وبين والد غلام أحمد بهقتضاها أعاد الانجليز لمرزا مرتضى والد غلام
أحمد أكثر ممتلكاته في نظير أن تقدّم هذه الأسرة خدماتها للانجليز ضد
الهند من جانب وضد المسلمين في كل مكان من جانب آخر ، ويقول غلام
أحمد عن رد هذه الممتلكات « ٠٠٠ ثم رد الله إلى أبي بعض القرى في الهند »
الدولة البريطانية « (١) » •

(١) كتاب التبليغ ص ٧٦ •

وعن الخدمات التي كانت الخيانة طابعها يقول غلام أحمد :

« دلّت الوثائق التاريخية على أن والدي وأسرتي كانوا من كبار المخلصين لحكومة الانجليز من أيام عهدهما ٥٥ وقد أقيم والدي في دار موكلة من خدامين فاروسا لمساعدة الحكومة الانجليزية في الثورة عام ١٨٥٧ وألقي على ذلك رسائل شكوى وتقدير من رجنال الحكيمية ، وكان أخي الأكبر (غلام قنار) بجوار الانجليز على جبهة من جبهات الحرب ضد الثائرين الهنود (١) »

وتلك خيانة خطيرة من هذه الأسرة ضد الشعب الهندي ، الذي كانت أساحة الانجليز تحصده حصدا خلال هذه الثورة ، وغلام أحمد يثبت أن أسلحة هذه الأسرة ورجالها تعاونت مع الانجليز ضد الوطن الذي تعيش به هذه الأسرة . ان هذه الكلمات تنبئ عن خيانة وتنبئ كذلك عن وقاحة وفجور ، فما كان أجدره أن يخفى هذه الأحداث المخزية ، ولكن الرجل الذي تقول على الله وحارب الاسلام ليس ببعيد عليه أن يحارب المواطنين ويتحدث عن هذه الحروب بهذه الروح المنحرفة .

ولنعد لحياة غلام أحمد لنذكر أنه تزوج مرتين ، وطلق الأولى التي انجبت له ولدين ، أما زوجته الثانية فجاءت بعد ادعاءاته الدينية ، ولذلك كانوا يطلقون عليها « أم المؤمنين » وقد انجبت له عددا من الأبناء .

وتأقت نفسه لزواج ثالث ، وحدد الفتاة التي أراد أن يتزوجها وأعلن أن ذلك قضاء الله وإرادة السماء ، وتحدى بذلك العالم ، وخابت نبوءته فلم يتزوج هذه الفتاة (٢) ، بل تزوجت سواه ، وكان ذلك كافيا لبيان ادعاءاته وأكاذيبه ، ولكن الذين يرحبون بالضلal كثيرين .

(١) كتاب البرية ص ٣ و ٥ .

(٢) أبو الحسن الندوي : القادياني والقاديانية ص ١٠٢ .

وكانت حياة غلام أحمد أقرب للفقير والفاقة بعد وفاة أبيه ، فلما بدأ دعواه انهالت عليه الدنيا من البسطاء والمخدوعين حتى انتقل بحياته الى الترف والنعيم ، بل الى الاسراف والبذخ مما أثار عليه بعض أتباعه .

وعرف شباب غلام أحمد بانحراف صحى ونفسى ، فقد مرض بأمراض الهستيريا والنوبات العصبية ، وكان يعارض استعمال الدواء للأمراض ، ويزعم أن ارادة الله ينبغى ألا تقاوم ، والدواء مقاومة لارادة الله بالمرض .

مراحل ادعاءات القاديانى :

إن المطلع على تاريخ هذا الرجل يرى أنه اتخذ عدة مراحل في ادعاءاته على النحو التالى :

١ — دعوة الاصلاح والتجديد وكان ذلك فى المدة (١٨٧٩ — ١٨٩١) وكان يزعم خلال هذه الفترة أنه مأمور من الله بإصلاح العالم ، والدعوة الى الاسلام ، وأنه يعمل لتجديد هذا الدين . وقد لاقى نجاحا عظيما خلال هذه المرحلة ، فالهند بلاد المعتقدات والخرافات والأساطير ، وهذا الرجل يدعى أنه ملهم ومأمور من الله ، وهذا رفع شأنه .

٢ — الادعاء بأنه المسيح الموعود ، وأنه جاء ليذك العقيدة الصليبية وليكسر الصليب ويقتل الخنازير .

وهذه الوعود الخلافة جذبت المزيد من البله لاتباعه ، وقد كانت هذه المرحلة بين سنتى ١٨٩١ و ١٩٠٠ .

٣ — وفى المرحلة الثالثة وصل قمة الادعاء فقد قال عنه أحد مريديه ، ان الميرزا غلام محمد مرسل من الله ، والايمان به واجب ، والذي يؤمن بالأنبياء ولا يؤمن به يفرق بين الرسل ، وقد طاب هذا الادعاء للميرزا فعندما حصل خلاف بين أتباعه أمامه حول هذه المرحلة صاح فيهم

« لا ترغعرا أصواتكم فوق صوت النبی » وقال فی كتابه « المسألة القاديانية ص ٢٨ » أنا نبی وفقا لأمر الله وأكون آثما إن أنكرت هذا ، وكانت هذه هي المرحلة الأخيرة من ادعاءاته وقد بدأت من سنة ١٩٠٠ حتى وفاته سنة ١٩٠٨ .

وقد وصل الى قمة الكذب والادعاء عندما ذكر مقارنة بينه وبين سيد الخلق وضّح فيها أنه رصل الى قمة الروحانية التي لم يَنكأها نبی قبله .

ومخافة انفضاض أتباعه عنه أعلن أن رسالته مؤيدة للإسلام لا ناسخة لشريعته .

وفيما يلي أهم معتقدات القاديانية :

— يرى القاديانية أن ميرزا غلام أحمد القاديانى مؤسس الحركة الأحمديّة هو المسيح الموعود والمهدى المسعود وأنه رسول الله يوحى إليه (١) .

— الآيات القرآنية التي تنص على أن محمداً خاتم الأنبياء وأن رسالته خاتمة الرسالات يؤولها القاديانية ، فيرون أن الذي ختم هو نبوة التشريع لا نبوة التجديد والدعوة (٢) .

— وبناء على هذا يدعى غلام أحمد أنه نبى يوحى إليه ، ويكلمه الله (٣) ، ومن الفاظه في ذلك : أنا على بصيرة من رب وهاب بعثنى على رأس المائة لأجدد الدين وأنور وجهه الملة ؛ وأكسر الصليب ، وأطفيء

(١) تحفة البغداد لمؤسس الجماعة في عدة أمكنة .

(٢) دعوة الأحمديّة وغرضها لمؤسس الجماعة ص ٢٩ — ٣٠ .

(٣) الاستفتاء لمؤسس الجماعة ص ١٦ .

نار النصرانية وأنا المسيح الموعود والمهدى الموعود ، من الله على بالوحى والإلهام ، وكلمنى كما كلم رسله الكرام (١) .

وقال الميرزا بعدم الجهاد للتحرر من الاستعمار ، وأوجب طاعة الحكومة البريطانية المحتلة وقال عنها ، انها أقامت الأمن وأظلتنا بظلمها (٢) ، وفسر قوله تعالى « وآويناها إلى ربوة ذات قرار ومعين (٣) » بأن الربوة هى السلطة البريطانية التى كانت لنا أمنا وراحة ومستقرا حسنا (٤) .

وهكذا جئيدت المراجع الأحمدية بصور من الضلالات الدينية والخيانات الوطنية ، ومات الزعيم دون أن يكسر الصليب كما وعد ، ودون أن يجعل الاسلام يعم جوانب الأرض كما تعهد ، ومع هذا لا يزال له أتباع يصدقون بالملايين ، ولا يزال هناك دعاة يحملون هذه الدعوة الى بقاع كثيرة من الأرض .

وربما احتاجت الأجيال الأولى فى صدر الإسلام الى دليل يبرهن على أن محمدا خاتم الأنبياء ، أما بالنسبة لجيلنا فقد برهنت الحياة العملية على ذلك ، اننا نستعرض الأنبياء والمرسلين فنجدهم متلاحقين مع فترات وجيزة بين هذا وذاك ، بل ربما وجد رسولان فى وقت واحد كما كان إبراهيم ولوط ، وكما كان اسماعيل واسحق ، أما محمد فقد انقضى على وفاته أكثر من أربعة عشر قرنا ، ولم يظهر فى خلال هذه الفترة الطويلة من تحققت رسالته أو حتى من يدعيها ، اللهم الا الخرافة التى جاء بها الأسود العنسى أو سجاح أو ذلك القاديانى ، وعلى هذا فكون محمد خاتم الأنبياء والمرسلين شئ حققته الحياة العملية وبرهنت عليه الأيام كما برهنت على سواه مما قال به محمد بن عبد الله .

(١) الاستفتاء لمؤسس الجماعة من ص

(٢) المودودى فى الميزان ص ١٩٥ .

(٣) المؤمنون ٥٠ .

(٤) الاستفتاء ص ٤٦ بالهامش .

أما الاسلام وكونه آخر الأديان ، فالسبب في ذلك أن هذا الدين حمل بين طياته أسباب خلوده ، إنه دين الدنيا والآخرة ، دين كل زمان ومكان ، وقد سبق أن أوضحنا هذا بمزيد من الشرح والبيان ، ودين كهذا ينظم حياة الفرد بالفرد وصلة الفرد بالمجتمع ، وصلة الفرد بخالقه ، دين متطور يستجيب لحاجات الناس في كل زمان ومكان في حدود مبادئه السمحة ، دين كهذا يحمل بين طياته — كما قلنا — أسباب خلوده ، وقد مرت القرون وستمر دون أن يجيء دين آخر ، وماذا سيحمل الدين الجديد للناس من عناصر لم يقدمها الاسلام للإنسانية ؟

ومع هذا فهناك هذه الضلالات ، وهناك سواها من الانحرافات التي يكثر انتشارها في البلدان التي لم تزدهر بها الدراسات الاسلامية بعد ، ومن واجب الحكومات الاسلامية والمصلحين المسلمين أن يعملوا جادين لإزالة هذه الضلالات ، ووقاية الفرد المسلم من خطرها وتحصينه بالفكر الاسلامي الصحيح ، ليكون نواة صالحة في المجتمع الاسلامي المنشود .

نهاية غلام أحمد :

توفي غلام أحمد القادياني في مايو سنة ١٩٠٨ ، وكان قد أجرى مباهلة مع مولانا « ثناء الله » فدعا كل منهما على الآخر ، وقد قبّلت دعوات مولانا ثناء الله فأصيب غلام أحمد بالطاعون ، ومات في لاهور ونقل الى قاديان حيث دفن في مقبرة يسميها أتباعه « مقبرة الجنة » وكان عمره تسعا وستين سنة .

القاديانية بعد موت غلام أحمد

الحكيم نور الدين :

كان من أتباع غلام أحمد مريد اسمه « الحكيم نور الدين » وكان أبعد في الضلالة من شيخه ، وهو الذى كان يهوى الأفكار والمعتقدات ويوحى بها الى غلام أحمد ، وكان غلام أحمد يعلنها بعد أن عرف سذاجة الكثيرين من أتباعه ، ولمكانة الحكيم نور الدين من الدعوة وصاحبها تولى قيادة هذا الإلثم بعد موت مؤسس القاديانية ، وقد ظل هذا فى منصبه حتى توفى سنة ١٩١٤ •

الميرزا بشير الدين محمود :

هو ابن غلام أحمد ، وقد استخلفه الحكيم نور الدين قبل وفاته ، وبعد وفاة نور الدين تولى بشير الدين وكانت سنة خمس وعشرين سنة •

شعبتان :

ولم تلبث هذه الحركة الضالة أن انقسمت إلى فرقتين :

١ — شعبة « قاديان » ويتزعمها الميرزا بشير نور الدين سابق الذكر ، وهى تسيّر سيرة الزعيمين الأولين وتقرر بوضوح نبوة غلام أحمد ، وفى هذا يقول ابنه : لقد اعتقدوا أن كنوز الله قد نفذت ؛ ما قدروا الله حق قدره ، انكم تتنازعون فى نبي واحد ، وأنا أعتقد أنه سيكون هناك ألف نبي بعد محمد « (١) •

٢ — شعبة « لاهور » ويتزعمها محمد على اللاهورى ، من زعماء هذه الحركة ، وكانت هذه الفرقة لا تقول بنبوة الميرزا غلام أحمد ، ويؤمنون

بأنه المسيح الموعود ومجدد الاسلام والمهدى المنتظر ، ولم يكونوا مدفوعين لهذا الاتجاه احتراما للاسلام الحنيف ، بل كانوا يخافون أن تؤثر عقيدة النبوة في المسلمين الذين اتبعوا مخدوعين زيف هذه الحركة ، وتجعلهم ينفضون عن تأييدها ، فاتجاههم كان وسيلة للحفاظ على نجاح الحركة الزائفة ، ولكن ذلك لم يقبل من شعبة « قاديان » وبهذا يصف المفكرون هذه الشعبة بالمرافعة والنموض وخديعة المسلمين حتى لا ينفضوا عن الحركة بسبب مبالغة شعبة قاديان (١) .

والشعبتان قد مورسوا الغشالة والافتراء ، والانتهاك لأمر منوما محظور على المسلمين ، ولم تكن هذه الحركة الا قديما دين - جاسوس الاسلام ومهاجمة الوطنية ، والا تأييدا للانجليز في الهند وفي كل مكان ذهب له هذا الاستثمار ، فلما خدع بهذه الحركة عدد من الناس أصبح من أهداف الحركة جمع المال والثراء على حساب المخدوعين .

دراستى في الأزهر

في أحاديثى عن الأسباب التى أضعفت المجتمع الإسلامى وتنسب للدين ، ينبغى أن أقدم دراسة « شاهد عيان » فأقدم صورة دقيقة لحياتى بالأزهر ، فانها ستساعد على فهم هذا الموضوع مساعدة كبيرة . وأبدأ بأن أذكر أن العالم الاسلامى كله يهتم بالأزهر اهتماما كبيرا ، ذلك المعهد التقليد الذى خدم الدراسات الاسلامية ، واللغة العربية أكثر من ألف عام ، ولا يستطيع باحث يتحدث عن المجتمع الإسلامى أن يتخطى الأزهر دون أن يتحدث عنه قليلا أو كثيرا ، وإذا أهمله بعض الباحثين لسبب أو لآخر فإننى لا أستطيع إهماله وقد قضيت فيه أزهى فترة في عمر الانسان .

وأستطيع أن أقرر بادى ذى بدء أنه لو لم يكن الأزهر موجودا لتغير تاريخ المسلمين تغيرا كبيرا ، وجسبك أن تدرك أنه كان الملجأ الوحيد للعلم

(١) حسن عيسى عبد الظاهر : القاديانية : نشأتها وتطورها ص ١٥٩ — ١٦٤ باختصار وهذا الكتاب مفيد في موضوع القاديانية فقد عاش مؤلفه في جو من نشاط هذه الحركة ودرسها عن قرب .

في عصور الظلام الحالكة الطويلة التي مرت بالمسلمين ، لقد امتد الظلام اليه بلا شك ، ولكنه والحق يقال ظلت فيه شعلة من النور تغالب هذا الظلام وتقاومه ، وقد لعب الأزهر دورا كبيرا جدا في حياة المسلمين في جميع الأقطار ، ان مشعل النور الذي يقود المسلمين في اندونيسيا وبوجههم ، مصدره الاندونيسيون الذين تعلموا في أروقة الأزهر أو تفقهوا على شيوخ أو كتب وثيقة الصلة بهذه الأروقة ، وان انسياب الاسلام الى قلب افريقية كان أكثره على أيدي إفريقيين أو عرب عاشوا في رحاب الأزهر وتلقوا العلم فيه ، وقل مثل ذلك في جميع الأقطار الاسلامية دون استثناء .

أما فضل الأزهر على مصر فقد شمل الناحية الثقافية والناحية السياسية ، لقد كان الأزهر هو المدرسة الموحيدة بالعالم الاسلامي تقريبا حتى مطلع القرن التاسع عشر ، فأى علم وأية ثقافة وأية معرفة منتظمة شاملة كانت لا تتبع إلا من الأزهر .

وكان الأزهر يحل مشكلات الطلاب المصريين والوافدين بسرعة هائلة ، فما ان يصل الطالب الى القاهرة ويتجه للأزهر حتى يجد حلا لكل ما كان يتخوفه من مناعب ، انه يجد في الأروقة حلا لمشكلة السكن ، ويجد في « الجراية » حلا لمشكلة الطعام ، ويجد في الحلقات المنتشرة في أرجاء الأزهر حلا للمشكلة العلمية .

وكانت الأروقة معدة لطلاب العالم الاسلامي كله ، فهناك رواق المنكرور ورواق جاوه ورواق الأتراك ورواق الشام ورواق المغاربة وغيرها من الأروقة التي جعلت الأزهر أشبه بهيئة أمم .

وللمصريين هناك رواق البخاروة والشراقوة والصعيدية والفيومية . وكانت هبات الناس لطلاب الأزهر كثيرة وموفرة من حين الى حين . ولا بدأت النهضة الثقافية في مصر وبدأ إرسال البعث الى أوروبا كان الأزهر هو المعين الذي اختير منه الطلاب للمعاهد التي أنشئت ،

والمبعثات التي أرسلت وبعد أن انتشرت المدارس بمصر وكثرت الجامعات ظل الأزهر يمثل المكان الوحيد الذي يلجأ له الفقراء والمعوزون فيجدون العلم والعون المادى وطالما خرج من هؤلاء عباقرة كانوا قادة للأمة ومصدر توجيه ومنبع عرفان •

وفي حياة مصر السياسية لعب الأزهر دورا عظيما ، فمنه انبثق الصوت الذى هتف بالاستقلال ، وتعد المستعمرين ، وكان منبره منبر مصر ، وساحته ملتقى القادة والزعماء وطالما زلزلت الاجتماعات فيه أقدام الطغاة وهزت كيانهم ، ولهذا كان كثير من المستعمرين يضطرون الى مهاجمته أو مهاجمة المقاومة فيه •

ضعف بعد قوة :

لقد لعب الأزهر أخطر دور في خدمة الثقافة الاسلامية واللغة العربية طيلة قرون طويلة ، ثم استكان للأسف لنوم طويل أغرق فيه أحيانا مما سبب أن تتفوق عليه بعض المدارس والجامعات المصرية حتى في الدراسات الاسلامية التى تخصص فيها ؟ لقد سارت دراسة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية والفلسفة الاسلامية والفقه الاسلامى والفقه المقارن والأدب العربى في الجامعات المصرية شوطا طويلا ناجحا أخشى أن يرجح اذا قيس بما في الأزهر اليوم من دراسات مماثلة ، وعندما فكر الأزهر في دفع زورقه للأمام لجأ الى أساتذة الجامعات المصرية ليعلموا به هذه العلوم ، ولكن جو الأزهر لم يسمح لهم أن ينهضوا بهذه الدراسات فيه نهضتهم بها في الجامعات المصرية ، فتوقفوا ، عن استمرار العمل ، وقد كنت شخصا واحدا من هؤلاء •

وأنا بطبيعتى الشخصية والثقافية عميق الصلة بالأزهر ، ولهذا فعندما أكتب عنه أكتب بحب ورفق ، وإذا انتقدت كان نقدى بناء ، وأنا دائما أرجئ أن يعود لهذا المعهد العريق رونقه وبهاؤه ، وفي السطور التالية وصف شاهد عيان لحقبة أمضيتهما بالأزهر ، وهى تعد من أنصر العهود الأزهرية

« كان بها من دقة في التعليم ودقة في الامتحانات ، ومع هذا فلننظر ماذا كان بها » .

لقد عشت في الأزهر تسع سنين ابتدأت وسنى حوالى خمس عشرة سنة ، وانقضت وأنا في الرابعة والعشرين وفارقت الأزهر بعد ذلك . ولكنى في الحقيقة ظللت متصلا به ، متصلا به بثقافتى وبأصدقائى وأقاربى الذين يتعلمون ويعلمون فيه .

وبمناسبة سننى في الأزهر أذكر أننى سئلت مرة في أوربا هذا السؤال :
ما أهم الأحداث والمفارقات التى حدثت لك بين الثامنة عشرة والرابعة والعشرين ؟

وسألت أنا بدورى : لماذا تقصدون هذه الفترة من العمر ؟

وتلقيت الجواب : انها فترة الشباب المضطرب : مجازفات ، رحلات ، رياضة ، حب ، أخطاء ، أزمت نفسية ، خيال ، أمل ، تردد ، إقبال ... وفكرت في هذه السن وفي حالتى وقتها « أجبت : لم تمر على هذه الفترة بعد » .

وقال محدثى بمكر . هل لم تصل بعد الى الثامنة عشرة ؟

قلت : لقد وصلت في حساب الزمن ، ولكنى كنت في هذه الفترة طالبا بالأزهر ، فلم أعرف المجازفات ولا الرحلات ولا الرياضة ولا الحب ولا الخيال ولا الأمل ... وانما عرفت ألفتة ابن مالك والمتون والشروح والحواشى ، وكنت طالبا مخلصا للعلم ، فكانت هذه الدراسات هى على الذى فتحه لى الأزهر دون أن يفتح لى بابا سواه .

رحمة الله على هذا الشباب الذى ذوى بين هذه الجدران !

ولنعد للقصة من أولها :

وأنا بطبيعة الحال لا أقصد بسرد موجز لدراستي في الأزهر أن أروى قصة شخصية ، فمن حق القارئ ألا أشغله بأشياء خاصة بي ، ولكنها قصة الأزهر كما رأيته وراآه معي الآلاف من الطلاب ، أو بعبارة أخرى هي سبب من الأسباب التي أدت الى ضعف المجتمع الاسلامى .

ولعل من حقى أن أقرر أن معرفتى بالأزهر كانت أعمق من معرفة الجمهرة الغالبة من الطلاب به ، وسبب ذلك أننى كنت طالبا حريصا الحرص كله على العلم ، وكنت أتمتع بجانب من الذكاء لا بأس به ، ولأضع لك هذه الحقائق فى أرقام أدق بيانا وايضاها ، أقرر أننى لا اذكر أننى تخلفت درسا واحدا ولا يوما واحدا طيلة هذه السنين ، وأننى كنت أول الناجحين فى جميع الامتحانات التى دخلتها بالأزهر ابتداء من الفرقة الثالثة الابتدائية حتى أنهيت القسم الثانوى ، أما فى الفرقة الأولى الابتدائية فكنت الثالث ، وكنت الثانى فى الفرقة الثانية ، ثم أصبحت الأول بعد ذلك ، ويدخل ضمن هذه الامتحانات السبع التى كنت أول الناجحين فيها امتحانات الشهادات العامة على جميع المعاهد الأزهرية فى القطر كله ، وكان يتقدم لامتحان هذه الشهادات عدة آلاف من الطلاب .

لقد منحت الأزهر كل نفسى ، وأقبلت عليه اقبالا نادرا ، وكنت موضع تقدير الشيوخ وحبهم ، فماذا منحنى الأزهر ؟ وماذا منحنى هؤلاء الشيوخ ؟ وماذا لحقنى من الحرمان بسبب التحاقى بالأزهر ؟

الجواب فى ايجاز تام غير مغل ، وبانصاف شامل هو :

حرمانا الأزهر حرمانا تاما كل تفكير فى الناحية الاجتماعية والحياة العامة ، لم يكن فى أزهرنا حفلات ولا رحلات ولا رياضة ولا آمال ، وانما كانت الدراسة أشبه بعملية ميكانيكية لا حياة فيها ولا طعم لها ، ولم تكن الصحف تعرف طريقها الى الأزهر ، فاذا اشترى طالب صحيفة الجهاد أو

الأهرام كان موضع القيل والقال ، مع أن مكاتب الصحف كانت تتردحهم
بمحررين من الأهرام ، ولكن هؤلاء كانوا أشبه بالمتمردين على التقاليد .

وهكذا أمضينا هذه السنين الثلاثة ببيئة محدودة ، ولدينا زهير ،
وأحمد ، وسن ، وثلاثة من المجتمع المصري فكانوا طبقة تفكر في الحياة ،
لها زيتها الخاص ، وانفصا للمهذبة ، كما أن لها تفكيرها المستغيا بل أن
ينسجم مع تفكير الآخرين .

أما من الناحية العلمية فإن الأهرام لم يمنحنا قط شيئا يتناسب مع
سننا وثقافتنا حينذاك ، وإنما أعطانا الأهرام علما انتفعنا به ولكن بعد سنين
طويلة من تحصيله ، أو أعطانا علما لا نفع فيه على الإطلاق ، ولعل من
الانصاف أن أثبت أن كثيرا من العلوم التي أنتفع بها الآن قد حصلت
عليها بين جدران الأهرام ، وقد كانت حينذاك ألبازا ومعميات فأصبحت
الآن زادا علميا كثير الخير .

ومن العلوم التي لم أنتفع بدراستها في الأهرام على الإطلاق علم
الكلام ، فقد درست به بالأهرام عدة سنوات ، ولكني لم أعرف منه شيئا عن
«الله» ذا بال ، وإنما انغمست في اصطلاحات زادت تفكيري غموضا واضطرابا
حتى تمنيت إيمان العوام ، بل العجيب أن أساتذتنا كانوا يحسنون لنا
إيمان العوام ، ذلك الإيمان الشاحب الهزيل إذا جاز أن نطلق عليه كلمة
الإيمان . وبدأت أدرس المنطق وانتهيت منه ، دون أن أنال منه قليلا من
المعرفة أو كثيرا .

وحفظت قطر الندى وألفية ابن مالك وغيرهما من المتون عن ظهر
قلب ، ثم خضت في شروحيهما ، ثم ارتقيت إلى الأسموني فالصبيان ،
وأذكر أنني كنت مرة غارقا في استذكار باب التصغير بما فيه من فروض
وتعقيدات فصادفت بعض مشكلات عسيرة لم أستطع فهمها ، فشكرت إلى
زميل يكبرني سنا ودراسة ، وكنت أجهله لأنني كنت أراه ينشر بعض مقالات

في مجلة « الرسالة » ويظهر اسمه بها فيثير زوبعة من الاعجاب عند بعض الناس ، وزوبعة من الحسد عند بعضهم ، وعاصفة من السخط عند من رأوا اللغة قواعد ، وعدوا هذه الآداب مضيعة للغة .

سألت هذا الزميل عما صادفني من متكلات في باب التصغير ، فوعد بأنه سيقدم لى الاجابة بعد دقائق ، وبراً بوعده ، فما هى الا دقائق قليلة حتى عادلى يحمل بضعة من الكتب ، وضعها أمامى وقال لى : اقرأ هذه الكتب ، فهى مختلفة الموضوعات فاذا وجدت بها اسما مصغرا كان من الممكن أن تضع وقتك فى دراسة باب التصغير ، واذا لم تجد اسما مصغرا كان عليك أن تترك هذا الباب إلى الأبد . وترك هذا الزميل معى هذه الكتب وانصرف .

وداخلى شعور مضطرب بين أن أثور عليه لأنه يريد أن يبعث فى الشكوك فى العلوم التى وهبتها نفسى وروحي ، وبين أن أنتفع باتجاهه وأستفيد بتجاربه ، ولكنى قرأت فى هذه الكتب على كل حال ، وعנית وأنا أقرأ فيها وفى سواها من كتب التفسير والحديث والفقه والتاريخ أن أحاول أن أجد اسما مصغرا ، ولكن هيهات !

وانقلب تفكيرى الى غير باب التصغير فشمل باب الإعلال والابدال والترخيم وغيرها من الأبواب ، بل تعدى الى النحو والبلاغة .

وكنّا فى البلاغة ندرس كتابا كبير الحجم كثير الأجزاء اسمه « السعد » وحدث مرة أن التقيت بقريب لى كان تلميذا بالمدارس الثانوية التابعة لوزارة التربية والتعليم ، وكنت أحمل أجزاء الكتاب الأربعة ، فسالنى : ما هذه ؟ فقلت : كتاب السعد فى البلاغة . ودهش قريبي وظن أن معرفتى بالبلاغة ترجع معارفة عشرات المرات ، وصادف أنه كان يستذكر درس البلاغة قبل وصولى ، فى الكتاب المقرر عليهم « البلاغة الواضحة » وصعب عليه اجراء استعارة ، فاستعان بى لأقدم له العون وما كنت أستطيع ذلك ، لأن اهتمامنا فى الدراسة لم يكن يرمى الا الى فهم ألفاظ

السعد وعباراته ، أما المادة في ذاتها فلم تقتل من المؤلف ولا من المدرس
عناية قليلة أو كثيرة ، وهكذا عجزت عن افادة قريبي ، ونضح عرقى ،
وإن كنت لم أعدم وسيلة التماس سرسباً إلى حرمة السعد ، وعلى مساء
والله اعلم

وكنت أقرا كلام الله سبحانه وآذونه أو قل اتذوق انذاره ، فإني
قرأت التفسير استعجم على التفسير والقرآن معا ، وقد أوردت فيما سبق
نماذج من أقوال المفسرين .

وكان هناك درس يسمى أدب اللغة ، وكان علينا أن نحفظ فيه أن
الشعر ضعف في هذا العصر وقوى في ذاك ، وأن الكتابة والخطابة كان حالهما
كذا وكذا ، أما الشعر نفسه وأما النثر فكذا ، فلم نر منهما الا قليلا مما ورد
في النصح أو الموعظة . وأما الكتب التي ألفت في هذه العصور فلم نسمع
ولا حتى عن اسمائها .

أما من جهة المشايخ ومقدار انتفاعنا بهم ، فإني أقرر نتيجة لعمق
صلتي بالكثيرين منهم ، أن أغلبهم كان يتمتع بخلق شخصي رائع . كان
من الممكن أن يعد الكثيرون منهم نماذج طيبة من هذه الناحية ، ولكن
الناحية المهمة التي تعنينا ، ناحية كونهم مدرسين ومربين ، فإنه لم يكن
بينهم الا القليلون جدا الذين استطاعوا أن يمسوا نفوسنا ، ويصلوا إلى
أعمقنا ، وقل منهم من كان له تأثير روحي فينا ، وربما يكون من الانصاف
أن نلتزم لرم الضر في ذلك ، فالتربية الحق هدف سام ، والطاقة الروحية
غاية بسيدة المثال ، ولم تتح الفرصة لهؤلاء ليتروا بهذا الزاد ، وإذا
كان بعضهم قد أتبع له قسط من ذلك فإنه كان نتيجة كفاح شخصي ومواهب
ذاتية ، والذين أتقوا كانت إلى مصرفة شخصية ببالغة من هؤلاء ، والشيخ
شهاب الدين ، والشيخ أحمد الحارثي ، والشيخ عبد السميع شيبانة ، والشيخ سيد
المراد ، والشيخ محمد تقي الدين ، والشيخ محمد تقي الدين ، والشيخ محمد تقي الدين .

ومن الناحية العلمية فإن أغلب ما كانت تدين إليه عناية المدرس من
ألفاظ الكتاب ، والويل للمدرس والطلاب إذا كان المؤلف — وكثيرا ما

كان المؤلفون — ركيك العبارة ضعيف الأسلوب مضطرب التركيب ، « ركيك » ما كانت الفكرة واضحة لنا جلية ، ولكن العناية بالذكر لسم تدل على درجة العناية بطريقة أخذ الفكرة من هذه الألفاظ ، لقد كانت الألفاظ أسسه بالمقدسة ، وكانت المقدرة على حلها هي الحلم كله .

والعجيب ؛ ولكن ذلك ليس عجيبا على من دخل الأزهر أو عانى كتبه . أنك تقرأ المتن فتفهم أكثره أو كله ، فإذا ذهبتَ تقرأ الشرح عجزتَ عن فهم أكثره أو كله ، فإذا ذهبتَ إلى الحاشية والتقرير قابلت ألفاظا ومعانيات . هل يريد القارئ أمثلة تؤيد ذلك الادعاء ؟

إن قارئى على كل حال أحد شخصين ، ان كان أزهريا فقد عانى من ذلك الشيء الكثير ، وان كان غير أزهرى فلن يكون له صبر لقراءة هذه الأساليب ، وعلى كل فلننعت نمودجا قصيرا لموضوع يعرفه القارئ أيا كان اتجاهه الثقافى ، مقتبسين هذا النموذج من :

متن « المنهاج » لأبى زكريا يحيى النواوى

وشرحه « تحفة المحتاج بشرح المنهاج » لابن حجر .

وحاشية الشرنوانى على ذلك الشرح للشيخ الشرنوانى .

يبتدىء النواوى متن المنهاج بقوله : بسم الله الرحمن الرحيم .

ونحن لا شك نعرف هذه الجملة قبل أن ندخل الأزهر ، ونبدأ بها كثيرا من أعمالنا ، ونحس بمعناها ان لم يكن تفصيلا فاجمالا ، نحس أنها تفيد الاستعانة بالله فى هذا العمل الذى نبذوه .

ولكن ابن حجر يشرح هذه الجملة كلمة كلمة ، ولناخذ مثلا للكلمة الأولى منها ، إذ يقول ابن حجر عنها :

(باسم) أى أولف أو أفتتح تأليفى . والباء للمصاحمة ، ويصح

(م ٢٠ — المجتمع الاسلامى)

كونها للاستعانة نظرا الى أن ذلك الأمر المبدوء باسمه تعالى لا يتم شرعا بدونه . وأصل اسم سمو من السمو وهو الارتفاع ، حذف عجزه وعوض عنه همزة الوصل ، فوزنه افح ، وقيل افل من السيماء وقيل اعل من الوسم ، وطولت الباء لتكون عوضا عن الحذف ، وهو إن أريد به اللفظ غير المسمى اجماعا ، أو الذات عينه ، كما لو أطلق ، لأن من قواعدهم أن كل حكم ورد على اسم فهو على مدلوله ، أو الصفة كان تارة غيرا كالخالق ، وتارة عينا كالله ، وتارة لا ولا ، كالعالم ، ولم يقل بالله حذرا من ايهام القسم ، وليعم جميع أسمائه تعالى .

وينتقل ابن حجر بعد ذلك الى كلمة (الله) ثم الى كلمة (الرحمن) وهكذا .

أما الشرنوانى فيخصص ثلاث صفحات من الحجم الكبير ليعلق على شرح ابن حجر لكلمة (باسم) وهذا التعليق يتناول تقريرا كل كلمة من كلمات ابن حجر ، ونقتبس من هذه الحاشية تعليق الشرنوانى على الكلمة الأولى من كلمات الشرح :

(قوله أى أولف) بيان لمعلق الباء على أنها أصلية ، وقيل زائدة فلا تتعلق بشيء ، فمدخولها مبتدأ والخبر محذوف ، أو بالعكس والأول أصح ، فالمتعلق إما فعل أو اسم ، وعلى كل إما خاص أو عام ، وعلى كل إما مقدم أو مؤخر ، وأولى هذه الاحتمالات الثمانية أن يكون فعلا لأنه الأصل في العمل ، ولقلة الحذف عليه ، واكثره التصريح بالمتعلق فعلا ، وأن يكون خاصا لأن الشارع فى شيء إذا ضمير فى نفسه لفظ ما جعل التسمية مبدأ له ، فالمبسهل المسافر يلاحظ أسافر ، والآكل يلاحظ آكل ، وهكذا . وأن يكون مؤخرا ليوافق الوجود الذكرى للوجود الخارجى ، وليفيد القصر كما فى قوله تعالى « إياك نعبد وإياك نستعين » وإنما قدم فى قوله تعالى « اقرأ باسم ربك » لأنه مقام ابتداء القراءة وتعليمها لأنه أو لما نزل ، فكان الأمر بالقراءة أهم باعتبار هذا العارض ، وكثيرا ما ترجح فى البلاغة

الأهمية العرضية على الأهمية الذاتية إذا اقتضى الحال ذلك كما هو . ولم يقتصر الشارح على المؤلف مع أنه أولى ، لما مرّ ولتتم البركة جميع التأليف بخلاف مادة الافتتاح مثلا ، فان البركة خاصة بالابتداء للإشارة الى جواز تقديره عاما وان كان الأولى تقديره خاصا .

* * *

وبعد . إذا كان القارئ قد ضاق بهذه السطور فاني أذكره أنني أمضيت تسع سنين كادحا في هذا العناء ، وإذا كان بعض الطلاب قد أهملوا أو اكتفوا بالقليل . فقد كنت حريصا على السبق ، وهذا دفعني الى مواصلة العمل ، ومحاولة تحصيل كل شيء ، وإذا كان أستاذنا الامام محمد عبده ثار على دراسات الأزهر عندما عرفها فان ثورتى لم تأت الا متأخرة ، بل انها — والحق يقال — لم تكن ثورة وانما كانت نقدا هامسا خفيفا . تسألني لماذا ؟ فأجيب انه ربما يرجع الى نوع من الهدوء في الطبع من جهة ، ومن جهة أخرى أنني كنت عقدت العزم على أن أتعلّم ، ولم يخطر ببالي قط أن أؤثر الزراعة على العلم كما خطر ببالي أستاذنا الامام ، ثم لم يكن أمامي مكان للتعليم الا الأزهر لعامل لادخل لي فيه هو عامل السن ، فان أبى كان قد مات في طفولتي المبكرة تاركا لنا ثروة لا بأس بها وتجارة كبيرة اذا قيست بمتاجر الريف ، ولما كنت الابن الوحيد لأبى فقد اتجهت الأنظار إلى إعدادي لمواصلة هذه التجارة ، وهكذا لم يُلحِقني أهلي بالمدارس في سن مبكرة حتى وصلت الخامسة عشرة ، وأحسست بعدم الميل للتجارة وبالرغبة الجارفة في التعلم ، ولم يكن هناك معهد علمي يقبل الطالب في هذه السن المتقدمة إلا الأزهر .

ولم تختم حياتي بالأزهر الا بمظلمة وقعت على ، فقد اتجهت وأنا بالقسم الثانوى الى قراءة بعض كتب الأدب ودواوين الشعراء ، فترتبت عندي ملكة أدبية لا بأس بها ، والمهم أنني عندما وصلت المرحلة الرابعة بالقسم الثانوى كنت خطيبا معروفا بين خطباء الطلاب ، وكنت عضوا

بارزا في اللجان التي كانت تعنى بالمسائل العامة السياسية والأزهرية ، فلما وصلت الفرقة الخامسة وهي آخر فرقة في القسم الثانوى كنت أهم خطيب بين الطلاب ، وكانت مقاليد الحركات كلها في يدي ويد نخبة من الطلاب يتعاونون معي ، وكنت بمعهد الزقازيق على صلة بباقي المعاهد الأزهرية وباللجنة العامة بالقاهرة ، وفي تلك الأثناء كانت هناك حركات سياسية وحركات تتصل بمستقبل الأزهر ، وكانت اللجنة العامة بالقاهرة ترسل لى خطابات عن الخطط التي تتبع ، أو تسأل رأيي عن اتجاه الطلاب نحو نقطة ما ، وقد سمح شيخ المعهد لنفسه سامحه الله — ولن أذكر اسمه هنا اثفاقا عليه من حساب التاريخ — أن يفتح هذه الخطابات ويعرف ما بها ، فلما أعلنّا مرة الاضراب متعاونين مع باقى الطلاب لخير مصر وخير الأزهر ثار الشيخ وأصر على الانتقام ، كان يعتقد أن الانتظام في الدروس هو فوق الوطنية وفوق الاصلاح ، وأنه قد يئيله حظوة عند بعض ولاية الأمور ، حظوة تقدير لحزمه على الأقل ، فأنزل بزعماء الطلاب عقوبات قاسية ، شملت الفصل من المعهد ، والحرمان من دخول الامتحان عاما أو الحرمان من دخول الدور الأول . أو قطع بدل الجراية عن الطلاب بضعة شهور ، وقد شفع لى تقدمي ورضاء جميع الشيوخ عنى فكانت عقوبتي الحرمان من دخول الدور الأول ، وأمضيت صيفا مريرا أستذكر فيه ، وأعدت نفسى للامتحان ، في حين كان كثير من رفاقي قد نجح في الدور الأول .

وقد قوّمت هذه العقوبة عزمى على مغادرة الأزهر ، فالتحقت بكلية دار العلوم بعد نجاحى الفائق في ثانوية الأزهر وحصولى على أكبر مجهوع للدرجات في هذا الامتحان ، وقد وجدت أن بعضا من آثار الدراسات الأزهرية قد تسربت اليها ، ولكن ذلك كان قليلا اذا قيس بما حققته في ميادين أخرى علمية واجتماعية .

تسع سنين قضيتها في الأزهر ، فيها عمل يكاد يكون متصلا وفيها جد* لم يعرف التواني ، كنت أعمل صيفا وشتاء ، فلما شبيت ونفضت الطوق ،

وانجابت عن بصرى الغشاوة ، بدأت أفكر فى الربح والخسارة ، فماذا رأيت ؟

فى كفة الربح نضع ما ذكرناه من قبل من علوم ومعارف كانت عندما تلقيناها ألقاها ومعمّيات ، ولكنها أصبحت عندما تقدمت بنا السن والثقافة زادا علميا كثير الخير .

وفى كفة الخسارة نذكر ذلك التكرار الملل فى النحو والصرف وفى الفروع الافتراضية بالفتنة ، ونذكر كذلك علم المنطق ، وسوء الطريقة فى تفسير القرآن الكريم ، كما نذكر الحرمان التام من اللغات الأجنبية ومن قراءة كتب الأدب كالأغانى والعقد الفريد ، والحرمان من دراسة الحضارة الاسلامية والتاريخ الاسلامى .. وفقه المذاهب .

وانتهيت من كلية دار العلوم حاصللا على الليسانس مع درجة الامتياز ، فأتاح لى ذلك أن توفدنى جامعة القاهرة للدراسة بأوروبا ، فالتحقنت بجامعة لندن ثم بجامعة كمبردج ، وكافحت كثيرا لأثبتت قدمى ، وأرجو أن أكون قد وفقت وعوضت ما فاتنى .

هل تغير الأزهر والأزهريون بعد ذلك ؟

الجواب عندى فيما يتعلق بالأزهر بالنفى ، وفيما يتعلق بالأزهريين بالإيجاب ، فالذى شكنا منه الامام محمد عبده من سوء المناهج شكونا نحن منه ، ولا يزال الطلاب منه يشكون (١) ، أما فيما يتعلق بالأزهريين فإن تغييرا واسعا قد حدث ، فالطلاب الأزهرى لم يعد منعزلا كما كان من قبل ،

(١) صدر سنة ١٩٦١ قانون جديد قيل أنه يتجه لتطوير الأزهر ، ولجمله جامعة تشمل كل غروع الثقافات ، والذى يهينا هنا هو مدى ما حصلت عليه الدراسات الاسلامية والعربية من تطور فى ظل هذا القانون ، والحق ان هذا القانون أضر بهذه الدراسات ابلغ الضرر ، فأحسن الطلاب بانقسم الثانوى يتجهون لشعبة العلوم وبالتالي لكليات الطب والهندسة والعلوم ، ولا يبقى لكليات الأزهر الاصيل (اللغة العربية والشريعة وأصول الدين) الاضعاف الطلاب ، وهناك عيوب اخرى كثيرة لهذا القانون شرحناها عند الحديث عن هذا القانون فى الجزء التاسع من « موسوعة التاريخ الاسلامى » .

لقد تسربت اليه الثقافة العامة التي انتشرت بالقطر كله ، ووجدت الصحف والمجلات طريقها إلى الأزهر ، ويُعَدُّ الطلاب الأزهريون أكثر الطلاب المصريين اقبالاً على المحاضرات العامة ، ولم تعد دور الخيالة حراماً أو في حكم الحرام كما كانت من قبل ، ونشطت بالأزهر الألعاب الرياضية وغيرها من عوامل التقدم والتطور ، ثم حدث شيء ذو بال ينعم به طلاب الأزهر الآن ولم يكن شائعاً من قبل ، فمنذ أصبح التعليم في مصر مجانياً أو قريباً من المجانية ، أقبل الطلاب الفقراء على مدارس الحكومة ، وشقوا طريقهم إلى الجامعات المصرية ، وقام بجانبهم أخوة لهم أو أقارب يتلقون العلم في الأزهر ، وعلى هذا نجد الآن طالباً بكلية الطب يسكن مع أخيه الأزهرى وابن عمه الطالب بكلية الآداب ، ولم يكن ذلك شائعاً من قبل إذ كانت المصروفات المدرسية تقسم المجتمع المصرى إلى طبقتين ، طبقة الأغنياء واليهم وحدهم ييسر التعليم بالمدارس والجامعات ، وطبقة الفقراء ، وليس لهم ملاذ إلا الأزهر • واختلاط الأزهريين بطلبة الجامعات كان مصدر نفع مزدوج •

وهذا كما قلت تطور من جهة الطالب نفسه ، أما المحاولات التي تبذل لتعديل مناهج الأزهر فلم تقدر لها بعد عوامل النجاح •

وبعد ، هل يسمح لى حضرات المشايخ بالأزهر الشريف أن أذكرهم بحقيقة أعنتقد أنها لا تغيب عنهم ؟ هى ان الذين خدموا الدراسات الاسلامية والدراسات العربية ، وأبانوا للناس ما فى الدين من جمال • وما فى لغة القرآن من حلاوة وطلاوة لم ينبت أكثرهم فى بيئة أزهرية ، وقليل أولئك الذين نبثوا فى هذه البيئة ولكن سرعان ما تنكرت لهم تربة الأزهر وانقلبت تحاربهم ، ولسنا فى حاجة الى أن نذكر اسم جمال الدين الأفغانى ونخودا بخش ومحمد عبده وسيد أمير على وهيك والعقاد وطه حسين وأحمد أمين وفريد وجدى وغيرهم ، ولسنا فى حاجة كذلك الى أن نشير الى ما يخرج به أساتذة الجامعات المصرية ومدرسوها من كتب حية فى الدراسات الاسلامية المتنوعة ، أعنتقد أن ذلك غنى عن البيان ، ولكنى أثبت بكثير

من التقدير النتاج الذى بدأ الجيل الأزهرى الجديد يسهم به فى النهوض
بالثقافة الاسلامية ، ولا نزاع أن الأجيال الأزهرية القادمة تستطيع أن
تحقق نجاحا أوسع ، لو أُصْلِحَت المناهج وبذلت عناية جدّية بالامات
الأجنبية واستقامت طرق التدريس ، ونظم التربية بهذا المعهد التقليد .



إن الغيورين على الأزهر يتحتم أن يبذلوا جهداً عظيماً حتى يستطيعوا
أن يفخروا بحاضر الأزهر كما يفخرون بماضيه ، ولن يدوم مجد يتحدث
عن الماضى اذا لم يكن معه حاضر مشرق ، ومستقبل مأمول ، وينبغى أن
نتذكر دائماً أن الأزهر كان وحده فى عصور الظلام ، ولكنه الآن يعيش فى
'خضم' من المنافسات ، وذلك يستدعى محاولة التفوق دائماً فالبقاء فى
النهاية للأصلح .

خاتمة :

وهكذا تدهور العالم الإسلامي تحت عبء الأسباب السياسية الداخلية والأسباب الخارجية والأسباب التي تنسب ظلما للدين الحنيف ، هذه الأسباب التي اصطاحت على النيل من الاسلام ووالث ضرباتها ضده ، ونالت منه .

وجاءت بعد ذلك أجيال من الناشئين ، فراوا ما آل له أمر العالم الاسلامي ، رأوه مملوءاً بالمساوىء ، فيه ضعف وفيه حسد ، وفيه رشوة ، وفيه رجعية ، وفيه تأخر ثقافي ، ورأوا رجال الدين يحرسون الرجعية ويسير الكثيرون منهم في ركاب الملوك والرؤساء ، ولم يكن هؤلاء الناشئون يعرفون عن روح الاسلام ، وأخلاق الاسلام ، ومبادئ الاسلام ، وفلسفة الاسلام شيئاً ، ولم يجدوا في بضاعة رجال الدين ما يجذبهم إلى دراسة الاسلام ، ولم يأخذ أحد بيدهم إلى الغزالي وابن مسكويه وابن القيم . وعرف كثير من هؤلاء بطريق أو بآخر حضارة أوربا وتقدمها ، فكفروا بالشرق ، وتنكروا للإسلام ، بل صرح بعضهم أن الدين هو أساس ما نعانيه من تأخر وتخلف ، وأن لا أمل في أن ينال الشرق مكانة مرموقة ، وهكذا أصبح كثير من الناشئة ، بل من المثقفين معاول تأخذ بنصيب وافر في هدم صرح الاسلام وعرقلة تقدم الشرق .

يا الله ! ! ! كيف استطاع العالم الاسلامي أن يصمد أمام هذه العواصف الهوجاء ، والأعاصير القاسية التي هبت عليه من كل اتجاه ، كيف ؟ إنه أنت يارب حميتة وزعيتة ، ولو تخلّط عنه عينك لهوى وانك صرحه ، أمام هذه القوى الهائلة التي تعاونت ضده من الداخل والخارج .

الباب الخامس

الطريق إلى الإيصاح

مقدمة :

يبدل الطبيب أقصى جهده في فحص المريض ليتعرف أسباب داءه ومبعث آلامه . حتى إذا أدرك هذه الأسباب وعرف كنهها ، استقطع أن يقرر مدى الأمل في شفاء المريض ، فإذا ضعف الأمل أو انقطع استسلم الطبيب وانتظر المريضُ القدرَ المحتوم ، وإذا قوى الأمل بدأ الطبيب يصف الدواء ، ويقود مريضه الى ساحل النجاة .

ونحن قد ورثنا عالما اسلاميا هزيلا شاحبا ، وذهبنا نتقصى أسباب ضعفه ودواعي هزاله ، حتى ظهر لنا مصدر الدواء ومنبع الشكوى ، ويقودنا ذلك الى التساؤل .

هل من أمل في النجاة ؟ وما الطريق الى الاصلاح ؟

وعن السؤال الأول نجيب في قوة واصرار : نعم هناك أمل كبير في النجاة ، وان المريض - مع أن المرض قد طال عليه واصطلحت عليه الآلام - فتى القلب شديد البنية ، قاوم يوم كانت الأعاصير تهب عليه قاسية مهلكة ، حتى إذا بدأت طلائع النور انتفض كالطير كان هاجعا في ظلام الليل فلما تفرق ضوء الفجر صفق وهتف مرحبا بالصباح ، فالأمل في النجاة قوى ، برهن عليه المريض نفسه عندما دب فيه النشاط وعادته العافية مع أنه لم ينل بعد الا الجرعات الأولى من الدواء .

تلك هي الاجابة عن السؤال الأول ، كلمة واحدة قوية حاسمة : نعم ، هناك أمل كبير في النجاة ، أما الاجابة عن السؤال الثاني ، أما وصف الدواء ، فيحتاج الى عناية وتوفيق ، فالطريق الى النجاة لازال مملوءا بالأشواك ، ونحن المسلمين نعرف العقبات الجسم التي يجب أن نتخطاها ، وندرك المشكلات التي تعوق سير القافلة ، ولكننا عقدنا العزم على أن نناضل حتى نصل بالعالم الاسلامي الى المكانة الجديرة به .

على أنى أحس بفيض من التفاؤل وكثير من الأمل في أننا سنحقق غايتنا بشيء من اليسر والسهولة ، ذلك لأن أماننا صورة المجتمع الاسلامي في عهده الزاهر ، وأماننا عناصر ازدهاره ومقومات نجاحه ، وأماننا

كذلك ضرورة واضحة عن الأمراض التي هاجمت هذا العالم ، وشوهرته وأوشكت أن تفتك به ، فليس علينا إذا أردنا أن نعيد صرح المجتمع الاسلامى الا أن ندأوى المرضى ونزيل الشكوى ، ثم أن نقتبس عناصر الازدهار فى المجتمع الاسلامى الأول لنهتدى بها فيما نحن بسبيله من عمل . ومن الواضح أننا لا نقصد أن نبني مجتمعا اسلاميا على نفس الصورة التي كان عليها المجتمع الاسلامى الأول ، فان الظروف التي نعيش فيها الآن تختلف فى كثير من الاتجاهات عن تلك الظروف التي تكوّن بها ذلك المجتمع الاسلامى الأول ، ولكن الذى نقرره بادىء ذى بدء هو :

أولا — أن نهتدى فى تكوين المجتمع الاسلامى الحالى بالعناصر التي حققت للعالم الاسلامى الأول ازدهاره ورفاهيته .

ثانيا — أن النظم الاسلامية تحمل فى طياتها فكرة التطور لتناسب كل زمان ومكان ، فالأساس هو لا يتغير ، ولكن شروحه وتطبيقاته عندما يحسن استغلالها ستمدنا بكل ما يحتاجه المجتمع الجديد من مقومات النجاح .

وعلى ذلك فالدراسة القادمة ستقتبس التوجيهات من الدراسة السابقة ، وستعالج الدراسة القادمة الموضوعات الآتية التي هي فيما أرى أبرز الأسس للإصلاح المنشود :

أولا — إعادة تكوين الفرد المسلم والأسرة المسلمة .

ثانيا — العودة للتعرف على أسس تكوين المجتمع الاسلامى واهياء هذه الأسس والتمسك بها .

ثالثا — القضاء على الأسباب التي ذكرناها من قبل والتي أدّت لضعف العالم الاسلامى .

رابعا — الإصلاحات العلمية .

خامسا — الجامعة الاسلامية

وستحدث بشيء من التفصيل عما يلزم تفصيله من هذه الموضوعات :

أولاً — إعادة تكوين الفرد المسلم والأثرة المسلمة

بَعْدَ المسلم عن الاسلام بعدا شامقا حتى أصبح في كثير من الأحوال لا يحمل من الاسلام الا اسمه ، وهناك مسلم آخر خضع لتقاليد لا يعرف مصدرها ولكنه يتبعها على أنها الاسلام وهي ليست من الاسلام في شيء ، ولذلك كان لابد علينا أن نعيد تكوين الفرد المسلم ، وأن نأخذ بيده الى دائرة الاسلام السهل الصحيح .

وتكوين الفرد المسلم في زمننا هذا مخالف لتكوين الفرد المسلم الذي تمَّ في مكة ، اذ أن الظروف والأحوال تختلف الآن عما كانت عليه منذ أربعة عشر قرنا . لقد نقل الاسلام العربى في مكة من السيف الى المسألة ، ومن القوة الى القانون ، ومن الثأر الى القصاص ... ولكن المسلم الذى نريد أن نعيد تكوينه الآن ليس هو العربى الذى كان يلجأ الى السيف ، ويخضع للقوة ويخضع بها غيره ، ويدين بالثأر ، انه المسلم فى جميع بقاع الأرض عربية وغير عربية متمدينة أو متخلفة ، نريد أن نعيد هذا المسلم الى رحاب الاسلام ، أو قل نريد أن نحمل له رسالة الاسلام ونزفها اليه (١) ، نريد أن نساعده ليرفع الصدا عن نفسه ، وأن يزيل عن كيانه الخرافات التى يعتقها على أنها الدين .

اننا ننظر الى العالم الاسلامى فنرى للأسف ألوانا من الرذائل تفشت فيه أكثر مما تفشت فى أى مكان آخر ، وكثيرون من غير المسلمين يرتبط عندهم العالم الاسلامى أو قل : يرتبط عندهم الاسلام بهذه الرذائل ، ارتباط النهار بالضوء والليل بالظلام ، فاذا ذكر الاسلام تمثل لهم الجهل

(١) نشر هنا على القارىء أن يطالع كتاب « الاسلام » من سلسلة « مقارنة الأديان » للمؤلف .

والحسد والبغضاء والطبقية والرشوة وغيرها من الصفات الذميمة .
نريد أن ندحض هذه الفرية ، ونزيل هذه الغشاوة ، ونعيد الأمور الى نصابها :
أن نذكر من تعاليم القرآن ما يحقق الحق ويبطل الباطل ، ويبرز توجيه
الاسلام في هذا السبيل ، ثم أن ندعو المسلمين الى العودة للدين الصحيح
والتمسك بأهدافه وأهدافه .

نريد أن نقول لهم ان الإسلام يدعو للعلم ، ويمقت الحسد ، ويهاجم
الرشوة ، فاذا جهل المسلمون أو حسدوا ، أو رشوا أو ارتشوا ، فهم
متمردون على تعاليم الدين ، خارجون على ارشاداته وآدابه .

فاذا استطعنا أن نرسم للمسلم صورة سريعة من مبادئ الاسلام
ومن خلق الاسلام ، واذا استطعنا أن نجذب المسلم الى هذه الدائرة
الخلقية ، فقد أعدنا تكوينه وخلقنا من الركام نفسا وضاءة وروحا عالية ،
ولعلمن السهل أن نرسم اطارا يحوى أبرز اتجاهات الاسلام الخلقية ،
وأما جذب المسلمين الى هذه الدائرة الخلقية فهو عمل يحتاج الى تكاتف
القوى واصلاح نظم التعليم ، والى دعاة ومرشدين عمرت قلوبهم بالايمان ،
وقاضت نفوسهم اخلاصا وحماسة ، ولكن الصبح بدأ يشرق ، وبدأت
أفواج الشباب المتحمس في جميع الأقطار الإسلامية تحمل مشعل النور ،
ولم يبق علينا الا أن نقدم الزاد لهذا الركب السائر الى الأمام في ثقة
ويقين ، وذلك بأن نحلّي الفرد المسلم بأخلاق إسلامية ، وبخاصة
الأخلاق المتصلة بالمعاملات .

لقد اتجه كثير من المسلمين بالاسلام اتّجاه عبادة ، وحسبوه صلاة
وصوما وتسيبجا ، وتناسوا جانب المعاملة فيه ، ونحبت أن نوضح أن
الاسلام يهتم اهتماما كبيرا بالمعاملة ، ومن القواعد التي وضعها الأصوليون
أن حقوق الله مبنية على المسامحة وحقوق الانسان مبنية على المشاحنة .
فاذا قصّر مسلم في حق من حقوق الله فان التوبة النصوح تغفره ،
وعفو الله قد يشملها ، ولكن ايذاء الناس لا يغفره الا اذا عفا الناس ،

فردُّ الحقوق شرط أساسى من شروط التوبة ، وحسن المعاملة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى أصلٌ من أصول الاسلام . بل أصل مهم جدا ، فالاسلام يتطلب من الفرد المسلم أن يسير على هديه ليس فقط في مبادئ الاسلام الخمسة ، بل أيضا في الأسس التى وضعها الاسلام لتنظيم علاقات الناس بالناس أفرادا وجماعات على دعائم من الحب والعدالة والقانون ، وجعل الاسلام هذه الأخلاق جزءا منه بحيث لا يكمل الدين دونها .

وقد ورد أن رجلا قال للنبي : يا رسول الله ، ان فلانة تكثر الصلاة والصوم والصدقة ، ولكنها تؤذى جيرانها بلسانها ، فقال هى فى النار ..

ولست أنوى هنا أن أكتب عن خلق المسلم ، وأن اعطى صورة كاملة عن اهتمام القرآن والحديث بالمعاملة والأخلاق ، فان هذه الأخلاق ليست مجهولة ، ولكن الذى نريده هو اتباعها والتمسك بها ، فاذا أراد المسلم النجاح فى الدنيا والآخرة فان التمسك بهذه الأخلاق من أهم وسائله .

وليسأل المسلم نفسه : أنا مسلم حقيقة أو اسما ؟ هل أتبع هذه الأخلاق ؟ وأيا ما تكون الاجابة فنحن ندعو المسلم الى العودة الى رحبة الاسلام وسماحته وصفائه ، ندعوه أن يحاول جهده لياخذ أكبر نصيب ممكن من الأخلاق الاسلامية ، ويرجع الى دين الفطرة ، وأن يفهم الاسلام على حقيقته ويفهم ما يوجبه الاسلام عليه تجاه الخالق الأعظم ، وتجاه نفسه وأسرته ، وتجاه المجتمع الاسلامى ، وتجاه المجتمع الانسانى بأسره .

فاذا انتشلنا المسلم أو انتشل المسلم نفسه من عالم الخرافات والتعقيدات والأوهام ، ووضعنا المسلم أو وضع المسلم نفسه فى رحاب الاسلام الصحيح ، كان ذلك المسلم خير أساس نستطيع أن نقيم عليه صرح المجتمع الاسلامى الشامخ .

والعجيب أن كثيرين من الناس يصيحون مطالبين بتطبيق الشريعة

الاسلامية ، وجدير بهؤلاء أن يسألوا أنفسهم : هل طبّقوا هم الشريعة الإسلامية في أخلاقهم ومعاملاتهم ؛ هل يؤدي الواحد منهم عمله خير أداء ؛ وهل بسّطت أقدامهم عن الرشوة والإهال والفضيحة ؟ إن هذا هو أول خطوة وأهم خطوة لتطبيق الشريعة الإسلامية .

الاسلام والمجتمع الصغير (الأسرة) :

وبعد أن نرَبَّيَ الفرد هذه التربية الإسلامية الصحيحة ، وفي طريقنا إلى تكوين مجتمع إسلامي قويم ، يجدر بنا أن نوجه عناية إلى تكوين وحدات المجتمع الإسلامي ، أي إلى تكوين الأسرة ، وقد رسم لنا الإسلام الطريق لذلك ، إذ اهتم بالأسرة اهتماما بالغاً ، وتمشّى اهتمامه بها خطوات عمّت جميع مراحل تكوينها .

فمن الأم والأب يقدّم القرآن أجمل وصية للأولاد ، قال تعالى :

— وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ، وبالوالدين إحساناً ، أما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما ، وقل لهما قولاً كريماً . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل : رب ارحمهما كما ربياني صغيراً (١) .

— ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن أشكر لي ولوالديك إلى المصير ، وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ، وصاحبهما في الدنيا معروفاً (٢) .

فاذا كبر هذا الابن وأراد أن يكون له بيتا وأن يختار له زوجة ، سمع هتاف الرسول به :

(١) سورة الاسراء الايتان ٢٣ — ٢٤ .

(٢) سورة لقمان الايتان ١٤ — ١٥ .

— تخيروا لنطفكم فان العرق دساس •

فاذا اختار زوجته رسم له الاسلام طرق المعاملة التي يجب أن تسود
هذا البيت الجديد :

— ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل
بينكم مودة ورحمة (١) •

— وعاشروهن بالمعروف (٢) •

— خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي (٣) •

فاذا دب بينهما خلاف رسم الاسلام طريق حسمه :

— واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجوهن في المضاجع (٤) •

— وان خفتن شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها
إن يريدوا إصلاحا يوفق الله بينهما (٥) •

ويخوَّف الاسلام من الطلاق ، ويقرر أن اللجوء إليه لا يكون إلا
للضرورة القصوى :

— أبغض الحلال الى الله الطلاق •

— تروءجوا ولا تطلقوا فان الطلاق يهتز منه العرش •

فان كان لابد من الطلاق فالاسلام ينظم وقته وعدده ويبين حق
المرأة بمقتضاه :

(١) سورة الروم الآية الثانية •

(٢) سورة النساء الآية ١٩ •

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه •

(٤) سورة النساء الآية ٣٤ •

(٥) سورة النساء الآية ٣٥ •

- — إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ، وأحصوا العدة (١) .
 - — الطلاق مرتان فامسك بمعروف أو تسريح بإحسان ، ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً (٢) .
 - — وللمطلقات متاع بالمعروف (٣) .
 - ولا يقف الاسلام عند رعاية الأسرة الصغيرة ، بل يرسم الاسلام للمسلم حقوق أقاربه عليه :
 - — يسألونك ماذا ينفقون ؟ قل ما أنفقتم من خير فلولوالدين والأقربين (٤) .
 - — وآت ذا القربى حقه (٥) .
 - — وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله (٦) .
- تلك نماذج قليلة لعناية الاسلام بالأسرة ، ولا نزاع أن الذى يدرس الاسلام وفلسفته وحضارته وأخلاقه يجد تفاصيل رائعة للحقوق والواجبات والآداب التى نظمها الاسلام لخلق أسرة متحابّة متعاطفة تصلح أن تكون جزءاً سليماً من مجتمع اسلامى سليم .

(١) سورة الطلاق الآية الاولى .
(٢) سورة البقرة الآية ٢٢٩ .
(٣) سورة البقرة الآية ٢٤١ .
(٤) سورة البقرة الآية ٢١٥ .
(٥) سورة الاسراء الآية ٢٦ .
(٦) سورة الأنفال الآية ٧٥ .

ثانيا - أسس تكوين المجتمع الاسلامى وإحياءها

لقد اتضح لنا عند دراسة أسس تكوين المجتمع الاسلامى أن هذه الأسس مقدسة ، فهى تنفيذ لتشريعات سماوية وردت فى القرآن الكريم وفى أحاديث الرسول ، وعلى هذا فإحياء هذه الأسس أمر لازم لا محيص عنه إذا أردنا أن نعيد بناء المجتمع الاسلامى ، وأن نهيب له مسيرة حميدة •

ولابد من العناية بالمسجد والتطور به ليناسب العصر على نحو ما ذكرنا عند الحديث عنه •

ولابد من اشاعة الحب والتعاون والمؤاخاة بين أفراد المجتمع الاسلامى ولابد من التعاون الكامل بين المسلمين وغير المسلمين فى المجتمع الاسلامى ، على أن يشمل هذا التعاون جميع النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية •

ولابد من العودة للشورى الحقيقية التى رسمها الاسلام ، والقضاء على الديكتاتورية قضاء تاما ، فحكم الفرد ، والاستبداد ، كانا وسيطان من أخطر الأسباب لتقويض أى مجتمع ، وقد انتشر حكم الفرد فى العالم الاسلامى للأسف ، انتشارا واسعا يفوق ديكتاتورية الاتحاد السوفيتى ، فقد أسقط النظام السوفيتى خورشوف وهو فى أوج عظمته ، ولكن المستبدىن بالعالم الاسلامى لا يستطيع أحد أن يسقطهم •

ولابد من العودة للنظام الاقتصادى فى الاسلام ذلك النظام الذى واجه المشكلة الاقتصادية أروع مواجهة وانتصر عليها ، حمى مال الغنى مادام هذا المال قد جاء عن طريق صحيح وأدى حق الله ، وقضى حاجة الفقير بتهيئة العمل له وبدفع جزء من مال الغنى إليه •

ولابد أن يصبح قادة المسلمين قدوة حسنة للناس ، فمن الشائع أنهم يحكمون لتحقيق أغراضهم ، ويسترون مخازيهم فى حياتهم بالقوة

والجبروت ثم تبرز هذه المخازى بعدهم ويشيع ما كانوا يخفون .
ولا يتعظ من يخلفهم جهلا وعمى عن الحق .

ولابد من احياء روح الامام ليتحقق قول الرسول صلوات الله عليه
« لا يكمل إيمان المرء حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

هذا هو الدواء الأول لنعيد المسلمين الى الطريق الصواب ، فاذا لم
يعرّدوا لهذه الأسس فهم يتمردون على الاسلام ، وهم يحملون تبعه هذا
التمرد ، وعليهم أن يعرفوا أن سبب اخفاقهم هو جهلهم بالأسس المهمة
التي بينى عليها المجتمع الاسلامى .

ثالثا - القضاء على الأسباب التي أدت لضعف العالم الاسلامى

لقد رأينا فيما سبق تلك الأسباب التي أدت لضعف العالم الاسلامى ، ومن المحتم لنصل الى الاصلاح المنشود أن نقضى على هذه الأسباب تماما ، وإذا كانت بعض هذه الأسباب قد اختفت ، فإن بعضها لا يزال موجودا وتعمل هذه فى المجتمع ما يعمل السوس والآفات بالطعام والزروع .

فمن العوامل الداخلية لابد من الاهتمام بتربية الداعية المسلم ، ولا بد من إحياء الأخلاق الاسلامية والتمسك بها ، وإحياء الحضارة الاسلامية وتدريسها فى المدارس والمعاهد والجامعات ، ولا بد من القضاء على الحكام الفاسدين وعلى أتباعهم ، ولا بد من محاولة إيقاف النشاط المدمر الذى يوجد بالعالم الاسلامى بواسطة ما يسمى « الفرق الاسلامية » وعلينا أن نتذكر دائما أن نواحى الاتفاق بين الشيعة والسنة مثلا كثيرة جدا ، ومن العار أن نتناسى هذا ونبحث عن نواحى الخلاف .

ولا بد من القضاء على المؤسسات التى تكيد للإسلام فى غفلة من المسلمين كالروتارى والليونز وأنصار السلام وأمثالها ، فهذه آفات تشد الكثيرين للانحراف الدينى والوطنى ، ومن عجيب ان أتباعها يدعون أنهم يقدمون بعض المساعدات الاجتماعية عن طريقها ، كأن المساعدات الاجتماعية لا تتحقق الا عن طريق مؤسسات مشبوهة تتخذ مركزها فى شيكاغو ، ويتولى الصهاينة أمرها .

ويدعون كذلك أنهم لا يتأكدون من انحراف هذه المؤسسات ونقول لهم ان الشبهة وحدها كافية للبعد عن مؤسسات تتهم بالخيانة الدينية والوطنية ، مرة أخرى الشبهة وحدها تكفى ، ولدينا ما هو أكثر من الشبهة والظنون .

ويفرحون بتخفيضات كبيرة تقدمها لهم الطائرات والفنادق إذا قاموا

برحلة ، ونسوا أن الهيئات الصهيونية تدفع الفَرْقَ للإغراء ، بدليل أن هذه التخفيضات الواسعة لا تُقدَّم للجمعيات الأخرى .

وعن العوامل الخارجية نذكر أن الحركة الصليبية لا تزال قوية في العالم الإسلامي متخذة طرقا جديدة ليست أقل خطرا من الطرق التي استعملها الصليبيون خلال هجماتهم على الشام ومصر سنة ١٠٩٦م وما بعدها ، والطرق الجديدة هي إسرائيل ، وهي امتداد للصليبيين يحمل كل حقد الصليبيين وحقد اليهود جميعا والدولار الأمريكي يمثل خنجرا ساما يصوبه أصحابه لقلوب المسلمين ، فالأمريكيون لا يقدّمونه الا اذا ضمنوا ربحا سريعا له من تراث المسلمين وقيمهم ، وربحا في المدى البعيد من أموالهم ، انه سلاح أمضى من الصواريخ ، فليعمل المسلمون على الاستغناء عنه بجهدهم ، وبمحاولة انتاج ما يحتاجون اليه ، حتى لا يبقوا كالمسولين أمام جماعة لا تكن للمسلمين أى حب وتقدير .

ولنتذكر أن إسرائيل سنة ١٩٦٧ زحفت على مناطق عربية واسعة هي أجزاء من مصر وسوريا والأردن وفلسطين ولم تحرك أمريكا ساكنا بل باركت هذا الزحف ، فلما تقدمنا سنة ١٩٧٣ لنسترد أرضنا أسرع أمريكا بسلاحها الفتاك تقاوم زحفنا لاسترداد أرضنا . حسابهم على الله .

ويشيع أن إسرائيل وراء السموم البيضاء وأنواع المخدرات التي تندفع الى بلادنا ، فلنقاوم بكل عزيمة هذه الآفات المدمرة .

ولنتذكر كذلك أن الصليبيين تحالفوا في الماضي مع المغول لتدمير العالم الإسلامي ، وهم الآن يتحالفون مع اليهود لنفس الغرض ، فلنفهم .

وهكذا اذا كان الاستعمار العسكرى قد توقف فان صورا من الاستعمار قد حلت محله ، تتمثل في الخبراء والقروض والمعاهدات غير المتكافئة ، فلنحذر كل ذلك ، ولنفتح عيوننا حتى لا نؤخذ على غرة .

وعن الأسباب التي ترتبط بالاتجاهات الدينية علينا أن نعرف أن الإسلام إشراقة نور للبشرية ، وأنه لا يمكن أن يوجد به أى أثر

للتخلف والضعف ، ولذلك نلتزم بأن نصلح أنفسنا حتى ننتفع بهذا الدين العظيم ، وأمامنا مصادر الاسلام لنستمد منها القوة التي استمدتها أجدادنا السابقون فحققوا أعظم نصر في أقصر وقت •

فالدين الاسلامي دين شورى ، ودين عدالة اجتماعية ، ودين متطور يناسب كل زمان ومكان كما أسلفنا ، وهو دين يحترم العقل ويقدره ، ويستجيب لحاجات الناس والمجتمع ، وهو دين يهتم بالجانب الروحي ، فاذا توقف به بعض الناس ، أو اتجهوا به اتجاهها ماديا صرفا فهذا خطأ لا بد من تصحيحه •

ولم يقاوم الدين قط الاصلاحات العلمية والاجتماعية ، فليسكن أولئك الذين يقاومون الاصلاحات باسم الدين •

والاسلام لا يقبل الشرك بأية صورة من الصور ، فأولئك الذين يقيمون القباب للأولياء ويحجون اليهم ويهتفون بهم لقضاء حاجتهم ... عليهم أن يعرفوا أن هذا ليس من الاسلام في شيء ، فالله وحده هو المعطى والمجيب وهو قريب يجيب دعوة الداعي اذا دعاه •

وليس لمسلم أن يكفر مسلما إذا خالفه في الرأي ، فالعقيدة سر بين الله والناس ، فما دام الانسان قد أعلن اسلامه فليترك ما وراء ذلك لله سبحانه وتعالى •

وقد أفسدت الضلالات العقائدية ما شاء لها أن تفسد كما فعلت خرافة معين الدين شيبستي ، وكما فعلت القاديانية ، ولا بد من إيقاف هذا الباطل ومحاربته ليعود الناس إلى الإسلام الصحيح ، وتكون المواجهة فكريّة ، وبالحكمة والموعظة الحسنة ، وأغلب الظن أن تأثيرها سيكون حاسما مع الزمسان •

أما الأزهر الشريف والمعاهد الاسلامية في كل مكان فعليها أن تطور الدراسة فيها ، وأن يكون بها خلق الاسلام واضحا ، وأن يكون المتخرج فيها واسع المعرفة بالفكر الاسلامي واللغة العربية •

رابعاً — الاصلاحات العلمية

العلوم التي نعيها هنا هي العلوم العقلية وعلوم الشريعة جميعاً ،
ذكلاهما لازم لصلاح الدنيا والآخرة ، وكلاهما يعاني تخلفاً في العالم
الاسلامى ، لعل الأوان قد آن لازالته ، ولعل الوقت قد حان للقضاء على
هذا التخلف وسنتكلم فيما يلى كلمة عن كل طائفة من هاتين الطائفتين :

العلوم العقلية :

تخلف العالم الاسلامى تخلفاً واضحاً في العلوم النظرية والعقلية
وأصبح المسلمون في الكثير الغالب عالة على سواهم في التطور العلمى ، مع
أن لهم تاريخاً حافلاً في ميدان العلوم والفلسفة ، فقد كانوا حماة للعلم
ورعاته عدة قرون حين كان الظلام يكسو أوربا ، وحين كانت أمريكا
لا تزال في طى الغيب وفي عالم المجهول ، « إنهم كانوا الأساتذة الذين
ثقفوا العالم الحديث بنتاج العالم القديم ، ففتحو بذلك أمام التفكير
الأوروبى آفاقاً جديدة ، وهزوا العقل الأوروبى وحملوه على البحث والمناقشة
في أمور كان يأخذها بالتسليم والخضوع » (١) وشملت الدراسات العلمية
عند المسلمين شتى المعارف ، شملت الفلسفة وعلوم الرياضة (الحساب —
الجبر — الهندسة — المثلثات — الفلك) والعلوم الطبيعية (الكيمياء —
علم الحياة — الطب — التشريح — الصيدلة) وغيرها من الدراسات ،
وكان لهم في كل منها باع طویل » (٢) .

ثم مر الزمن وضعف المسلمون في شتى الميادين ومنها الميدان العلمى ،

(١) عمر فروخ : عبقرية العرب في العلم والفلسفة ص ١٧ .

(٢) انظر الكتب الآتية عن جهد المسلمين في الدراسات العلمية :

١ — عبقرية العرب في العلم والفلسفة للدكتور عمر فروخ

على أن ضعف المسلمين في المجال العلمي كان في الحقيقة أثراً من آثار
ضعفهم السياسي ، فالنهضة العلمية المبكرة في العالم الاسلامي لم يكن من
الممكن أن تستمر في ازدهارها في ظل الممالك الأتراك ومن شأنهم من
الحكام الجهلة الذين لا يعرفون الا البطش والتدمير والذين يحاربون
البناء والتفكير .

على أن الضعف العلمي الذي بدأ في عهود الممالك وصل غايته في
عهد الاستعمار الأوربي للدول الاسلامية ، فقد كان هذا العهد عهد الابتكار
والفكر ، ولكن الغرب شل عقول المسلمين وحرّمهم التفكير ، ولا يمكن أن
ترجى نهضة علمية في جو من الارهاب والقيود والعبودية ، وفي جو من
الفقر والمرض والجهل ، تلك الآفات التي بذرها الغرب في الدول الاسلامية
التي أخضعها اليه .

وقد تعلم الغرب من المسلمين ، وكانت الجامعات والمدارس الاسلامية
في الأندلس وصقلية والشام ومصر مراكز اشعاع عالمي ، التحق بها الطلاب
الأوربيون فنهلوا منها ، ثم كانت معارفهم هذه أساساً لنهضة أوروبا ،
فالحقيقة أن الغرب أخذ قبس المعرفة الأول من المسلمين ، بيد أن المسلمين

٢ — مآثر العرب في الرياضيات والفلك للاستاذ منصور حنا .

٣ = George Sarton : The Incubation of Western Culture in the Middle East

٤ — تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك للاستاذ قدري طوقان .

٥ — علم الفلك وتطوره عند العرب لكارلو تليو .

٦ — Browne : Arabian Medicine

٧ — طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة .

٨ — Encyclopaedia Britannica

٩ — الفكر الاسلامي : منابعه وآثاره الذي ترجمه المؤلف عن اللغة
الانجليزية .

متهاونوا بعد ذلك ، وسار الغرب قدما حتى حقق تقدما كبيرا في الاختراع والبحث والصناعة .

نهضة أوروبا مدمرة :

ولكن النهضة العلمية التي وصل لها الغرب هي في الحقيقة نهضة مدمرة ، تهدد العالم كله بالفناء ، وتتركه قبل الفناء يعيش في خوف ووجل متوقعا الخراب والدمار ، أو بعبارة أخرى يعيش يتقرب الفناء ، مئات الملايين من الجنيئات يمكن أن تسعد البشر ، ولكنها بدلا من ذلك تنفق لانتاج القنابل الذرية والهيدروجينية التي تشعّد للقضاء على البشر ، وكل ذلك لأن هذه المدنية ملحدة ، مدنية بنيت على نظام اقتصادي ، أباحت للانسان أن يقتل أخاه الانسان ليحصل على ما في يده من طعام أو كساء ، ولم يدخلها عنصر الأخلاق ولا عنصر الايمان ، ومن هنا فهي سراب يضىء ولكنه ضوء خداع ، فلقد بلغت النهضة الصناعية في ألمانيا غايتها قبل الحرب العالمية الثانية ، وكانت ألمانيا في المقدمة بين دول العالم مدنية وحضارة . ولكن هذه المدنية المدمرة كلفت العالم ملايين البشر يخرون صرعى وجرحى في الحرب التي شنتها ألمانيا ، أو التي دُفِعَت إليها ، وكان تفتتت الذرة أرقى ما وصل له الفكر الانساني ، ولكن سرعان ما دمر وأفنى في اليابان قبل أن يعرف الناس من خيره قليلا أو كثيرا .

ليست هذه هي المدنية التي نريدها ، نريد مدنية تخدم البشر وتساعد على رفعة شأن الانسان ، نريد مدنية خَيْرَةٌ لا مدنية شريرة مهلكة ، والطريق التي ذلك أن ينمو العلم في بيئة تعرف الدين وتعرف الأخلاق ، حتى يعمل العقل منطلقا حرا الا من قيد الايمان وقيد الأخلاق ، وهذه البيئة هي البيئة الاسلامية ، وقد آن للمسلمين بعد أن تحرروا سياسيا أن يسيروا في نضالهم العلمي ، وأن يأخذوا دورهم في الاختراع والابتكار والصناعة ، وهذه السطور تكتب وقد خطت كثير من البلاد العربية والاسلامية شوطا طيبا في هذا المجال ، فانتشرت في أنحائها المصانع

وبدأ انتاجها يظهر : ويرجى أن تسير قدما في هذا الطريق ، وأن تفسر معها
الدول الاسلامية الأخرى ، وسيكون نتاج مصانع العالم الاسلامي خيرا
وبركة على الانسان لا تدميرا وتخريرا .

ولسنا في حاجة الآن لأن ندافع عن العلم ونؤيده ضد هجمات الفقهاء ،
فقد وليّ الزمن الذي كان الفقهاء فيه يتحكمون في العلم ويُسْتَأْذَنون قبل
أن تدرس الطبيعة والكيمياء ، وأصبحت معامل البحث في العالم الاسلامي
حرة طليقة ، وليس على الشباب المسلم الا أن يجدّ ويكدح الذهن ، وأن
يعرف ما وصلت له أبحاث العباقرة العالميين ثم يحاول أن يخطو بعد ذلك
خطوة الى الأمام أو خطوات .

وليفطن المسلمون الى حقيقة هامة ، هي أن ما حصلوا عليه من حرية
واستقلال سيضيع ويفنى اذا لم يحرسه المسلمون بالتقدم العلمي والتقدم
الاقتصادي أو قل الاستقلال الاقتصادي ، وان من أسلحة الاستعمار
الحديثة التي اقترحها الغرب وروسيا بعد ان فشلا في الاستعمار السياسي أن
يستعمرا الدول اقتصاديا ، وكثير من الناس كما قلت من قبل يصفون الدولار
الأمريكي بأنه سلاح من أقسى أسلحة الاستعمار ، وأشدّها بطشا ،
وأكثرها تدميرا ، وأنه يوقف القوى الناهضة ، ويحول دون تحقيق أي
تقدم في أي ميدان .

والعجيب أن القروض أعباء بدون نتائج في كثير من الحالات ، فاذا
اقترضنا من أمريكا مائة مليون دولار لمشروع ما ، ألزمتنا بتوظيف خبراءها
وشراء معدات منها ، فيعود بذلك أكثر القرض الى جيوبهم .

وحراسة الاستقلال تحتاج الى سلاح لا بد أن نعمل على أن ننتجه ،
وآلا نقنع بشرائه من الغرب ، فان هذا يجعل تجار السلاح ملاكا للحرية .
وليست الأسلحة فقط هي التي يجب أن يعنى بها العالم الاسلامي ،
وانما يجب أن يعنى بشتى الثغور العلمية ، وبنواحي التقدم الصناعي

الذى يضمن له استقلالاً اقتصادياً ويحرس استقلاله السياسى ، وبخاصة أن الدول الإسلامية من أكبر دول العالم فى إنتاج البترول ، وأن بها المواد الأولية اللازمة لكثير من الصناعات ، وأن الأيدى العاملة بها متوافرة ، والعقول المفكرة كثيرة ، ولم يبق الا أن نحرر هذه العقول ، ونطلق هذه الأيدى ، ونبدأ النضال .

العلوم الشرعية :

لقد اتضح لنا من قبل ما وصلت له الدراسات الشرعية من تخلف ، حتى عدّها الباحثون من العوامل التى سببت تدهور العالم الإسلامى ، ولا بد لنا فى نهضتنا الحالية أن نصلح هذه الدراسات ، حتى يعود الدين كما كان فى صدر الإسلام ، وكما يجب أن يكون دائماً مصدراً من مصادر النهضة ، وضوءاً ينير لنا ونحن نبني مجدنا ونحث الخطا الى الغاية الحميدة .

وقد فصلنا القول — فيما سبق — فى المشكلات التى جعلت من الفقهاء ومن الدراسات الشرعية عائقاً يوقف تطورها ويحول دون نهضتنا ، والسبيل الذى نصفه الآن للعلاج والقضاء على هذه المشكلات ، هو :

— اعادة الجانب الروحى للدراسات الإسلامية .

— الاجتهاد الذى يوفق بين الإسلام ومصالح الناس فى حدود مبادئ الإسلام العليا ، ويوضح ما لا يزال خافياً من تفاصيل النظم الإسلامية .

— الانتفاع بالمذاهب الإسلامية المختلفة .

— ايضاح أن الدين للبشر لا للملائكة ، بمعنى أن المسلم ليس معصوماً وكلّ ما يطلبه منه الإسلام أن يبتعد عن الكبائر ، وأن يتحاشى الصغائر بقدر الامكان ، وأن يكثر من الحسنات ، ويؤدى التزامات الإسلام وأركانها .

كان فعل ذلك كانت له السلامة تبعاً لقوله تعالى « أما من ثقلت موازينه ذنبو في عيشة راضية ، وأما من خفت موازينه فأثمه هاوية » .

— ثم التقريب الثقافي بين بلدان العالم الاسلامى .

— وأخيراً لابد أن يأخذ علم مقارنة الأديان وعلم الحضارة الاسلامية مكانهما الرفيع بين الدراسات الاسلامية .

وقبل أن نزيد هذه المسائل وضوحاً نقرر أن القيام بهذا العمل الاصلاحى سيتطلب جهداً كبيراً ، ولكننا لن نعفى المسلمين ملوكهم ورؤساءهم وقادتهم وعلماءهم من البدء القوى والسير الحثيث لبلوغ هذه الغاية ، والخروج بالمسلمين من الظلمات الى النور .

واعادة الجانب الروحى للدراسات الاسلامية تستلزم أن نعيد — بروح جديدة — كتابة الفقه الاسلامى ، ونعيد تفسير القرآن الكريم ، وتمحيص كتب الحديث ، ثم أن نعيد كتابة التاريخ الاسلامى والفلسفة الاسلامية ، وأن ندون تاريخ الحضارة الاسلامية ، بل كان علينا أن نعيد كتابة علوم تتصل بالدراسات الاسلامية كقواعد اللغة العربية وكالبلاغة العربية ، وقد قام جيلنا بحمد الله بالكثير من ذلك كما سبق القول .

واذا كان القارئ قد أحس أن هذا العمل صعب المنال ، فأنا أهدىء من روعة وأقرر له أن طلائع الباحثين المجاهدين قد بدأت فعلاً تعمل لتحقيق هذه الغاية في مختلف الميادين ، وما علينا الا أن نساعد هذه الطليعة حتى تتخلص من بقايا الماضى التى تلاحقها وتتسرب أحياناً الى عملها . ثم علينا أن نوحّد هذه الجهود ونشد أزرها مادياً وأدبياً حتى تصل الى الهدف ، ولن يضى وقت طويل حتى يكون معنا فقه يصبر لنا ربح محمد ابن عبد الله وأصحابه حين كانوا يقومون بالفتيا ، ويكون معنا تفسير لا يعنى بقواعد اللغة وعلوم البلاغة واختلاف الفقهاء ، وإنما يعنى بجمال القرآن ،

ويبرز ما فيه من صور رائعة ، في أسلوب يفهمه أولئك الذين قصروا عن
التسلق مع القرآن في اعجازه وسموه ، وهكذا في مختلف الدراسات .

أما عن الاجتهاد فهناك تراث واسع خلفه لنا السابقون الأولون .
وبخاصة الخليفة عمر ، وما علينا الا أن نسير على ضوئه ، فلا يمكن أن
يسير المسلمون ويبقى الاسلام بعيدا عنهم ، نريد رأى الاسلام في
المشكلات التي تشغل الناس ، ولا نريد من الفقهاء أن يقفوا موقفا جامدا
يجعل الاسلام يتعارض مع حاجات الناس ، أو أن يقفوا موقفا صامتا فيما
يشغل الناس من أحوال ، ولأضرب لك مثالا يبين الخير الذي يعود على
العالم الاسلامي من اجتهاد الفقهاء : كانت مصر والعالم الاسلامي كله
تسير في الميراث على قاعدة أن الأحفاد الذين مات أبوهم قبل جدهم
لا يرثون من جدهم شيئا اذا كان لهذا الجد ابن مباشر ، فهذا الابن يحجب
أبناء الابن ، وكم ترتب على هذه القاعدة من شرور ، فأنا واخوتي مثلا
لم نرث شيئا عن جدنا لأن أبانا مات قبله ولنا أعمام حجبونا عن الميراث
ومات بعض الأعمام بعد ذلك وآل ميراثهم الى أولادهم ، فأخذ أولاد
أعمامنا ميراث جدنا ولم ننل نحن شيئا منه مع أن أبانا كان ساعد أبيه في
تكوين هذه الثروة .

وفكر الفقهاء المصريون في هذه الحال ومثالها وهي كثيرة الوقوع أو
قل في الحقيقة ان الحكومة المصرية هي التي فكرت ، ولجأت الى الفقهاء
لايجاد حل لهذه المسألة ، ووجد الفقهاء الحل الموفق في شريعتنا السمحة
بنظام « الوصية الواجبة » وصدر به قانون سنة ١٩٤٣ ، وأصبح معمولا
به في مصر منذ ذلك التاريخ ، وبمقتضى هذا الحل أصبح أولاد الابن المتوفى
يأخذون نصيب أبيهم أو ثلث التركة (الأقل من هذين النصيبين) عن
طريق وصية واجبة يلزم أن يقوم بها الجد لهم ، فاذا لم يقوم بها الجد
اعتبر كأنه قام بها ، ونفذت .

هذه صورة رائعة من صور التطور في الشريعة الاسلامية ، نذكرها
مؤكدین أن فی شریعتنا عشرات الأمثلة أو مئات الأمثلة لها لو درسناها
بروح مؤمنة طليقة تعمل للخير وللصالح العالم •

ونحن نهتف بالحکومات الاسلامية أن تكون كل منها هيئة إلهدا
الغرض ، وعلى المجتهد الفرد أو على هذه الهيئة أن تدرس المعین الأساسی
للشريعة الاسلامية وهو القرآن الكريم والحديث الشريف ، ثم تعمل
على ادراك الاسلام واتجاهاته ، ثم تحيط باجتهاد السابقين الأولین ،
ثم تدرس آراء الفرق الاسلامية كأهل السنة والشيعة ، وآراء أصحاب
المذاهب الأربعة وغيرها من المذاهب ، ثم تدرس المجتمع الذى يعيش
فيه المسلمون وتعرف حاجات هذا المجتمع وضروراته ، ثم تلقى هذه
الهيئة بفتاواها فى ضوء هذه الدراسات •

وإذا لم يتفق أعضاء هذه الهيئة على قرار موحد فى موضوع من
الموضوعات ، فلتصدر الهيئة قرارها بأن هناك اتجاهين فى الهيئة ، وعلى
كل مسلم أن يختار ما يراه منهما •

كثير من الذخائر والمنافع يمكن أن يتوقعه المسلمون من هيئة كهذه ،
ومن دراسات تتخذ هذا الاتجاه ، ومن الحق أن نقرر أن مصر تدخل فى
تشريعاتها كثيرا من آراء الشيعة وبخاصة الامامية والزيدية الذين هم أقرب
طوائف الشيعة لأهل السنة ، وقد تكونت فى مصر هيئة تسمى « جماعة
التقريب بين المذاهب الاسلامية » وينتمى اليها علماء من أقطار مختلفة ،
ومن مذاهب متعددة متحابين متعاونين ، ينظرون بنجل الى ما دونه التاريخ
من صراع بين أتباع المذاهب المختلفة ، ويدركون أن الفرق والمذاهب
الاسلامية — اذا بعدت عن الأغراض الذاتية — ليست الا فروعا لدوحة
واحدة هى الاسلام ، ويجب أن تعمل متساندة لاسعاد المسلمين •

ويوم تتكون هيئة اسلامية للبحث والاجتهاد سيكون عليها أن توضح

من النظم الاسلامية نقاطا لا تزال غامضة ؛ ستضع نظاما للشورى له
تذاسيله ونظمه ، وستبين من هم أهل الحل والعقد ، وغير ذلك من الأمثلة
التي لم يبحثها الأولون •

وتسألنى : لماذا أهملَ الباحثون الكتابة عن نظام الشورى وأهل
الحل والعقد في عصور التدوين ؟

وأجيب : أن مثل هذه النظم السياسية ليست في الواقع الا تقليلا
لسلطة الخلفاء والملوك والأمراء ، ولم يستطع الفقهاء أن يتكلموا فيها
مجاورة لهؤلاء أو خوفا منهم ، كما لم يستطيعوا أن يتكلموا عن تقييد تعدد
الزوجات لأن هؤلاء الحكام كانوا من هواة التعدد دون قيد أو شرط •

وربما كتب بعض الفقهاء ثم ماتت كتابتهم في حياتهم أو بعدهم لهذا
السبب نفسه •

إن المسلمين لا يزالون يذكرون بالتمجيد والتعظيم جمال الدين الأفغانى
ومحمد عبده والحاج دحلان وغيرهم من طليعة الباشاين والمفكرين المسلمين ،
ونود أن نقول بصراحة إن عندنا اليوم أفغانيين اثنين جدا • ويجب أن
يحقق علماء اليوم أضعاف ما حققه علماء الأمس ، فكل شيء مهيا لنهضة
إصلاحية كبرى •

الدين للبشر :

وهنا نقطة اصلاحية مهمة نود أن نلفت لها الأنظار ، وهى أن الدين
الاسلامى دين للبشر ، فمن الملاحظات التي أدركتها ، تحاملُ العلماء
على الشبان ، فاذا أخطأ شاب صوروه في صورة المتمرّد ، وأبرزوا خطيئته
وكبروها وتناسوا حسناته واتجاهاته الخيرة ويهاجم ابن تيمية هذا
الاتجاه ، ويقرر أن من حمليه الحياة الدينية والخلقية أن تحمى المجتمع

من الخلو في الدين ومن أن ينزل البشر منزلة الملائكة أو المعصومين (١) ،
ونحب أن نوضح لهؤلاء أن هذه الطريقة ليست طريقة اسلامية ، انها
طريقة تقوم اذا فرض أن السيئات تأكل الحسنات ، أما في الاسلام
فـ « إن الحسنات يذهبن السيئات » كما جاء في القرآن الكريم (٢) والحسنات
تأكل السيئات كما تأكل النار الحطب كما وضع ذلك الرسول عليه السلام .

فنحن نقولها كلمة صريحة : ان الاسلام دين المصطفى والمطيع ،
والحكيم من الفقهاء هو الذي يجذب العصاة الى رحاب الطاعة ، ويوليهم
من سماحته وصفاته ما يجذب لهم العودة للطريق القويم ، فان الإعراض
عن هؤلاء يزيدهم إعراضا عن الاسلام وبعدا عن تعاليمه ، وعلينا من جهة
عن هؤلاء يزيدهم إعراضا عن الاسلام وبعدا عن تعاليمه ، وعلينا من جهة
أخرى أن نحث العاصي في ناحية أن يحاول أن يقلل من عصيانه فيها ،
ومن ناحية أخرى أن يكثر من حسناته حتى ترجح حسناته سيئاته « فأما
من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية ، وأما من خفت موازينه فأما
هناوية » (٣) .

ونسوق هنا بعض آيات القرآن التي تقوى الأمل في عفو الله :

— إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء (٤) .

— ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة
والذين هم بآياتنا يؤمنون (٥) .

— يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله
إن الله يغفر الذنوب جميعاً (٦) .

(١) الحسبة ص ٣٧ .

(٢) سورة هود الآية ١١٤ .

(٣) سورة القارعة الآيات ٦ — ٩ .

(٤) سورة النساء الآية ١١٦ .

(٥) سورة الأعراف الآية ٢٥٦ .

(٦) سورة الزمر الآية ٥٣ .

التقريب الثقافي بين بلدان العالم الإسلامى :

بقى بعد ذلك أن نتكلم كلمة عن التقريب الثقافى بين بلدان العالم الاسلامى ، وقد دعانى الى ذلك ما لاحظته حين زيارتى لأقطار العالم الاسلامى ، والذي يقوم بمثل هذه الزيارات يدرك الفرق الكبير فى الدراسات الاسلامية بين ما حققته جامعة القاهرة مثلا وبين ما لا يزال يدرس فى بعض الأقطار الاسلامية الأخرى ، حتى لقد اضطرت بعد أن زرت فى اندونيسيا كثيرا من معاهد العلم والمكتبات ورأيت مستوى تدريس الدراسات الاسلامية واللغة العربية ، أن أقول إن الاسلام فى مصر يوشك أن يكون غير الاسلام فى اندونيسيا ، وان اللغة العربية هنا غيرها هناك .

إن الفقه الاسلامى والفقه المقارن الذى يدرس بكلية الحقوق بجامعة القاهرة بعيد كل البعد عن الفقه الذى يدرس فى اندونيسيا ، وان الفلسفة الاسلامية التى يتلقاها طلاب جامعة القاهرة غير الفلسفة الاسلامية التى يشتغل بها الطلاب الاندونيسيون ، وتاريخ الحضارة الاسلامية يوشك ألا يكون معروفا فى اندونيسيا على الاطلاق ، وقل مثل هذا فى التفسير والحديث وغيرهما من الدراسات الإسلامية .

أما اللغة العربية فى اندونيسيا فقد رأيت بنفسى أن طريق تقديمها هو تعليم ألفية ابن مالك ويجرى ذلك للطلاب المبتدئين الذين لم يعرفوا بعد كلمة واحدة فى اللغة العربية ، فألفية ابن مالك تشكل لهم أساسا ، بل على أنها اللغة نفسها ، وطلاب الأزهر وكلية دار العلوم وكلية الآداب تعهدوا أن يفروا من ألفية ابن مالك مع تفانيهم البالغ فى اللغة العربية ، فإذا فر منها الطلاب الاندونيسيون فإن لهم كامل الضرر ، لأن الطلاب يبدأ دراسته للغة العربية ظاننا أنه سيعرف لغة القرآن بما لها من آداب وثقافات ، وما كتب بها من تاريخ وفلسفة ، ولكنه يرمى السنين غارقا فى عجمة اللغة دون أن يدقق أى هدف ، فيفر من الألفية وان كان قراره منها يفر من اللغة العربية كلها .

رما يقال عن إندونيسيا يقال عن سواها في كثير من الدول الإسلامية بل يقال عن بعض المعاهد المصرية التي لا تزال متخلفة شوطا طويلا أو قصيرا عن الغاية التي وصلت لها الدراسات في جامعة القاهرة وغيرها من الجامعات المماثلة .

من المسئول عن هذا التفاوت الضخم ؟ وأيما ما كان الجواب فنحن نقرر بقوة ضرورة التقريب الثقافي بين هذه الدول الإسلامية الشقيقة ، فيجب ألا تنقطع وفود الطلاب والعلمين بين هذه الدول ، وكل ما تحققه دولة من تقدم في الميدان الثقافي يجب أن يقدم بسرعة الى غيرها من الدول الإسلامية .

على أن هناك شيئا يمكن أن يعد خاصا بإندونيسيا من بين الدول الإسلامية ، ويتضح ذلك من المقارنة التي يمكن أن نجريها بين طالبين مسلمين أحدهما مصري والثاني إندونيسي ، وكل منهما يتعلم الطب أو الاقتصاد في بلده . ماذا نرى من الفرق بينهما فيما يختص بالدراسات الإسلامية ؟ .

نجد الطالب المصري يعرف مقدارا لا بأس به من الدراسات الإسلامية ، تلقاه قبل أن يصل الى كلية الطب ، تلقاه في المدرسة الابتدائية والاعدادية والثانوية أما زميله الإندونيسي فالمقدار الذي يعرفه عن الدين الإسلامي وعن الدراسات الإسلامية ضحل أو لا شيء على الإطلاق ، فإن الدين الإسلامي لا يجد أية عناية في المدارس التابعة لوزارة المعارف الإندونيسية ابتدائية كانت أو اعدادية أو ثانوية ، فإذا لم يتح للطلاب دراسة في البيت مرء خالي الوفاض من هذه الدراسات وتلك العقيدة .

ونرجو أن تتدارك إندونيسيا وما مائلها من البلدان الإسلامية هذا النقص ، فالدراسة الروحية من أهم العوامل لتكوين المواطن الصالح ، وخلق الإنسان الكامل أو القريب من الكمال ، وتدل الأنباء الواردة حديثا من إندونيسيا أن هذا القطر الشقيق الكبير بدأ يتدارك ما فاتته في هذا المجال .

خامسا — جامعة الدول الإسلامية

ضرورتها :

أوضحنا فيما سبق أن عدااء الغرب للعالم الإسلامي هو عدااء ديني ما في ذلك شك ، فاذا هاجمت إحدى دول الغرب أو هاجمت هذه الدول مجتمعة مصرَ مثلا ، فليس هذا العدااء موجها الى مصر بذاتها وانما هو موجه الى جزء من أجزاء العالم الاسلامي ، فاذا انتصر الغرب في هجومه على هذا العضو انثنى يهاجم عضوا آخر وهكذا دواليك •

ومن الضروري ، وقد وَضَحَتْ هذه الحقيقة ، أن تترتب عليها نتيجة لا محيص عنها ، هي أن يحس العالم الاسلامي بهذا الخطر ، وأن يجمع شمله ، ويقابل الأحداث خيرا وشرا كتلة واحدة ، ترد الاعتداء وتواجه الاستعمار •

إن العدو متعاون بأقوى ما تحتمله هذه الكلمة من معنى ، فعلى المسلمين أن يتعاونوا ، والا كانت شرقتهم أكبر عون يقدمونه لهذا العدو ، وكانت أقوى الأسباب التي تقود الى هزيمتهم •

ونحب أن نوضح بادىء ذي بدء أن الارتباط بين أجزاء العالم الاسلامي على شرعه الله وقرره ، وأن التهاون في تنفيذه تضيق لبدأ مهم من المبادئ الاسلامية ، استمع الى قوله تعالى :

— وإن هذه أمتكم أمة واحدة (١) •

— إنما المؤمنون إخوة (٢) •

— والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض (٣) •

(١) سورة المؤمنون الآية ٥٢ •

(٢) سورة الحجرات الآية العاشرة •

(٣) سورة الممتحنة الآية ٧١ •

• أودع الرسول صلوات الله عليه هذه المسألة أيضا لا يحتاج الى مزيد ، استمع الى قوله : « إن سلم المؤمن واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن » •

والشريعة الاسلامية بطبيعتها تخلق ارتباطا كبيرا بين معتقبيها ،
ارتباطا يعتبر تضامنا طبيعيا ، أدركه المسلمون أو غفلوا عنه ، انهم يرتبطون عن طريق الصلاة ، حيث يتجهون جميعا الى الله يرددون نفس الكلمات ، ويؤدون نفس الأركان ، وهناك تصوير جميل وضعه باحث مسيحي يصور به المسلمين وهم يصلون ، ونحن نقتبسه فيما يلي : واذا نظرت الى العالم الاسلامي في ساعة الصلاة بعين طائر في الفضاء ، وقدر لك أن تستوعب جميع أنحائه بقطع النظر عن خطوط الطول والعرض ، لرأيت دوائر عديدة من المتعبدین تدور حول مركز واحد هو الكعبة ، وتنتشر في مساحة تزداد قدرا وحجما منتهية من سيراليون (Sierra Leone) في الغرب الى كانتون (Canton) في الشرق ، ومن توبولسك (Tobolsk) في الشمال الى رأس الرجاء الصالح (Cape Town) في الجنوب (١) •

والى الكعبة المكرمة تتجه أفواج الحجاج من كل فج عميق ، تقطع الهواء أو تجوب الصحراء أو تشق عباب الماء ، فاذا وصلت هناك أفواجهم التقتوا أسرة واحدة وامترجت أحاسيسهم وأصواتهم في التكبير والتهليل •

والقرآن الكريم يتلوه ويرثله ملايين المسلمين في مختلف البقاع ، ولو أتيح لإنسان أن يرى الكرة الأرضية ويسمع أصوات سكانها على النحو السابق لشاهد آلاف المسلمين يجلسون في خشوع وإجلال أمام المصاحف ، ولسوف آلاف الأصوات تتصاعد بآيات الذكر الحكيم •

وهناك شهر رمضان حيث يصوم المسلمون في مختلف البلاد ،

فيشتركون فيما يسببه الصوم من جوع وحرمان ، وينعمون بما ينجيه
من طهر وصفاء •

ويرتبط المسلمون إرتباطا طبيعيا في تحريم الربا والخمر والميتة والدم
ولحم الخنزير وما أِهلٌ لغير الله به ، ويرتبطون ارتباطا طبيعيا في قوانين
الزواج والطلاق والميراث ، أو قل على العموم انهم يرتبطون في العقائد
والعادات والمعاملات والآمال ، ومثل هذه الارتباطات تجعل الارتباط
السياسي بين هذه الأمم أمرا طبيعيا ، وتصور الفرقة بينها شيئا غريبا
عن الاسلام وتعاليمه •

وقد تكون حكومات الدول الاسلامية مؤيدة لهذا التجمع السياسي
أو معارضة له ، ولكن الذي لا شك فيه أن الشعوب تؤيده بل تسير نحوه ،
أو قل أكثر من ذلك ، قل انها تحس به وتعيش فيه وتتصرف بمقتضاه •

لقد كنت في إندونيسيا حين وقوع الاعتداء الانجليزى الفرنسى
الصهيونى على مصر ، فماذا وجدت ؟ لم أحس أنى بعيد عن مصر ، وانما
أحسست أنى فيها ، لقد توقفت الأغاني من الاذاعة المصرية فتوقفت من
الاذاعة الأندونيسية ، وهب المصريون للوقوف في وجه الاعتداء ، وهب
الإندونيسيون يأخذون نصيبا كاملا من الجهاد فأحدثوا شكلا في مصالح
المعتدين باندونيسيا وجادوا بسخاء مادي وأدبي لتكسب مصر المعركة ،
وكان كل من حولي كان مصرية يحس باحساسى وتسير في عروقه دمائى •

وكنت بمصر حينما كانت إندونيسيا تصارع الاستعمار الهولندى قبل
ذلك ، فشهدت مصر صاخبة ساخطة تقاوم المعتدين بعزم من حديد ، وكنا
نحس بآهات الإندونيسيين ، وخیل إلينا أننا في مصر نسمع قصص المدافع
التي كانت تصب نيرانها على إخوتنا بالأرض الخضراء ، فقمنا لا نألو
بذل ، ووقفتنا بجانب الإندونيسيين حتى حققوا أمانهم •

وقل مثل هذا عن جميع الأقطار الاسلامية ، فحينما أرسلت بريطانيا فرقة هندية لتقاوم حركة استقلال اندونيسيا ثار زعماء الهند المسلمون مما اضطر بريطانيا لسحب القوات الهندية من اندونيسيا وذلك في فبراير سنة ١٩٤٦ •

وفي حركة تونس والمغرب كانت الدول الاسلامية تقدم للمكافحين هناك من العون صنوفا وألوانا ، وقد ملأت فرنسا الدنيا صراخا من المساعدات التي قدّمها المصريون للمجاهدين المسلمين في الجزائر إبان حرب التحرير الجزائرية (١) •

وفي حرب السادس من أكتوبر سنة ١٩٧٣ حين اندفعت القوات المصرية تدمر العدو الصهيوني وتقتحم قناة السويس وتحطم خط بارليف • هبّ المسلمون في كل مكان يحيثون القوات المنتصرة ويؤيدونها ، وما إن توقفت الحرب بتدخل مجلس الأمن حتى عقد مؤتمر لاهور الاسلامي في مارس ١٩٧٤ ، واتخذ المجتمعون قرارا حاسما بضرورة انسحاب العدو الصهيوني من الأرض العربية التي احتلها في عدوان ١٩٤٧ ، وبضرورة إعطاء الشعب الفلسطيني حقوقه ، وتخريب القدس لتبقى عربية اسلامية عبر الزمان •

واذا تركنا الحركات العامة وجدنا الحركات الفردية شاهدا قويا على قوة الارتباط بين المسلمين مهما اختلفت ديارهم وبعدت أقطارهم • يقول الأستاذ عبد الرحمن عزام : نزلت في جبال الأرنؤوط بالألبانيا ، ولا عهد لي بها ، ولا معرفة لأحد من أهلها ، فلمحت اسما اسلاميا على دكان فقدمت نفسي الى صاحبه ، وكأنا كنا على موعد رغم أن حديثنا كان بالاشارة ، وما لبث أن جاء لي بفقيه يعرف قليلا من العربية فتفاهمنا ،

(١) اقرا خطاب السيد احمد بن بيلال الذي يصور هذه المساعدات في الجزء الرابع من « موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية » للمؤلف •

وتولى الرجل بعد ذلك أمرى كله ، وتنقلت بعد ذلك في البلاد والناس
يوصى بعضهم بعضا بى ، ولو كنت بين أهلى ما وجدت منهم حبا أكثر مما
أوجدته لى الأخوة الاسلامية فى تلك الأيام العصيبة ، أيام حرب البلقان ،
بل اننى لا أزال أذكر أنهم أوجدوا لى فى كل بلد من يعرف العربية ومن
يلازمنى لخدمتى ومعاونتى (١) .

وفى طهران عاصمة ايران يركب موظف مصرى سيارة (تاكسى) من
بيته الى السفارة ، وهناك يرفض السائق أن يتناول أجرا من المصرى
ويقول له : دعنى أكرم فى بلادى أخا فى الدين والآمال (٢) .

وفى احدى الجامعات الاسلامية الآسيوية التقيت بوفد من مسلمى
الصين جاء لزيارة اندونيسيا ، وما ان التقينا حتى شذ كل منا على يد
صاحبه وأحس الصينى والاندونيسى والمصرى أن هناك رباطا قويا يربط
بينهم ، رباطا روحيا أسمى من كل رباط . وأذكر أنه طُلب منى أن ألقى
خطابا فى هذا الاجتماع فتحدثت وشرحت الأحاسيس الطيبة التى تسود
اجتماعنا وتسيطر علينا . وقارنت ذلك باجتماعات هيئة الأمم المتحدة حيث
الفرقة . والنفور ، وحيث لا رباط بين المجتمعين الا كلمات جعلوها دستوراً
ثم أهملوها أو مزقوها .

وحسبك أن تطوف العالم الاسلامى لترى أنك دائما بين أهل واخوان ،
ولتدرك أن شعوب المسلمين لا تعترف بالحدود الاقليمية التى صنعها
الاستعمار ليمزق بها الوطن الاسلامى الواحد .

وقبل أن أتحدث عن طبيعة الارتباط الذى نريده ونسعى لتحقيقه بين
دول العالم الاسلامى ، يجدر بى أن أوضح أن العصر الحديث أبرز لنا

(١) الرسالة الخالدة ص ٤٨ .

(٢) جريدة الجمهورية ١٩٥٦/٩/٦ .

الرابطة من الروابط التي تقوم على أسس واهية إذا قيست بالأساس الذي يربط بين دول العالم الاسلامي ، فهناك مثلاً حلف شمال الأطلسي فوقوع بعض الدول على هذا المحيط كاف ليربط بينها وليوحد بين قوتها ، وهناك الدول الآسيوية الإفريقية التي يربط بينها وقوتها في إحدى هاتين القارتين ، ولا نزاع أن هذه الروابط ليست بشيء إذا قيست بالروابط المتعددة الجوانب التي يرتبط بها المسلمون في العقائد والعادات والمعاملات والعبادات والآمال كما سبق القول •

ما المقصود بجامعة الدول الإسلامية ؟

والآن نحب أن نوضح : ما هي جامعة الدول الإسلامية التي ندعو إليها ؟

الجواب عندي أنها ليست الجامعة الإسلامية التي تحدث الناس عنها من قبل ، أنها ليست خلافة أو زعامة ، ولكنها شيء أسمى من هذا ، أنها كما وصفها القرآن الكريم •

— إنما المؤمنون إخوة (١) •

— وإن هذه أمتكم أمة واحدة (٢) •

أو قل أنها وضع أحاسيس المسلمين في دستور يتبع ويهتدى به ، أنها ارتباط في الآلام والسرور ، في الغنى والفقر ، في الحرمان والوجدان ، في الشدة والرخاء ، أنها رابطة تسخر من أن يظل المسلمون على صلة بالولايات المتحدة وهي تؤيد إسرائيل في عدوانها اللئيم ، وتسخر من أن يتفرق المسلمون شيعة وأحزاباً حتى يتخطفهم العدو ، إنها رابطة تدعو إلى وضع أسس ثابتة نابغة من هدى الاسلام وأعماق الشعوب ، لتحقيق التعاون السياسي والتعاون الثقافي والتعاون الاقتصادي والتعاون الاجتماعي

(١) سورة الحجر الآية العاشرة •

(٢) سورة المؤمنون الآية ٥٢ •

انها رابطة تسعى لتحقيق الحديث الشريف « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » .

وكيف يتم هذا الارتباط ؟ هل يتم عن طريق خلافة ديمقراطية ؟ هل يتم عن طريق انشاء اتحاد الدول الاسلامية أو جامعة الدول الاسلامية ؟ هل يتم عن طريق معاهدات سياسية واقتصادية وثقافية حية ترتبط بها هذه الدول ؟ انى لا أحب أن أخوض هنا في هذه الوسائل ولكنى أتطلع الى النتائج ، وأتطلع كما قات أنفا الى وضع هدى الاسلام وأحاسيس المسلمين في دستور يتبع ويتهدى به ، وإلى ارتباط المسلمين في كافة بقاع الأرض ارتباطا يجمعهم في الشدة والرخاء ، والحرمان والخير ، والآلام والسرور .

إن القومية في العصر الحاضر قوية ، فالمصرى يحب بلاده والاندونيسى يحب بلاده ، وهكذا ، ونحن لا نحارب القومية بل نقويها ، فهي من أسس الاسلام ، فقد روى في الأثر : حب الوطن من الايمان ومن سبل تقويتها خلق ارتباط وثيق بين الدول الاسلامية يضمن السلامة والرقى لها جميعا ينهتج فيه المسلمون بأخوة صادقة وتعاون عميق ، ويتمتع فيه غير المسلمين بالحقوق الواسعة التي كفلها الاسلام لهم ، والتي نعم بها غير المسلمين في المجتمع الاسلامى في عصره الزاهر .

فاذا أخذ المسلمون بهذه الاسس الإصلاحية حققوا للمجتمع الاسلامى ما تصبو له نفوس المسلمين من رقى وسؤدد .

والله ولى التوفيق .

ثبت المراجع

- ١ — القرآن الكريم .
- ٢ — كتب التفسير .
- ٣ — كتب الاحاديث الستة .
- ٤ — مجموعة من كتب الفقه .
- ٥ — الأنجيل الاربعة .
- ٦ — Encyclopaedia of Islam
- ٧ — Encyclopaedia Britannica
- ٨ — دستور الجمهوريات السوفيتية .
- ٩ — وثائق ومعاهدات بين دول الغرب والدول الاسلامية .
- ١٠ — ابن الاثير : الكامل في التاريخ .
- ١١ — احمد امين : زعماء الاصلاح .
- ١٢ — احمد امين : فجر الاسلام .
- ١٣ — احمد امين : ضحى الاسلام .
- ١٤ — احمد امين : ظهر الاسلام .
- ١٥ — احمد امين : الشرق والغرب .
- ١٦ — احمد امين : يوم الاسلام .
- ١٧ — احمد تيمور : نظرة تاريخية في المذاهب الاربعة وانتشارها .
- ١٨ — احمد زكى صفوت : عمر بن عبد العزيز .
- ١٩ — دكتور احمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية (١٠ اجزاء) .
- ٢٠ — دكتور احمد شلبى : السياسة في الفكر الاسلامى والاقتصاد في الفكر الاسلامى .
- ٢١ — دكتور احمد شلبى : التربية الاسلامية .
- ٢٢ — دكتور احمد شلبى : الفكر الاسلامى : منابعه وآثاره .
- ٢٣ — دكتور احمد شلبى : مقارنة الاديان (٤ اجزاء) .
- ٢٤ — احمد ميرزا (مؤسس الاحمدية) : الاستفتاء .
- ٢٥ — احمد ميرزا (مؤسس الاحمدية) : فلسفة الاصول الاسلامية .
- ٢٦ — احمد ميرزا (مؤسس الاحمدية) : تحفة البغداد .
- ٢٧ — الاصفهاني : الاغانى .

- ٢٨ — ابن ابي اصيبعة : عيون الأنباء .
 ٢٩ — أنور السادات : نحو بعث جديد .
 ٣٠ — بشير الدين محمود أحمد : دعوة الأحمدية ورفضها .
 ٣١ — بشير الدين محمود أحمد : What is Ahmadyyah :
 ٣٢ — Browne : A Literary History of Persia :
 ٣٣ — البلاذري : فتوح البلدان .
 ٣٤ — البغدادي : الفرق بين الفرق .
 ٣٥ — بهاء الدين العالمي : الكشكول .
 ٣٦ — ابن تيمية : السياسة الشرعية في اصلاح الراعى
 والرعية .
 ٣٧ — ابن تيمية : الحسبة .
 ٣٨ — Thomas Arnold : The Legacy of Islam :
 and Guillume
 ٣٩ — الجاحظ : كتاب التاج في اخلاق الملوك .
 ٤٠ — الجاحظ : البيان والتبيين .
 ٤١ — Gibb : Muhammadanism :
 ٤٢ — الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار .
 ٤٣ — Goldzihar : مذاهب التفسير الاسلامى (ترجمة
 الدكتور النجار) .
 ٤٤ — الجهشياري : كتاب الوزراء والكتاب .
 ٤٥ — جورجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى .
 ٤٦ — حاجى خليفة : كشف الظنون .
 ٤٧ — ابن الحاج : المحخل .
 ٤٨ — ابن حجر الهيتمى : تحفة المحتاج بشرح المنهاج .
 ٤٩ — ابن حجر : الاصابة في تمييز الصحابة .
 ٥٠ — حافظ وهبة : جزيرة العرب في القرن العشرين .
 ٥١ — ابن حجة الحموى : ثمرات الأوراق .
 ٥٢ — ابن ابي الحديد : شرح نهج البلاغة .
 ٥٣ — ابن حزم : الفصل في الملل والنحل .
 ٥٤ — دكتور حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى .
 ٥٥ — ابن حزم الأندلسى : المحلى .
 ٥٦ — ابن تيمية : الامتاع والمؤانسة .
 ٥٧ — ابن تيمية : الصداقة والسبوة .

- ٥٨ — أبو حيان التوحيدى : المقابسات .
٥٩ — الخضرى : تاريخ الأمم الإسلامية .
٦٠ — الخضرى : تاريخ التشريع الإسلامى .
٦١ — الخضرى : أصول الفقه .
٦٢ — ابن خلدون : المقدمة .
٦٣ — ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر .
٦٤ — Dinson : Er otion as The Basis of Civilization .
٦٥ — الذهبى : تاريخ الإسلام .
٦٦ — الراهب ميتشو : رحلة دينية فى الشرق .
٦٧ — السبكى : طبقات الشافعية الكبرى .
٦٨ — Stoward : حاضر العالم الإسلامى (ترجمة عجاج) .
٦٩ — سديو : تاريخ العرب العظام (ترجمة عادل زعير) .
٧٠ — سعيد الأفغانى : عائشة والسياسة .
٧١ — Sayid Ameer Ali : A Short History of the Saracens .
٧٢ — سيد أبو الحسن على الحسنى : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين .
٧٣ — السيد ماضى أبو العزائم : أسرار القرآن .
٧٤ — السيوطى : تاريخ الخلفاء .
٧٥ — السيوطى : تبيين الصحيفة فى مناقب أبى حنيفة .
٧٦ — الشرنوانى : حاشية الشرنوانى على التحفة .
٧٧ — شهاب الدين بن أحمد : المستطرف فى كل غن مستظرف .
٧٨ — الشيرازى : نهاية الرتبة .
٧٩ — الصابى : تحفة الوزراء .
٨٠ — صلاح الأعين المنجد : خطط دمشق .
٨١ — ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية .
٨٢ — الطبرى : تاريخ الأمم والملوك .
٨٣ — دكتور طه حسين : الفتنة الكبرى (عثمان — على وبنوه) .
٨٤ — أبو الطيب محمد : الوثقى .
٨٥ — ابن عبد البر : أدب المجالسة (مخطوط بدار الكتب ١٣٣ مجاميع م) .
٨٦ — ابن عبد ربه : العقد الفريد .

- ٨٧ — ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز .
 ٨٨ — ابن العبري : تاريخ مختصر الدول .
 ٨٩ — ابن العربي : احكام القرآن .
 ٩٠ — عبد الرحمن الخثعمي : الروض الأثف .
 ٩١ — عبد الرحمن عزام : الرسالة الخالدة .
 ٩٢ — عفيف طيارة : روح الدين الاسلامي .
 ٩٣ — دكتور على النشار : شهداء الاسلام في عهد النبوة .
 ٩٤ — عبد المتعال الصعيدي : السياسة الاسلامية في عهد النبوة .
 ٩٥ — ابن عساكر : تاريخ دمشق .
 ٩٦ — دكتور عمر فروخ : باكستان دولة مستعيش .
 ٩٧ — دكتور عمر فروخ : عبقرية العرب في العلم والفلسفة .
 ٩٨ — عمر أبو النصر : على وعاء .
 ٩٩ — عباس محمود العقاد : عبقرية محمد .
 ١٠٠ — عباس محمود العقاد : عبقرية الصديق .
 ١٠١ — عباس محمود العقاد : عبقرية عمر .
 ١٠٢ — عباس محمود العقاد : حقائق الاسلام واباطيل خصومه .
 ١٠٣ — عباس محمود العقاد : الديمقراطية في الاسلام .
 ١٠٤ — غوستاف لوبون : حضارة العرب .
 ١٠٥ — الغزالي : احياء علوم الدين .
 ١٠٦ — الغزالي : الرسائل العشرة .
 ١٠٧ — الغزالي : فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة .
 ١٠٨ — أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر .
 ١٠٩ — فريد رفاعي : عصر المأمون .
 ١١٠ — Philp Hitti : History of the Arabs .
 ١١١ — ابن قتيبة : عيون الأخبار .
 ١١٢ — ابن قتيبة : الامامة والسياسة .
 ١١٣ — ابن قدامة : نبذة من كتاب الخراج .
 ١١٤ — القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد .
 ١١٥ — دكتور قهر الدين يونس : الانسانية .
 ١١٦ — ابن القسيم : اعلام الموقعين عن رب العالمين .
 ١١٧ — ابن القسيم : زاد المعاد في هدى خير العباد .
 ١١٨ — كشاف : أدب الندم .

١٢٠. ابن الكلبي : الأصنام .
١٢٠. — كيرك : موجز تاريخ الشرق الأوسط (ترجمة عمر الاسكندري) .
١٢١. Lane Poole — Muh. Dynasties : الأحكام السلطانية .
١٢٢. — الماوردي : أدب الدنيا والدين .
١٢٣. — الماوردي : الكامل .
١٢٤. — المبرد : الاسلام على مفترق الطرق .
١٢٥. — محمد أسد : المنار (أعداد مختلفة) .
١٢٦. — السيد محمد رشيد رضا : يسم الاسلام .
١٢٧. — السيد محمد رشيد رضا : نبوة الشعوب الاسلامية .
١٢٨. — محمد حبيب احمد : د. محمد ضياء الدين الرئيس : النظريات السياسية الاسلامية .
١٢٩. — د. محمد ضياء الدين الرئيس : الخراج .
١٣٠. — د. محمد ضياء الدين الرئيس : الاسلام والانصرافية مع العلم والمدنية .
١٣١. — محمد عبد الله عنان : رسالة التوحيد .
١٣٢. — محمد عبد الله عنان : مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام .
١٣٣. — محمد عبد الله عنان : تاريخ المؤامرات السياسية .
١٣٤. — محمد الغزالي : الاسلام والمناهج الاشتراكية .
١٣٥. — محمد صادق الصدر : الشيعة .
١٣٦. — محمد كرك على : الاسلام والحضارة العربية .
١٣٧. — الأستاذ الاكبر الشيخ محمود شلتوت : الاسلام عقيدة وشريعة .
١٣٨. — ابن مكسويه : تهذيب الأخلاق .
١٣٩. — مصطفى الرافعي : اعجاز القرآن .
١٤٠. — Macdonald — Muslim Theology : المودودي في الميزان .
١٤١. — منير الحصني الحسيني : كتاب مطلب السؤل في غزوات الرداء .
١٤٢. — النسيبي : (مخطوط بدار الكتب رقم ١٩٧٩) .
١٤٣. — Nicholson — A Literary History of the Arabs : تهذيب الأسماء .
١٤٤. — النور : The Arab Civilization : السيرة .
١٤٥. — ابن هشام : حياة محمد .
١٤٦. — دكتور هكل : دكتور هكل

- | | | |
|-------|------------------------|--------------------|
| ١٤٩ — | دكتور هيكل | : الصديق ابو بكر . |
| ١٥٠ — | دكتور هيكل | : انفاروق عمر . |
| ١٥١ — | ياقوت | : معجم البلدان . |
| ١٥٢ — | ياقوت | : معجم الانباء . |
| ١٥٣ — | ابو زكريا يحيى النواوى | : متن المنهاج . |
| ١٥٤ — | يحيى بن آدم | : الخراج . |
| ١٥٥ — | ابو يوسف | : الخراج . |
| ١٥٦ — | يوسف عبد الرازق | : معالم الهجرة . |